فتى الأندلس

للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

العنوان: فتى الأندلس

تأليف: د. محمود ماهر

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الطبعة الأولى: يناير 2025م

رقم الإيداع: 25923/2024م

الترقيم الدولي: 978-977-992-435-9

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

محمود ماهر

فتى الأندلس

الحاجب المنصور

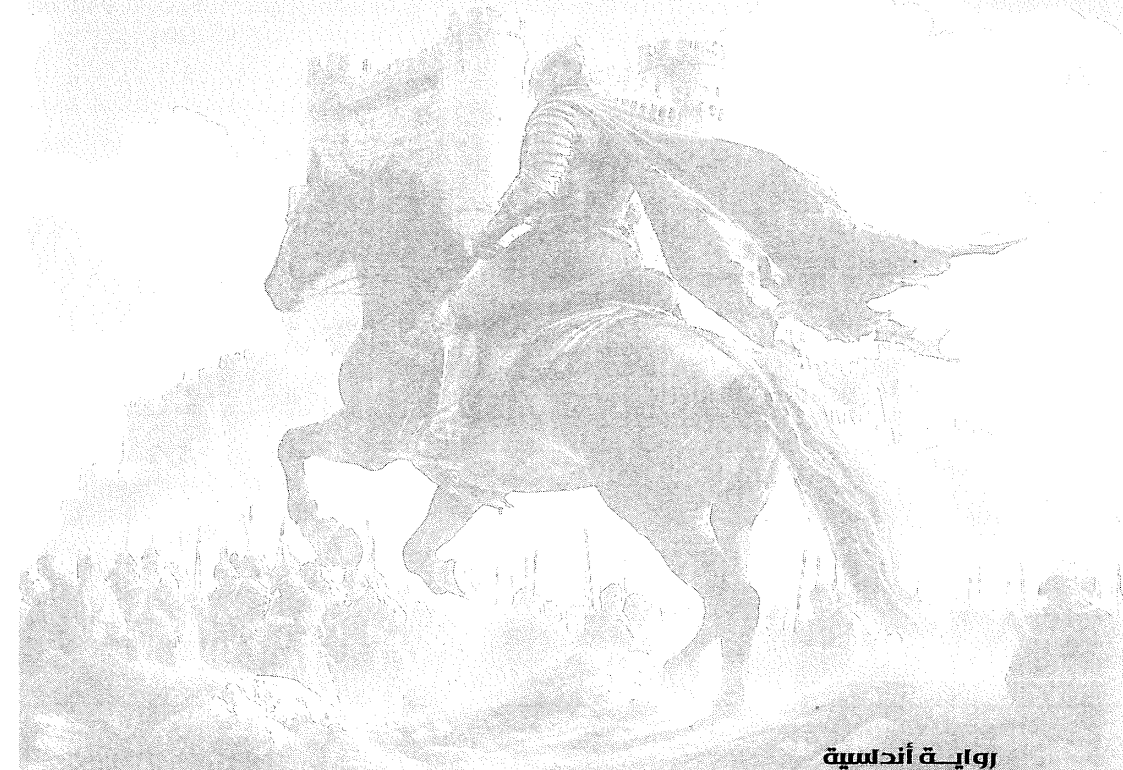

رواية أندلسية

عصير الكتب

إهداء

إلى قلب أبيها، إلى ابنتي الغالية «نـدى»، وإلى أبـي رحمه الله، وإلى عبد الرحمن الناصر لدين الله، ذلك الشاب الذي أقام ربيع الأندلس وجعل الزهراء عاصمة الدنيا.

تنويه

وقعت أحداث هذه الرواية في القرن العاشر الميلادي، وجميع ما ورد فيها من أحداث ومعلومات هي حقائق وليست من نسْج الخيال!

راوي الأندلس

الفصل الأول

قُرطُبة، جوهرة الدنيا

قُرطُبة مُنتَهى الغاية، ومركزُ الرَّاية، وأُمُّ القرى، وقرارةُ أهل الفضل والتُّقَى، ووطنُ أُولي العِلم والنُّهَى، وقلبُ الإقليم، ويُنبوعُ مُتَفَجِّر العلوم، وقُبَّةُ الإسلام، وحضْرةُ الإمام، ودارُ صوْب العقول، وبستانُ ثمرة الخواطر، وبحرُ دُرَرِ القرائح، ومن أُفُقِها طلعتْ نجومُ الأرض وأعلامُ العصر، وفرسانُ النظْم والنَّثْر، وبها أُنشِئت التأليفات الرائقة، وصُنِّفَتِ التصنيفات الفائقة، أشرافُ عربِ المشرقِ افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها، فبقي النسْلُ فيها بكل إقليم، على عرقٍ كريم، فلا يكاد بلدٌ فيها يخلو من كاتبٍ ماهر، وشاعرٍ قاهر.

سَفارة «أردونيو»

مطرٌ خفيفٌ يُداعب أوراق الشجر ليغسل أغصانها النضرة، وينساب إلى الأرض يروي عطشها، ويصنع جداول صغيرة يلهو الأطفال حولها، ومن بعيدٍ سُمِعت أصوات صهيل خيْلٍ قادمة، وما هي إلا لحظات حتى ظهرت الخيْل وهي تتقدَّم صوب الجموع الغفيرة المنتشرة هنا وهناك لتشُقَّ طريقًا صوْبَ قصر قُرطُبة، ورغم المطر، فقد تكاثر الخلْق وازدحموا ليشاهدوا موكِب ملك «ليون» الملقَّب بالخبيث، وعمَّت الأفراح أرباض قُرطُبة كلها وضجَّت من أولها إلى آخرها؛ فلأولِ مرَّة منذ وفاة الناصر تُقبل الملوك على الزهراء، فشعر الأندلسيون أن ذلك امتدادٌ لعصر الناصر، وكم كانوا يحبُّونه ويجِلُّونه ويرونه الأب والأخ والقائد العظيم!

وعلى جوانب أحد الطرقات المؤدِّية إلى قصر قُرطُبة، وقف شابٌّ عشرينيٌّ نحيفُ القدِّ، هو يرتدى ثيابًا زرقاء وقد أرسل شعره على كتفه، وبجواره شابٌّ آخر ذو وجه ممتلئ وعينين زرقاوين يرتدي زيًّا قد تلطَّخ بالعجين، بينما وجهه قد ملأه الغبار الذي تحوَّل إلى عجين بِفعل المطر، والاثنان غير معمَّمين كمعظم أهل قُرطُبة، حتى إذا مرَّ موكب «أردونيو» وكان قد اصطحب معه قرابة عشرين رجلًا من أصحابه، وبجواره وفي مقدِّمة الموكب كان يسير «غالب الناصري» صاحب «مدينة سالم» بهيئته الوقورة ولِحيته الفضِّية الكبيرة، والجميع ينظرون إليه، وكان معروفًا ومحبوبًا لديهم، فهو فارس الأندلس وسيفها الذي لا يُقهر، كما أنه شيخ الموالي، أما «أردونيو»، فقد ظهر منكَّس الرأس مطأطئها وكأنه يخشى أن ينظر في أعين الناس، فثبَّت عينيه على رقبة حِصانه لا ينظر يمينًا أو يسارًا.

نظر الأول إلى الثاني وقال:

مروان: صدَق من أطلق عليه لقب الخبيث!

زيدون: لا يُطلَقُ لقبٌ إلا وافق صاحبه وما عُرِف به. انظر، هذا «المصحفي» قد خرج لاستقبالهم.

مروان: الجميع يعلم أن «المصحفي» و«غالبًا الناصري» ليْسَا على وفاق.

زيدون: هذا لا يعني شيئًا يا صديقي، فكلاهما في خدمة الدولة والخليفة، ولا يسع أحدهما إلا الطاعة وإن اختلفا.

مروان: لكنها كالماء والنار، كالليل والنهار، ألا ترى «المصحفي» وخِلَاله السيئة من ضعْفٍ وبُخْل، يُقابلهما كرمٌ وشجاعة لا مثيل لهما عند «غالب» الناصري؟! فأيُّ دولة تلك التي يجتمع فيها رجالٌ كهؤلاء.

زيدون: أمَّا قوة وشجاعة الناصري فقد أحسَنَ الخليفة استغلالها، فجعله قائدًا للجيوش، وأمَّا «المصحفي»، فهو حاجبه، ولن يضر الخليفة بُخْله من كرمِه.

مروان: لكن الحِجابة أعلى مراتب الدولة.

زيدون: ولكن الدولة كلها في يد الحَكَم فهو المتحكِّم فيها على الحقيقة، وما «المصحفي» إلا خادمه ومولاه.

مروان: ربما أنت على صواب.

أكمل الموكب سيْرَه حتى وصل إلى قصور قُرطُبة فترجَّل «أردونيو» وكذا مَنْ حوله، فلمَّا دخلوا القصر ووصل «أردونيو» إلى ما بين باب السُّدة وباب الجِنان، فنظر إلى «غالب» الناصري وقال:

- أين مدفن الناصر العظيم؟

- هناك في الروضة.. داخل القصر.

تحرَّك «أردونيو» صوب المدفن وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعًا و«غالب» و«المصحفي» ينظرون إليه، فلمَّا انتهى، اقترب من «المصحفي»

الذي كان يرتدي زِيَّ الحِجابة -إذْ كان لكلِّ منصب لِباسهُ الخاص- وكان «المصحفي» نحيل القدِّ، هادئ الصوت، قصير القامة. وقال:

- أين الخليفة؟

- الخليفة اليوم في مَشْغَلَةٍ عنك، وقد أوصي بك أن تنزِل هنا في دار الناعورة بجوار نهر الوادي الكبير.

نظر «غالب» إلى «أردونيو» وقال له مستنكِرًا:

- هل كنت تنتظر أن يكون الخليفة في استقبالك؟

- لا، ولكن.....

قاطَعهُ «غالب» وقال:

- عندما ينتهي من أمور الدولة سيستدعيك، فلا تتعجَّل، وتعلَّم آداب الوقوف بين يدَي صاحب الزهراء، فأنت هنا في قُرطُبة عاصمة الدنيا، ولن ينقصك شيء. ثم رفع يدَه وقال:

- تفضَّل بالدخول.

لم يستطع «أردونيو» الرد على «غالب»، فاكتفى بالصمت والسَّماع ودخل إلى قصر الناعورة، فهَالَه جمالُه، وتلك النقوش البديعة على جدرانِه، ونافورة المياه التي تُطرِب الآذان، فنظر إلى ذاك الجمال حتى غرق فيه ولم يتنبَّه لوجود الناصري و«المصحفي» وهما ينظران إليه، فلمَّا أيقنا أنه ذاهلٌ عنهما خرجا وتركاه يتقلَّب في روعة ذاك المنظر، حتى إذا مرَّ الوقت خرج إليه بعض فِتيان القصر وقدَّموا له ولرفقته الطعام والشراب، فراح يأكل وأصحابه بطريقة بدائية جعلت الفتيان يتهامسون فيما بينهم، فلما انتهى من الطعام خرج إلى حدائق القصر يتجوَّل فيه وهو ينظر إلى منارة الناصر وكان عليها ثلاث تفاحات من الذهب والفضة، فلمَّا وقع ضوء الشمس على تلك التفاحات صنعت بريقًا جميلًا خطف بصر «أردونيو» الذي أخذ نفَسًا عميقًا وقال في نفسه متحسِّرًا: «كيف لنا أن نهزِم أمة صنعتْ هذا الجمال؟ كنت أظن نفسي

أجلس في قصرٍ في ليون، فلمَّا حضرت إلى هنا علمت أنني كنت أعيش في حظيرة حيوانات.

❀❀✻❀❀

(2)

بعد يومين، استدعى الحَكَم «أردونيو» إلى قصر الزهراء، وقد حُشِدت قوات عظيمة من الجند، وبولغ في الاحتفال بالزينات وإظهار الأسلحة والعُدَد. وجلس الحَكم الذي كان قد تجاوَز الأربعين من العمر فوق سرير الملك وهو يرتدي الزِّيَّ الخِلافِي، وكان الشيب قد خطَّ شعره وذقنه فزاده هيبة ووقارًا، جلس في المجلس الشرقيِّ ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر، وجيء بـ«أردونيو» وأصحابه، ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس، فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة وقد بُهِروا بما رأوا، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة، وأُجلِسوا هنيهة في بهو الانتظار، ثم استُدعوا للمثول بين يدي الخليفة، فسار «أردونيو» ومن ورائه أصحابه، فلمَّا وصل إلى مجلس الخلافة، كشف رأسه وخلع بُرنُسه، ولمَّا دنا من سرير الحُكم سجد أمامه، ثم قبَّل يده، ثم ارتدَّ راجعًا إلى كرسيٍّ من الديباج المُثْقل بالذهب وهو لا يرفع عينيه في عين الخليفة خشيةً ورهبةً.

وتولَّى الترجمة بين «أردونيو» والخليفة، وليد بن خيزون قاضي الذِّمة بقُرطُبة.

الخليفة: قد علِمنا أنَّ لك حاجة عندنا، فابسُط حاجتك.

بصوتٍ خاشعٍ وعينٍ لم ترتفع عن الأرض تحدَّث «أردونيو» وقال:

- لقد اختارني الشعب لأكون حاكمًا عليه، غير أن خَصمي «سانشو» قصد إلى الخليفة العظيم والدكم -عليه رحمة الله- فنصره وأغاثه، ومع ذلك يا سيِّدي فقد نكث سانشو بعهوده، وهأنذا أستجير بكم وأضع نفسي وشعبي تحت إرادتكم وأحالفكم، وأتعهَّد كذلك بمقاطعة صِهرى

الكونت «فرنان كونثالث» وأقدِّم ولدي «غرسيه» رهينة تحت تصرُّفكم على أن تنصروني وتعيدوني ملكًا على ليون كما كنت.

- لا يتقدم أحد إلى قُرطُبة مستجيرًا بها إلا أجرنَاه وأعنَّاه؛ حتى يعلم الجميع أن قُرطُبة هي المبتدأ والمنتهى، وأنها وحدها من تملك خلع هذا أو تنصيب ذاك. أجل، قد أعان الناصر -رحمه الله- سانشو وأعاده ملكًا على ليون، ولكن حنْث سانشو وغدره جعل لنا الحق في خلْعه، ومنْ نصَّبك يستطيع خلْعك، ومنْ أعانك يُعين عليك، فنحن منْ يحكم الجزيرة لا أنتم، ومنْ خرج علينا هان علينا.
- أمَّا أنا يا سيِّدي فلن أغدر ولن أحْنَث في كلمتي.
- ولو غدرت أو حنَثت لن تجد عندنا إلا السيف نردُّك به إلى رُشدِك.
- لن أفعل يا سيِّدي، وحقِّ الرب لن أفعل.
- ها هو «غالب الناصري» يخرج معكم ويُعيدُك مِلكًا كما كنت، فاخرُج قد قُضيت حاجتك، وقد أمرنا لك ببعض الهدايا والثياب لك ولأصحابك.

ابتهج «أردونيو» وتقدَّم صوب الخليفة وقبَّل يده مرة أخرى، وكذا فعل كلُّ من كان معه، ثم خرج من المجلس وقد شعر أنه قد عاد إلى مُلْكه مرة أخرى، ورحل بعد أن قدَّم إليه الحاجب جعفر الهدايا التي أمر بها الخليفة له ولأصحابه.

❀❀*❀❀

(3)

في ليون، حيث الطبيعة الباردة والطرقات المليئة بالطين والحشائش والبيوت المبنية من الحجارة كأنها الحصون والقِلاع، كان الملك «سانشو» يجلس على مأدُبة الطعام وقد نحَل جسده وبجواره زوجته الجميلة «تريسا» وعلى رأسها تاجٌ مُرصَّعٌ بالذهب، ومعهما ابنهما الصغير «راميرو» وأخت الملك الراهبة «ألبيرة» التي كانت ترتدي ثياب الراهبات، وكان سانشو قد عافَ الطعام فلم يتذوق منه إلا القليل، فنظرت إليه «تريسا» وقالت:

تريسا: ما الذي يشغل مولاي الملك حتى أفقده شهيته؟

ألبيرة: هل هو العلاج الذي تلقَّاه الملك من قبل ونصائح ذلك الطبيب اليهودي حسداي بن شبروط؟

توقَّف سانشو عن الطعام بالكُلِّيَّة، ثم قال بحزنٍ ممزوج بالغضب: فقدت هذا العرش بسبب بدانتي التي عانيت كثيرًا منها حتى أرسل إليَّ خليفة المسلمين بوساطة عمتي الملكة «طوطة» ذلك الطبيب الرائع الذي عالجني، ثم ساعدني الخليفة حتى استعدت ذلك العرش من يدِ هؤلاء الخونة، فلمَّا مات الناصر نكثْتُ وعودي وأعلنت الثورة في وجه خليفتهم الجديد، ومَنْ ذا الذي يتنازل عن مُلكِه، وهل السياسة إلا الوفاء بالعهد زمن الضعف والحنْث زمن القوة؟! أجل، لقد أخلفت وعدي وعهدي للناصر، وما كنت لأسلِّمه حفنة من تراب بلدي... ثم نهض من مكانه وصرخ: ولكن إن كنت قد تخلَّصت من تلك البدانة بفضل المسلمين، فكيف أتخلَّص من هؤلاء الخوَنة الذين يطرقون أبواب قُرطُبة بحثًا عن هذا العرش وعن مُلكٍ ليس لهم؟!

بخُبث ومكْر نظرت «ألبيرة» إلى أخيها وقالت وهي ما تزال تمضغ طعامها: كما تخلَّصت من البدانة عليك أن تتخلَّص من الخونة وأتباعِهم حتى لا يبقى فيها من ينازعك هذا العرش، وإن أخلفت وعدك مرات ومرات فما السياسة يا أخي إلا العهود ونقْضها!

دار «سانشو» حول مائدة الطعام حتى وقف خلف ألبيرة وقال: كيف ذلك؟ وكيف السبيل إليهم وهم هناك في قُرطُبة؟

ألبيرة: إن كنت تقصد ابن عمك «أردونيو» فما لا تستطيعه بالحرب تفعله بالمال وشراء الذِّمم.

تريسا: ولا تنسَ الحِيلة أيضًا، فإن نجحت الخيانة فبها، وإلَّا.. تبقى الحيلة بيدك.

(4)

«الحُلْم»

في أحد متنزهات قُرطُبة بالقرب من مسجدها الكبير، حيث ازدحام الأقدام، ولألأة الفوانيس التي تضوي في جنباتها، فقد كانت تُضاء ليلًا بأمر من الخليفة الناصر، حتى لا تجد فيها زقاقًا أو طريقًا إلا مضاءً بفوانيسها، فضلًا عن تلك الفوانيس الصغيرة التي تزيِّن كل دار به حافظة للقرآن تمييزًا وتعظيمًا لها.

ولم يحُل البناء دون وصول المياه إلى ساكنيها، بل كانت المياه تصل إلى الدُّور عبر أنابيب ضخمة، وكان بها نظام للصرف الصحي، حتى القمامة لم تعدم في عصر الخليفة الناصر مسؤولين عن جمعها من الشوارع، حتى لا تدع فيها إلا جمالًا وراحة يرفرفان.

أما بيوت قرطبة فتزينت بأشجار التين واللارنج والبرتقال، وانتشر النخيل يضلل فوق كل مكان، وكذا رافقتها أشجار الزيتون والرمان، حتى اكتست قرطبة وكل الأندلس بأشجار مثمرة، فلكأنَّ السائر فيها يجوب في حديقة مترامية الأطراف أو جنة على الأرض، ومع هذا انبثق الكثير من الحدائق العامة للترويح عن الشعب، وكانت تلك الحدائق مفتوحة للعامة والخاصة، ليخرج أهل قرطبة يتنعمون بتلك المتنزهات الزاهرة، التي جمعت أخلاط الناس من شتى فئات المجتمع، وخصوصًا طلبة العلم الذين وفدوا من كل أرجاء الدنيا لينهلوا العلمَ في مسجد قرطبة الجامع.

وتحت ضوء القمر، وفي أحد جوانب المتنزَّه، جلس بعض طلبة العلم وقد مدُّوا صحائف الطعام وهم يتسامرون، إلا واحدًا منهم قد أطال النظر إلى النجوم، جاعلًا ظهره للأرض متَّكِئًا برأسه على أحد الأحجار، ملتزمًا الصمت وهو غارق في أفكاره وكأنه يجلس وحيدًا في هذه الرقعة من الأرض، وبعدما مرَّ بعض الوقت انتبه له أحدهم فقال:

موسى بن عزرون العامري: كثرة النظر إلى النجوم تُعْشي النظر يا ابن العم.

استقام الفتى «محمد بن أبي عامر»- وكان يرتدي ثيابًا منمَّقة، وعلى رأسه عمامة متفرِّد بها عن باقي أصحابه، وهو في العشرينيات من عمره، ذو لحية سوداء وأنف مدبب ولكنه صغير- فنمَّق ثيابه ونظر إلى موسى وقال: تُعْشي النظر.. أو تشْحَذُه.

عمرو بن عبد الله العامري: فيمَ تفكِّر يا محمد؟ لا نجدك تتحدث إلينا، فهل خرجنا إلى هنا لتصمت؟ أين لذَّة الحديث؟

أخذ محمد نفسًا عميقًا ثم التفت ببصره بعيدًا صوب منارة مسجد قُرطُبة وقال بحماسة وكثير من الجِد: لا بد لي أن أملك الأندلس، وأملك الرجال، وأقود الجيوش، ويُنفَّذ حُكمي في جميع البلاد.

ضحك الجميع ونظر بعضهم إلى بعض ولم يتحدَّثوا، إلا موسى الذي قال: أتعلم يا ابن العم أنك قد وُلِدت في تلك السنة التي هُزم فيها الخليفة العظيم الراحل عبد الرحمن الناصر رحمه الله؟

محمد: وما علاقة ذلك بما أقول؟

موسى ضاحكًا: ما كانت سنة ميلادك تنبئ بشيء مما تقول، فقد كانت سنة هزائم ونحْسٍ على الأندلس.

محمد: أتريد أن تقول إن مولدي كان شؤمًا ولا يُنبئ بخير؟!

صمت الجميع وشعروا أن موسى قد أفحم محمدًا بكلامه وهم بين مبتسمٍ وساخرٍ حتى قال محمد: وقد وُلد رسولنا -صلى الله عليه وسلم- في عام الفيل، ذلك العام الذي كاد أبرهة الحبشيُّ أن يهدم الكعبة فيه؟ ثم ألا تعلم يا موسى أنَّ من رحِم المعاناة يأتي الفرج، وأن زمن الشدة يصنع الرجال؟ ثم مَن قال إن الناصر -رحمه الله- قد هُزم يوم الخندق؟ أجهل التاريخ وهو قريبٌ يا موسى، فكيف بعد مرور مئات السنين؟

ضحك الفقيه ابن الحسن ونظر إلى موسى وقال: أجل والله، لكأنه ألْقَمَك حجرًا، كنَّا نظن أنك قد غلبته، حتى أتى لك بحُجَّته من حيث لا تدري.

عمرو: ألا تصمت يا موسى فيكون خيرًا لك.

لم يبالِ موسى بما قيل، فقد كان به من اللامبالاة الكثير، فلم يكن يعبأ بما حدث. أمَّا محمد، فقد تابع حُلمه وقال لهم: والآن، إن أنا ملكت الأندلس -وهذه والله غايتي- فليتمنَّ كلُّ واحد منكم ما شاء، وتذكَّروا أن عبد الرحمن الأول دخل الأندلس وحيدًا.

عمرو: أجل، ولكنه كان يطلب إرث آبائه وأجداده ومُلك بني أميَّة، أما أنت؟!

محمد: أما أنا فأحمل نفس العزيمة التي كان يحملها وربما يزيد، وما خرجت من حِصن طرش بالجزيرة الخضراء طلبًا للرزق، فقد كان عندي في حصن طُرَّش ما يغنيني.

الجميع: تملك الأندلس يا محمد ونحن لا نملك حتى أجرة تلك الغرفة التي نسكنها في قُرطُبة؟!

موسى: لا بأس، استفتِح أبواب الجنة وأغمض عينيك، وتخيَّل، ولنتخيلنَّ معك، فالأحلام ليست مُكلفة، ولكن إياك يا ابن العم أن تقول هذا الكلام لغيرنا فيظنوا بك الجنون.

همْهَم الجميع وقرر بعضهم أن يجاروا الفتى في أحلامه وآماله، فماذا ينقص إن هم حلموا أو تخيَّلوا؟ هل الأحلام تُشترى؟ لهذا قرَّر الجميع المشاركة في هذا الحلم، فتصوروا أن محمدًا قد ملك البلاد، وجاء كل فرد منهم يطلب حاجته. فقال أولهم:

عمرو: أما أنا، فأرجو أن تولِّيني على المدينة لضرب اللصوص والجناة، ونفتحها مثل هذه الشاردة.

ابن الحسن: وأما أنا، فولِّني قضاء ريَّة.

محمد: وأنت يا ابن المرعزيِّ؟

ابن المرعزيِّ: أما أنا، فأشتهي هذا الإسفنج، فولِّني أحكام السُّوق حتى نشتفي منها.

نظر محمد إلى ابن عمه موسى الذي قال بلهجة ساخرة وصوتٍ مرتفع: أما أنا، فإن حدث، فأركِبنى حمارًا، واكشف ظهري وبطني، ثم اسكب بعضًا

من العسل عليَّ حتى يجتمع عليَّ الذباب ويكون وجهي لظهر الحمار، ثم طُف بي شوارع قُرطُبة، ثم اجلدني مئة جلدة. قال ذلك وضحك، ثم قام من مكانه متجهًا صوب إحدى الحانات.

عمرو: لا بأس يا محمد، فأنت تعرف ابن عمك وسفاهته.

محمد: أجل، لا بأس أن يختار الرجل لنفسه.

❀❀✻❀❀

(5)

جلس «أردونيو» على حجرٍ كبير بجوار قلعة «مدينة سالم»، وجلس بجواره أحد حرَّاسه، وكان الغضب باديًا على وجه «أردونيو» الذي قال بعد تفكيرٍ وصمت:

- لقد بدأ صبري ينفد وأنا أمكث هنا بعيدًا عن عرشي ولا أرى أي تجهيزات أو تحرُّكات تنبئ عن جديد قادم.
- يجب أن تتحدث مع القائد «غالب» يا سيِّدي.
- أخشى ما أخشاه أن ينكثوا عهودهم.
- لكن ما نعرفه عنهم أنهم لا يفعلون.
- إنها السياسة، وقد وصلتني الأخبار أن اللعين سانشو لمَّا علِم بمقامي هنا وما دار بيني وبين الخليفة في الزهراء، أرسل إلى «الحَكم» يعتذر منه ويتعهَّد له بدفع كل ما تأخر عليه من جزية وأموال، وأن يدخل في طاعته، ويهدم بعض الحصون ويسلِّم بعضها الآخر، فأين كان كل ذلك من قبل؟ وهل كان سانشو بحاجة إلى خروجي إليهم حتى يذُعن ويقدِّم لهم الطاعة؟ أم تراهم أخذوا بي ما لم يستطيعوا أخذه من قبل؟ فهل أصبحتُ أنا سببًا في تفاهمهم بعد اختلافهم؟
- لا أظن ذلك يا سيِّدي، فقد عهدناهم لا يغدرون ولا يحنثون في أيمانٍ عقدوها.

- حتى وإن أطاعهم سانشو وقدَّم لهم بالسِّلم ما سيأخذونه بالسيف؟
- وإن قدَّم لهم أكثر من ذلك يا سيِّدي فقطعًا لن يخونوا عهدك.
- ورغم ذلك يجب عليَّ التحدث إلى «غالب»، فلن أبقى هكذا طويلًا.

ونهض من فوره وتحرَّك وهو لا يعلم ما يخفيه له القدر وتحدَّث إلى «غالب» الذي كان يجلس في بهو القلعة وسط رجاله، فقال له:

- إلى متى ننتظر يا سيِّدي؟
- حتى تتهيأ الجيوش، فأنا لا أدخل حربًا قبل أن أتجهَّز لها وأُعِد لها جيدًا.
- لكن طال بقاؤنا هنا؟!
- لا تتعجَّل الأمر فيكن لك عكس ما أردت.
- لكن إن تسرَّب لسانشو خبرنا فسيتجهَّز لنا لا محالة.
- فليفعل ما يفعل، ولكن المبادرة ستكون بأيدينا وسيوفنا، فطِب خاطرًا واعلم أننا قومٌ لا نغدر، وعسى أن يكون ما ترجوه قريبًا.

هز «أردونيو» رأسه وخرج من مجلس «غالب» وهو هادئ بعض الشيء، ولكنه مضطرب النفْس، حتى إذا دخل خيمته على جانب معسكره جلس على سريره وهو يقول: لقد وُعِدت بالنصر.... ثم أمسك بكأس من الخمر وراح يشرب ويقول: «لقد وعدني واستوثقت منه، ولكن متى؟ متى تتحرك تلك الجيوش وتزيح سانشو اللعين وأعود ملكًا كما كنت؟ ثم قذف بكأس الخمر فتحطَّم، ثم قال لمن حوله: عليكم اللعنة! أين الخمر؟

هرول أحد الجنود وملأ له كأسًا جديدًا، فما إن تجرعها حتى شعر بألم يسري في جوفه وبدأ يتقيأ ويتألم وقد أحاط به جنوده لا يعلمون ماذا يصنعون، بينما لاذَ الجندي بالفرار، وما هي إلا ساعات حتى فاضت روحه وهلك مكانه.

❀❀✻❀❀

(6)

ما كادت شمس قُرطُبة تُشرق من خلف الجبال وتتسرب أشعتها الذهبية إلى داخل ذلك البيت المتواضع الذي يسكنه محمد وابن عمه، ناشرة النور به، حتى كان «محمد بن أبي عامر وابن عمه عمرو قد تجهزا للخروج إلى المسجد الجامع وقد ارتدى محمد ثيابًا منمَّقة حملها معه من حصن طُرَّش بالجزيرة الخضراء، وكذا ابن عمه عمرو، وإن ظهر أقل منه مظهرًا.

نظر محمد إلى حيث ينام موسى وقال:

- ألن يستيقظ موسى فيخرج معنا؟

- أنت تعلم أنه لن يفعل، فلنتركه ونذهب حتى لا يفوتنا درْس أبي علي القالي البغدادي.

- ودرْس أبي بكر بن القوطية، وأبي بكر بن معاوية القرشي.

استيقظ موسى على حديثهما فنهض من سريره متكاسلًا وقعد في جلسته، ثم قال ساخرًا: وهل نضب عِلم المغرب حتى نستمع إلى دروس أهل المشرق؟ ثم ألم يجد هؤلاء من يستمع لهم في بغداد والقاهرة ودمشق حتى حضروا إلى قُرطُبة.

محمد: أيها الجاهل، لقد صارت قُرطُبة بوابة العلم وحاضرة الدنيا منذ الناصر -رحمه الله- فأين هي بغداد منها الآن وقد ضعُفت الخلافة العباسية؟ وأين القاهرة وقد فعل بها العُبيديون ما فعلوا؟ أما الأندلس، فقد جعلها الناصر جوهرة العالم حتى جاءت إليه الوفود من كل مكان تطلب رضاه، وقد أكمل الحَكَم سيرته، غير أن الحَكَم مال أكثر إلى العلم، فهذه المكتبة الأموية لن تجد نظيرتها في الدنيا إلا دار الحكمة ببغداد.

موسى: كل هذا ولم تخبرني، لماذا أتى هؤلاء إلى هنا؟!

محمد: قُرطُبة القوة والنهضة والمال والجاه، أما علمت أن الحَكَم يُسبغ على العلماء؟ فوالله لقد علمت أنه يعطي مالًا عظيمًا ليحصل على مبتغاه في الكتب، بل إنهم قالوا إن الحَكَم يريد أن يشتري ما لم يُكتب بعد، إذًا فهنا مكان

صالح للعلماء، يجدون فيه نتيجة عِلمهم ويُجِلُّهم العامة والخاصة. والآن، ألن تأتي معنا؟

موسى متنهدًا: تعلم أنني لن أفعل، وماذا يفعل العلم والدرس وأنا لا أنوي أن أكون فقيهًا؟ ثم سخِر وقال: ولن أَلِيَ القضاء الذي رفضه من قبل عمي عبد الله بن أبي عامر رحمه الله.

أمسك عمرو بيد محمد وقال له: لا فائدة من الحديث معه، فهيَّا حتى لا نتأخر عن الدرس.

وما إن خرجوا حتى نظر عمرو إلى محمد وقال: لقد سمعت كثيرًا عن مقولة موسى هذه، فهلَّا أخبرتني بما عندك؟

- لقد قالت لي أمي ذات يوم: إن أبي رفض تولِّي القضاء في قُرطُبة، فما إن خالط السلطان حتى فرَّ إلى حصن طُرَّش بالجزيرة الخضراء قائلًا: «السلطان من ترك السلطان، فقد خشي -رحمه الله- على دينه.
- ولكن رجلًا كان سيتولى يومًا القضاء لا بد أن يكون له هنا في قُرطُبة من المعارف والرجال الكثيرون.

وصل الشابَّان إلى باب المسجد فتوقَّف محمد وخلع حذاءه ووضعه جانبًا، وكذا فعل عمرو، ثم قال محمد:

- أجل، فقد كان على صلة كبيرة بالوزير ابن حُدير.
- إذن لماذا لا تتواصل معه فيعينك على ما تريد؟
- ربما أفعل.

ثم دخل الاثنان إلى المسجد الجامع، وكان مزدحمًا بالطلبة من كل مكان «من بلاد العرب والعجم من بلاد النورمان والإفرنج وإنجلترا وغيرهم». جلس الاثنان إلى الفقيه أبي بكر بن القوطية الذي كان يجلس بجوار إحدى سواري المسجد وهو يحدِّثهم عن علوم اللغة والتاريخ والحديث وهو ينظر إلى طلابه ويتفقَّدهم بعينه ويطرح عليهم السؤال تلو الآخر يناقشهم ويناقشونه، وكان في كل مرة يطرح سؤالًا يسارع «محمد بن أبي عامر» للإجابة حتى لفت نظر

أستاذه، وكذا الطلاب، فلمَّا انتهى الدرس وبدأ الجميع في الانصراف تقدَّم ابن القوطية من محمد وقال له:

- هل أنت جديد هنا؟
- أجل يا سيِّدي.
- ما اسمك أيها الفتى؟
- محمد بن أبي عامر يا سيِّدي.

ربَّت ابن القوطية على كتف محمد وقال:

- سنراك هنا كثيرًا يا محمد.
- قطعًا، إنه لشرف وفخر لي أن أتعلم على أيديكم، ولكن إن تفضَّل سيِّدي فلي سؤال يُلحُّ عليَّ.
- ما هو؟
- سيِّدي أبو بكر محمد بن عمر، مؤرِّخ زمانه وأكثرهم علمًا باللغة العربية، ولكن ومع ذلك يُطلقون عليك ابن القوطية، فلماذا؟

ابتسم ابن القوطية وأمسك بذراع محمد وتحرَّك صوب بهو البرتقال في المسجد الجامع، بينما وقف عمرو يراقبهما من بعيد، وعند النافورة الكبيرة بساحة المسجد قال ابن القوطية:

- آه يا محمد، لقد كان لهذا اللقب قصة، فقد وفدت جدتي سارة حفيدة الملك غيطشة على «هشام بن عبد الملك» -رحمه الله- في دمشق متظلِّمة من عمِّها الأب «أوباس»، فزوَّجها هشام بعيسى بن مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز الذي انتقل بها مرة أخرى إلى الأندلس حبًّا لها ونزولًا على رغبتها، حيث رفضت سارة المكوث بدمشق، ومنذ ذلك الوقت وأسرتي تُعرف ببني القوطية، حتى أبي -رحمه الله- وقد كان قاضيًا للناصر الذي أطلق عليه اسم ابن القوطية، وهذا ليس فخرًا بالقوط يا بُنيَّ، ولكنه لقبٌ غلب علينا.

- وهذا عين القصد يا سيِّدي، إذ إني أرى الروم والإفرنج يفتخرون بما تعلَّموه من لغتنا العربية، فعجبت كيف لمثلك أن يفتخر بالقوط حتى عرَفت منك الآن السبب.

❀❀✻❀❀

(7)

بينما خرير الماء يُطرب الآذان؛ كان الخليفة يتحرَّك في قصر الزهراء وبجواره يسير الحاجب جعفر «المصحفي»، ولكن متخلفًا عنه بخطوة، بينما الصقالبة (والصقالبة جماعة من الرقيق والخِصيان، الذين يؤتى بهم بالأخصِّ من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض النصرانية، وكان يؤتى بهم أطفالًا من الجنسين ويُربَّون تربية إسلامية، ثم يدرَّبون على أعمال البطانة وشئون القصر) يتحركون في كل أرجاء القصر والحديقة ينظِّمون أموره ويرتِّبون زروعه وينمِّقون مجالِسه ورِياضه، والحرَّاس موزَّعون في كل مكان، فقال الخليفة بلهجة امتزج فيها الهدوء بالحزم:

- لقد حقَّ عليهم القول، أوَقد ظنَّ اللعين أننا سنتغاضى عن أفعاله؟! لا والله، فلأخْرُجنَّ إليه بنفسي ولأرينَّه أن عهود الناصر لم يوجد بعدُ من يستطيع نقضها، وأننا وحدنا من نحكم الجزيرة.
- تخرُج بنفسك يا مولاي؟!
- أجل، فهذه أول غزوة نغزوها بعد وفاة الناصر، ولن أرسل الجنود وأقعد أنا عن الجهاد، فلتمكُث أنت في قُرطُبة تدبر أحوالها وتسيِّر أمورها ولتعلن في كل أرجاء الأندلس النفير العام.
- كما تأمر يا سيِّدي.
- لقد وجَب علينا تأديبهم حتى يعرفوا أي منزلٍ نزلوه وقد شقُّوا عصا الطاعة وخانوا العهود والمواثيق.

ولم يمر أسبوع حتى خرج الحَكَم إلى الغزو معلِنًا الجهاد، فاجتمعت إليه الجيوش في طليطلة، فسار مخترقًا جبال وادي الرملة إلى أراضي قشتالة، وأشرف على قلعة شنت إشتيبن المنيعة، فحاصرها المسلمون واستولوا عليها. وعبثًا حاول الكونت «فرنان كونثالث» أن يقف في سبيل المسلمين، فاجتاح المسلمون أراضيه، ومزَّقوا قواته حتى أذعن إلى طلب الصلح، ولكنه نكث عهده، فهاجمه المسلمون كرَّة أخرى، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة، وأرسل الحَكَم جيشًا آخر بقيادة «يحيى بن محمد التجيبي» حاكم سرقسطة في اتجاه نافار، وكان ملكها غرسيه سانشيز قد أغار على الأراضي الإسلامية ناكثًا عهده، وهرع حليفُه سانشو ملك ليون في قواته لإنجاده، ونشبت بين الفريقين موقعة هُزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال. وفي نفس الوقت سار القائد «غالب» مولى الناصر في جيش قوي إلى مدينة قلهرَّة، من قواعد نافار الغربية، فافتتحها، وحصَّنها وشحنها بالرجال والعدة، وكان فتحًا عظيمًا. وسار حاكم مدينة وشقة في قواته شمالًا نحو أراضي نافار مما يلي جبال البرنيه، واستولى على حصن «يبه»، واجتاح تلك المنطقة وغنِم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية.

ثم سار «غالب» إلى بلاد ألبة، ومعه يحيى بن محمد التجيبي، وقاسم بن مطرف بن ذي النون، فاستولى على حصن غرماج Gormaz على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتيبن وقاموا بتحصينه لمدافعة القشتاليين في هذه المنطقة.

❀❀✻❀❀

(8)

وفي غرفته الصغيرة الخالية من كل شيء إلا سريرًا صغيرًا وبعض الكتب الموجودة على منضدة صغيرة، جلس محمد بن أبي عامر مستندًا إلى جدرانها وهو يحصي نقودًا في كيس صغير، حتى إذا أتمَّ العدَّ وضع صُرَّة المال في جيبه ونظر إلى ابن عمه عمرو وكان يجلس بجواره، وقال:

- يجب أن يبحث كلٌّ منا عن عمل يُنفق منه.

عمرو: لا بأس، بعد أن ننتهي من الدرس، ففي اليوم مُتَّسع.

وما إن أتمَّ كلمته حتى دخل عليهما موسى وهو يحمل طبقًا فيه عنقودٌ من العنب يأكل منه، فنظر إليهما وقال:

موسى: أما أنا، فلا أُحسِن شيئًا مما تُحسنون.

نهض محمد واقترب منه وقال: بل ستُحسن يا موسى، أم تظن أنك ستقعد هكذا لا درس ولا عمل.

موسى: بل أقعد في كنف الوزير وصاحب الدولة محمد بن أبي عامر.

شعر عمرو أن موسى يسخر من محمد فأمسك بذراعه وقال له: دعك منه، فلا فائدة من الحديث معه.

محمد: صدقت، والآن، هيا بنا إلى الدرس.

خرج محمد وعمرو وتوجَّهَا صوب الجامع الكبير ليتلقيا الدرس، وما إن انتهى الدرس حتى ذهب كلٌّ منهما ليبحث عن عمل يقتات منه. فدخل محمد سوق قُرطُبة وهو ينظر يمينًا ويسارًا ويفكر في أي عمل ومهنة سيعمل، وفجأة صرخ البعض وزاد الهرج في السوق وسارع البعض إلى إغلاق حوانيتهم. أما المتسوِّقون من أهل قُرطُبة، فقد التصق كل واحد منهم بالجدران مفسحين الطريق لهؤلاء الصقالبة الذين دخلوا السوق وهم ينظرون هنا وهناك، فإذا وجدوا دكانًا مفتوحًا استولوا منه على ما يريدون سواء كان طعامًا أو ملبسًا، وكان أهل السوق يسارعون في إرضائهم، وربما دفع البعض إليهم المال لينفكُّوا عنه ويتركوه، أمَّا من رفض الدفع لهم أو عارضهم فكانوا يسوقونه إلى غياهب السجن.

ضاق صدر محمد بما رأى، ولكنه لم يستطع قولًا أو فعلًا، بل انصرف إلى تلك الدار التي يسكن فيها وقد قرر أن يعود مرة أخرى، ومن يدري فلعله يدخل في غير وجود الصقالبة فيحظى بما يبحث عنه.

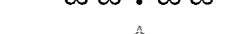

(9)

عبد الرحمن بن الحَكَم

استيقظ أهل قُرطُبة على المنادي في الطرقات والساحات، أن الخليفة الحَكَم قد أزال بعض المكوث فرحًا بمقدِم ولي عهده «عبد الرحمن بن الحكم» وخرجت العامة إلى الشوارع والمتنزهات يأكلون ويمرحون ويشاركون الحكم فرحته، وكيف لا وقد أمر الحَكَم بتوزيع الطعام على الجميع وإقامة الولائم والحفلات، كما تَسابق رجال الدولة في ذلك إرضاءً لسيدهم، فقد جاء ذاك المولود الموعود الذي سيحافظ على إرث الأمويين في الأندلس بعد أن فُقد الأمل في ولادته، إذ كان الحَكَم يوم وُلد ابنه الأكبر قد جاوز الثمانية والأربعين من العمر.

وفي قصره جلس الحَكَم على سرير بجوار السيدة «صُبْح البشكنسية» وهو لا يكاد يصدِّق نفسه من الفرح، بينما صُبْح مبتسمة وإن كانت مُجهَده من ألم المخاض والولادة، وقد حاولت النهوض لسيِّدها، لكنه أشار إليها ألا تفعل، ثم رفعت الطفل إليه فحمله بين يديه وقبَّل جبينه وأقام الصلاة في أذنه، ثم نظر إليه وقد ذهب بذاكرته إلى ذلك اليوم، حينما كان يجلس في الزهراء وحوله الحاجب والقادة وبعض وجوه بني أمية، فإذا بالحاجب يقول:

- سيِّدي، هناك رجلٌ ذو هيئة غريبة يُلح في طلب الدخول عليك.
- من هو؟
- تدل هيئته على أنه من المشعوذين.
- اصرفه عني، أو أعطه بعض الأموال، فما لنا وهؤلاء؟!

خرج «المصحفي»، ولكن صوت الرجل ارتفع وهو يقول. أدخِلني للخليفة، لن أنصرف حتى ألقاه ولو قتلتموني.

عاد «المصحفي» إلى الخليفة وقال: أعطيناه المال يا سيِّدي فأبى إلا أن يلقاك.

- أمرُه عجيب، لا بأس، أدخله يا جعفر.

أشار «المصحفي» إلى بعض الحرس فخرجوا ليعودوا ومعهم رجل أشعث أبيض اللحية والشعر، يتكئ على عصا غليظة، وقد اكتسى وجهه بوقار لا يدل على كونه من المشعوذين، وبخطوات بطيئة تقدَّم الرجل من مجلس الخليفة والأنظار شاخصة إليه، حتى إذا لم يكن بينه وبين الخليفة إلا بضع خطوات ألقى السلام، فردَّ عليه الخليفة السلام، ثم قال:

- ما حاجتك؟

- بل حاجتك يا أمير المؤمنين.

تعجَّب الجميع من جرأة الرجل وترددت أبصارهم بين أمير المؤمنين وبين الرجل وقد انحبست أنفاسهم يظنون أن الحَكَم ربما يبطش بالرجل أو يطرده، ولكنه لم يفعل، بل بدَا هادئ الطبع كعادته مبتسمًا في وجه رعيته ثم قال للرجل:

- وما هي حاجتي؟

- حاجتك هي بقاء مُلك بني أمية.

فُتحت الأعين صوب الرجل وهم لا يدركون كيف تجرَّأ وقال ذلك، بينما ظل الحَكَم على حاله وسط تعجُّب الحضور من صبره على الرجل الذي استطرد يقول: «لا يزال مُلك بني أمية في دوام ما ورثه الأبناء عن الآباء، فإن تحوَّل للإخوة أدبر وانقضى....

بُهِت الجلوس مما يقول الرجل ونزلت تلك الكلمات على قلب الخليفة فأرجفته، إذ لم يكن له وريث وها هو من يقول له هذا القول، فلم يلبث الخليفة أن قال:

- هل تطَّلع على الغيب أيها الرجل، كيف تقول ذلك؟

- لا يعلم الغيب إلا الله، وإنما هي بشارات تتراءى أمام ناظري، وقد أُلقي في روعي ما أقوله الآن وما ذكرته لك، إنها رسالة، وقد أديتها. ثم خرج.

انتبهت صُبْح إلى صمت سيدها وشرود ذهنه، فقالت محاوِلة أن تعرف ما يدور بخلده.

- ما الأمر يا سيِّدي؟

- الحمد لله على ما أعطى يا صُبْح.
- أسعيد أنت يا سيِّدي؟
- هذا ليس بسؤال، كيف لا أسعد بمن انتظرته سنوات ومن سيحفظ مُلك بني أميَّة في الأندلس؟
- فهل تسميه يا سيِّدي؟
- سيكون اسمه عبد الرحمن على اسم أبي رحمه الله.
- يا لَسعدِه إن سار على خُطى جده الناصر العظيم!
- غير أنه سيكون أجمل من الناصر، إذ أمه أجمل من أم الناصر، ومنْ في الدنيا كلها في جمالك وحُسنك يا أورورا؟
- أخجلتنِي يا سيِّدي.
- وما يزيدك الخجل إلا جمالًا وقد أحييت قلبي بحبك يا صُبْح، ثم جاء اليوم الذي تمنحينني فيه الأمل فتلدين لي ما عجزت النساء عنه وقد كنت يئِست وقد بلغت من العمر عتيًّا.
- ما زال أمير المؤمنين شابًّا.
- إنما الشباب شباب القلب يا صُبْح، وقد أعدتِ إليَّ ذلك الشباب يوم أن نبض بحبك ونطق باسمك واكتحلت العين بوجهك.
- يا لَسعادة صُبْح أن تسمع هذا الكلام من أعظم رجال الدنيا كلها.

❀❀*❀❀

(10)

لم ينم «محمد بن أبي عامر» ليلته تلك، فقد ظلَّ يقظًا يفكر في أمر ما، ولا يتحرك من شدة التركيز، حتى إذا بزغ الفجر دخل عليه ابن عمه عمرو وتعجَّب من يقظته وقال:

- كأنك لم تنَم، فما زلت كما أنت على وضعك مذ تركتك أول الليل.

اعتدل محمد وجلس بعد أن كان نائمًا وقال:

- لا، لم أنم.

- فما سبب سهرك؟

- فكرة عجيبة.

- ما هي؟

- كنت أفكر إذا أفضى إليَّ الأمر ومات القاضي «محمد بن بشير»، فبمن أستبدله؟ تجوَّلت في الأندلس كلها فلم أجد إلا رجلًا واحدًا.

ابتسم عمرو وقال:

- لعله القاضي ابن السليم.

- إي والله، إنه لهو. لشد ما اتفق خاطري بخاطرك.

- لكم أتمنى يا ابن عم أن تنال ما تصبو إليه هذا وإن كنت أستبعده.

- ولماذا تستبعده؟

ثم لم يعطِ فرصة لابن عمه أن يرد، فبادر وأكمل يقول:

- ألم يدخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وحيدًا رفقة خادِمه بدر، فحازها وشيَّد مُلكًا بعد انقطاعه.

- أجل، ولكن بعد انقطاعه، وقد كان له في الأندلس عُصبة وموالي من بني أُمية، وكانت الأندلس تسودها القلاقل والفتن فأحسن الداخل استغلال كل ذلك، فبطش بالقيسية أولًا مستعينًا باليمانية، ثم بطش باليمانية بعد أن اصطنع جيشًا من الموالي والبربر فدانت له البلاد والعباد، أما أنت...

وقف محمد وقال بعزيمة شديدة:

- ما أنا، فوالله إني لأملك عزيمة لا تلين، وهدفًا لن أحيد عنه، ولأجعلنَّ الداخل قدوتي وإن كان أحفاده هم غرمائي.

- وماذا عن قوة الدولة؟

- رحم الله الناصر.

- أتعني أن الدولة قد ضعفت بتولِّي الحَكَم.
- لا والله، ولكنه ترك شئونها للموالي والصقالبة فأوغر بذلك صدور العرب والبربر، فضلًا عن تجبُّر الصقالبة وظلمهم وتعدِّيهم على الناس، وهنا مكمن القوة والضعف، فهؤلاء رجال الدولة ورجال الحَكَم، فإنْ هم أحسنوا نُسِب الإحسان للحكم، وإن هم ظلموا نُسِب الظلم للحكم.

❀❀✻❀❀

(11)

كانت الأسواق مزدحمة بالأقدام، على بلاط يكسو أرض الطرقات، فلا تكاد تجد فيها أثرًا للأتربة أو الأوساخ، هذه هي شوارع قُرطُبة، أعظم مدن العالم، وكان الزحام على أشُدِّه في سوق الورَّاقين، فالكتب هي مهوَى كل أندلسي سواء كان عالمًا أو رجلًا عاديًّا، فقد كان في كل بيت مكتبة عامرة بالكتب، فلم ينصبَّ اهتمام الأندلسيين على الشراب والطعام وزينة الملابس فقط، لكنهم أوْلوا اهتمامًا كبيرًا بالمكتبات، فكانت تُنشأ في المنازل للزينة والقراءة معًا، حتى إن الكتاب يزيد في سعره لجمال تغليفه وروعة تصويره.

تحرك محمد وسط باعة الكتب ينظر هنا وهناك لعله يظفر بكتاب يقرؤه، وما أكثرها! حتى إذا وقف أمام أحد الورَّاقين قال له:

- بكم هذا الكتاب؟

أمسك البائع بالكتاب وقال:

- بخمسة عشر درهمًا.

- لماذا؟

- انظر إلى غلافه وورقه وأنت تعرف لماذا؟ ثم هذا أعظم ما كتب الجاحظ فانظر كم أخذ من وقت وورق لنسْخه، فضلًا عن جودة تجليده.

- لا بأس، خذ دراهمك وأعطني كتابي.

ثم تحرَّك وهو ينظر هنا وهناك حتى وقف على دكان «مروان الخبَّاز» الذي بادره قائلًا:

- كم تريد من الخبز؟
- الحقيقة أنا لا أريد الخبز، ولكني أبحث عن عمل.
- طالب علم أنت؟

رفع محمد الكتاب الذي بيده وقال:

- أجل، وقد ضاقت بي الأحوال فأردت أن أكسب من عمل يدي.
- ولكن الخليفة الناصر كان قد أجرى نفقة على طلَّاب العلم وكذا جرت العادة زمن ابن خليفتنا الحَكَم حفظه الله.
- أعلم ذلك، ولكني لا أريد أن أعيش من الصدقة، فهل لديك عمل؟
- لأجلك أنت، نعم.
- ومتى أبدأ؟
- من الساعة إن أردت.

دخل محمد إلى الدكان وبدأ في العمل بصناعة الخبز، وما هو إلا وقت قصير حتى أتقَن الصنعة، فقد كان الفتى ماهرًا في إتقان أي شيء يريده، إلى جانب أنه يقضي وقته بين العمل والدرس لا يتركه أبدًا.

❀❀❀❀❀

(12)

أشرقت الشمس على الأندلس فأنارتها، وتسلَّل شعاع الشمس من خلف الزجاج الملوَّن، فأنار غرفة محمد بن أبي عامر الذي نهض غير متكاسل وهو ينظر إلى هذا الضوء ويتأمله حتى إذا دخل عليه عمرو قال له:

- هل تعلم أن عباس بن فرناس هو من صنع وابتكر هذا الزجاج؟
- لا أدري.

- أما الزجاج الملوَّن فقد صنعه جابر بن حيان، وأما الزجاج الشفاف المصنوع من الحجارة فقد صنعه عباس بن فرناس.

- أليس عباس هذا هو من حاول الطيران؟

- أجل هو، فقد كان عالمًا في مجالات شتى.

- كنت أعرف خبر محاولته محاكاة الطيور، ولكن لم أكن أعلم أنه منْ صنع لنا هذا الزجاج، والآن، لقد تأخَّر الوقت، فمتى تذهب إلى عملك؟

دخل موسى فجأة وكأنه كان يستمع لهما فقال: وأي عمل هذا الذي يليق بصاحب الدولة ومدبِّر شئونها؟ شُغل الخبَّازين، أم القمَّاشين، أم العطارين؟

عمرو: ألا تصمت مرة واحدة؟

محمد: بلى والله، إن هذا العمل لا يليق بي، ولقد قال موسى قولًا حقًّا وإن أراد غيره؟

عمرو: فما أنت صانع؟

محمد: سأذهب إلى الوزير ابن حدير، فقد كان صديقًا لأبي -رحمه الله- ومن يدري، فلعله يتذكَّر ولا ينسى.

موسى: لعله يعطيك بعضًا من تلك الدنانير الذهبية التي لم نعرفها.

محمد محتدًّا: ومَنْ قال لك إني ذاهب إليه لطلب الصدقة؟

موسى: صدَقَة! هل قلت أنا صدَقَة؟! إنما هي هدية لابن صاحبه القديم.

محمد: لا صدقة ولا هدية، فاصمت يا موسى.

ثم تحرَّك محمد من غرفته المتواضعة التي يسكنها وابن عمه في أحد أرباض قُرطُبة وخرج، وبينما يتحرك في الطريق وهو يتفكَّر في أمره وينظر حوله حتى وصل إلى قنطرة قُرطُبة بجوار مسجد قُرطُبة ظل يطالع المبنى العظيم وهو مشدوه به، حتى إذا مر بعض الوقت إذ بمن يضع يديه على كتفه من الخلف فارتبك محمد والتفت للخلف فإذا به ابن عمه عمرو ومعه ثلاثة شبان أغراب.

عمرو: لقد بحثوا عنك كثيرًا حتى اهتدوا إلى غرفتنا المتواضعة في الربض.

محمد وهو ينظر إلى الشبان الثلاثة: ما الأمر؟

بلُغة عربية ركيكة قال أحدهم: إننا طلاب علم وأغراب عن قُرطُبة، ولقد علمنا أنك ضليع في اللغة العربية فأردنا أن نتعلم منك قواعدها ومخارج حروفها، فأنت تعلم أن اللغة العربية هي لغة العلم، فكل كتب العلم مكتوبة بها ولا سبيل إلى العلم إلا بإتقانها، ثم أخرج صُرَّة من الدراهم من جيبه وأعطى محمدًا إياها قائلًا: وهذا لك في حالة قبولك بتعليمنا.

أمسك محمد الدراهم وقال: لا بأس، فخيركم من تعلَّم العلم وعلَّمه، ولكن من أي البلاد أنتم، وما أسماؤكم؟

أحدهم: أنا رودريك من ليون، ولكن ليست ليون القريبة منكم، ولكن ليون الإفرنجية، وهذا صاحبي شارل وهذا صديقنا بوتو.

محمد: وجميعكم من ليون؟

رودريك: أنا وشارل من ليون، أما بوتو فهو من بلاد اللومبارد، وقد جمعنا طلب العلم كما جمعتنا قُرطُبة.

محمد: حسنًا، ولكن أي العلوم تريدون؟

أوتو: أما أنا، فأريد علوم الطب؛ حتى أعود إلى بلادي فأداوي المرضى.

شارل: وأما أنا، فأريد تعلُّم الفلك والحساب وعلم الجغرافيا، إذ إني آمل أن أكون يومًا سفيرًا أو أتصل بقصر الملك فأعمل فيه.

نظر محمد إلى رودريك وقال: وأنت؟

رودريك: أما أنا، فأريد علم الكيمياء، وقد برعتم أنتم العرب فيه فصنعتم منه وعن طريقه الأعاجيب.

❀❀✻❀❀

(13)

ما كاد الفجر ينبلج حتى كان الحَكَم في محراب مسجد الزهراء، يصلي خلف «المنذر بن سعيد» صلاة الفجر، حتى إذا أتمَّها -وكان الحَكَم دائمًا يبدأ

يومه ببزوغ الفجر- خرج من المسجد وخلفه «جعفر المصحفي» وبعض رجاله، منهم «غالب الناصري» الذي وصل قُرطُبة قبل قليل، حتى إذا دخل الزهراء وجلس على كرسيه نظر إلى «غالب» الناصري متعجبًا وقال:

- صاحب مدينة سالم هنا!
- لقد وقع خطْبٌ جلل يا سيِّدي، وما أردت أن يعرفه أمير المؤمنين إلا مني.
- ما الأمر؟
- لقد قُتل سانشو يا سيِّدي!
- قُتل؟!
- بل مات مسمومًا.

وقف الحَكَم فوقف الجميع، تحرَّك للأمام واقترب من «غالب» وقال: بئست الخيانة! ولكن مَنْ خَلَفَه على الحُكم؟

- خَلَفَه ولده الطفل «راميرو الثالث» تحت وصاية عمته الراهبة ألبيرة.
- هذا يعني تشتتهم في طوائف، فلن يستطيع هذا الصبي أن يحكم بنفسه، ولن يرضى أشراف المملكة به وهم يعلمون أن هناك من يحرِّكه.

جعفر: وسيطمع ببلاده الطامعون.

عاد الحَكَم إلى كرسيه وقال: لن يوفق طفل في حُكم مملكة مهما حدث، لقد كنا نلوم على بني العباس تولية الأطفال، وكنا نرى في ذلك إضعافًا لهم ولسطوتهم ومُلكهم، حتى فعلها هؤلاء، لذا، فإن من الطبيعى أن يتطلع كل طامع للحكم فيقتطع الأرض من أطرافها، وبهذا فلن تظل مملكة ليون كما كانت.

«غالب»: وهذا ما حدث يا سيِّدي، فما كاد خبر مقتل سانشو ينتشر حتى وقع التفكك في مملكة ليون، وأعلن عدد من الزعماء المحليين استقلالهم.

الحَكَم: وهنا يأتي دور الأندلس، إذ يجب على كل هؤلاء أن يستمدو قوَّتهم من قُرطُبة، فنحن المتحكمون في الأمر في تلك البلاد.

«غالب»: وماذا عن الكونت «جوندسالفو» الذي قتل سانشو؟

جعفر: وهل أنت على يقين بذلك؟ أعني أن جوندسالفو هو من قتله؟

نظر «غالب» إلى جعفر شزرًا، ثم ارتدَّ ببصره صوب الحَكَم وقال: «لقد استطاع الكونت جوندسالفو سانشيز، حاكم جليقية، أن يوطِّد استقلاله في المنطقة الواقعة بين نهرَي منيو ودويرة، وأن يبسط حكمه على لاميجو وبازو وقلمرية، الواقعة فيما وراء دويرة شمالي ولاية البرتغال، فسار سانشو لقتاله، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته، ألفى رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت، فقبِل سانشو، وكان الكونت قد دبَّر مشروعًا دنيئًا لاغتياله. فدعاه إلى مأدبة أقامها وقدَّم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامره الريب، وسرعان ما شعر بدبيب الموت يسري إلى أحشائه، فحُمل في الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ودُفن بها تحقيقًا لرغبته).

الحَكَم: وكأن الناصر لم يعالج سانشو من نهَمِه للأكل فكان الطعام هو سبيل قاتليه إليه.

«غالب»: أظن ذلك يا سيِّدي.

الحَكَم: أمَّا هذا المدعو جوندسالفو، فأعِنه إن هو طلب العون، على أن تشترط عليه شروطًا قاسية من مال وحصون، يجب أن يظل هؤلاء في حروبهم، ولا بد أن يعلم الجميع أن طاعتنا هي فقط ما تضمن عروشهم.

❀❀✻❀❀

الفصل الثاني

هلــمَّ إلى أميَّــة إنَّ فيها شفاءُ الواريات من الغليلِ

الشاعر الكميت بن زيد

(1)

في شرق الزهراء، حيث قصور السادة والوزراء، كان الوزير «ابن حدير» يجلس في قصره البديع في البهو الأوسط، حيث مجلسه الفخم الذي دأب على الجلوس فيه، فقد ترك الوزارة منذ زمن وأصبح وليس بيده شيء من شئون الدولة والحُكم، اللهم إلا الجلوس في بعض الأيام بين يدَي الحَكَم، فقد كان حريصًا على انعقاد مجالس العلم بشكل شِبه يوميٍّ، يجتمع في هذا المجلس كبار العلماء ومن لهم رأي وصُحبة معه. وبينما هو جالس إذ دخل عليه بعض غلمانه فقال:

- بالباب شابٌّ يطلب لقاءك يا سيِّدي.

- من ذا يكون؟

- يقول إن لأبيه صحبة معك، وإن جده لأمه كان طبيب الخليفة الراحل.

وضع ابن حدير يده على ذقنه الأبيض وداعبها، ثم صمت هنيهة من الوقت وكأنه يفكر في كينونة هذا الشاب حتى إذا أعجزه التفكير قال:

- أدخِله عليَّ.

خرج الغلام ليدخل بعد قليل ومعه محمد بن أبي عامر وهو واثق الخطى، لا يلتفت يمينًا أو يسارًا وكأنه دأب على الوجود في المكان، فلم يُعر النقوش والزخارف أي اهتمام، وقد كان ابن حدير من أغنى رجالات قُرطُبة، وقصره من أبهى القصور رونقًا وجمالًا وسعة، حتى إذا صار بين يدَي ابن حدير وقف وقال:

- السلام على سيِّدي الوزير ابن حدير.

- وعليكم السلام ورحمة الله، لقد أخبرني خادمي أن لأبيك صُحبة معي، ولكني أنظر إليك الآن فلا أعرفك، فمن تكون أيها الفتى؟

- أنا محمد بن عبد الله بن أبى عامر يا سيِّدي.

مطَّ الوزير شفتيه ورفع حاجبيه، ثم بسط كفيه وقال وهو يحدِّق إلى محمد:

- أنا لا أعرفك أيها الشاب.

ذهبت الابتسامة من وجه محمد وقال:

- ألا تذكر يا سيدي الوزير، عبد الله بن محمد بن أبي عامر، حصن طُرَّش، الجزيرة الخضراء؟!

هزَّ الوزير رأسه وأخذ يردد الاسم، ثم ابتسم أخيرًا وتدارك الأمر، فتغيرت نبرة صوته وقال مرحِّبًا:

- أجل أجل، رحم الله أباك، اجلس يا محمد.

جلس محمد وقد وضع يديه على ركبتيه وأمر له الوزير بالشراب، فتقدَّم منه أحد العاملين في القصر وأعطاه كوبًا من شراب التوت، ارتشف منه محمد ثم أعاد الكوب مكانه وشكر الوزير الذي ابتسم وكأنه يتذكَّر شيئًا ما قبل أن يقول:

- عبد الله بن أبي عامر عُرضت عليه الوزارة فأبى وقال: «السلطان من اعتزل السلطان»، فقد كان يخشى الله كثيرًا ويخاف أن يكون في موضع يظلم فيه أحدًا.

- أجل، رحمه الله.

- وأنت، هل تريد أن تكون مثل أبيك؟ أقصد أن تتعلم في قُرطُبة ثم تعود إلى حصن طُرَّش.

- بل لي منهج غيره يا سيِّدي، لهذا فقد جئت ألتمس منك العون والصِّلة وحق الصُّحبة القديمة بينك وبين أبي.

نهض الوزير وفتح صندوقًا قريبًا منه، ثم تناول صُرَّة من المال وقال:

- خذ يا محمد، استعِن بهذا المال على مقاصدك.
- معاذ الله يا سيِّدي، فأنا لم آتِ إلى هنا بقصد الصدقة.
- هذا المال ليس بصدقة، بل هو هدية.
- ولا تلك يا سيِّدي، بارك الله في مالك.

أعاد ابن حدير المال إلى الصندوق، ثم عاد إلى جلسته وقال:

- فكيف أساعدك إذن؟
- أريد أن يستخدمني سيِّدي الوزير على بعض أعماله.
- لكني الآن يا محمد لا أَلِي شيئًا من أمور الحُكم، ولقب الوزير هو لقب قديم، فلم يعد لي من الوزارة إلا الاسم فقط، ولكن ربما أتواصل لك في قادم الأيام مع أحد من رجالات الدولة، فيكون لك نصيب مع أحدهم، ولكن قل لي: ما هي صنعتك الآن؟
- أتلقَّى الدرس في جامع قُرطُبة، وفي الليل أعمل في السوق.
- مممم السوق.

هزَّ الوزير رأسه ثم استطرد وقال:

- أنصِت يا محمد، إن كنت تريد أن تتولى شيئًا من أمور الخاصة فعليك أن تتقرَّب منهم لا من العامة.
- كيف ذلك يا سيِّدي وأنا من العامة ولا سبيل لي إلى الخاصة.
- يجب أن تلتمس لنفسك عملًا بين هؤلاء وهؤلاء، بين العامة والخاصة، فإذا جاء الوقت وتحدثت إلى أحدهم فلن أقول له إنه يعمل في السوق، هل وعيتَ قولي؟
- أجل، أجل يا سيِّدي.

ثم صمت محمد هنيهة من الوقت وكأنه يفكِّر في كلام الوزير الذي قال له:

- هل تُحسِن شيئًا من الكتابة؟
- أجل يا سيِّدي.

- إذن فاكْتَرِ لنفسك دكَّانا بجانب الزهراء، وليكن عملُك هو رفع شكاوى الناس وكتابة مطالبهم ومظالمهم، ومن يدري، فلعلَّ أحدهم يتنبَّه لك، ووقتها تكون كما أردت.

- سأفعل يا سيِّدي.

ثم نهض محمد من جلسته مستأذنًا، فقال ابن حدير:

- ألا تطاعمنا أيها الشاب؟

- لقد فاق كرمك كل شيء سيدي الوزير، فشكرًا لك.

قال محمد ذلك ثم نهض وانصرف من قصر الوزير وهو يتدبَّر في كلماته ويُعجمها، فوجد أن الوزير على حق، وأنه ناصحٌ أمينٌ له، وظلَّ يتحرك سائرًا على قدميه من الزهراء، حيث قصر الوزير ابن حدير، حتى وصل إلى قُرطُبة حيث يسكن، فلم يدرِ بنفسه إلا وهو واقف على «قنطرة الدهر» بقُرطُبة، تلك القنطرة التي شيَّدها «السمح بن مالك» وجدَّدها من بعده هشام الرضا، ظلَّ يراقب جريان الماء وتلك النواعير على جانبها وهو لا يتحدَّث، فقد شغله كلام الوزير حتى شعر أنه قد أضاع الكثير من الوقت في أعمال الخبَّازين والقمَّاشين وغيرها من تلك الأعمال التي لا يمتاز بها أحد ولا تقدِّم لصاحبها إلا المال فقط، ثم أدار ظهره للماء وقال في نفسه: «أنا لم آتِ إلى قُرطُبة بغرض المال والعمل والأرزاق، ولكن لغاية بعيدة دونها الوزراء والقادة والكبراء»، ثم مدَّ يده إلى جيبه وأخرج بعض الدراهم وراح يقلِّبها، ثم أعادها إلى جيبه، وكانت الشمس قد مالت للغروب، فجلس يراقبها حتى اختفت خلف الجبال، فإذا بمؤذن مسجد قُرطُبة يؤذن للصلاة. دخل محمد المسجد فصلَّى فيه ثم جلس فيه قليلًا وقد عزم على تغيير حياته، إذ شعر أنه في الطريق الخطأ، وقد أعاده ابن حدير إلى طريق الصواب، وبعد دقائق نهض وخرج من المسجد عائدًا إلى مسكنِه وهو شارد الذهن، فلم يتحدث إلى أحد وخصوصًا ابن عمه موسى الذي ألحَّ عليه بقوله:

- ماذا حدث مع الوزير ابن حدير؟ ألا تنطق وتخبرنا ما كان بينكما؟

- لم يحدث شيء.

- أخبرنا كيف كان اللقاء؟ هل عرفك؟ وهل أعطاك مالًا؟

لم يرُد محمد على موسى ودخل غرفته، فدخل عمرو خلفَه وقال:

- ما بك يا محمد، هل حدث لك مكروه؟

- لا شيء يا عمرو، ولكن دعني وحدي الآن.

- كما تحب.

خرج عمرو محاولًا إسكات موسى الذي كان ينتهز كل فرصة للسخرية من محمد وأحلامه.

استغرق محمد في أفكاره، وبعد تفكير قرَّر أن يأخذ بنصيحة الوزير، وأن يعمل في كتابة الكتب والشكاوى لمن يبحث عن كاتب ماهر، وقد كان الشاب ذا بلاغة جميلة ولغة عربية عظيمة، كيف لا وأمُّه يمنية، وجدُّه معافري؟! حتى إنه اشتهر بين زملائه في مسجد قُرطُبة بحُسن تنميق الكلام واستخدام أجوده وأفخمه وأبلغه.

ولم يُضع الفتى الكثير من الوقت، فاكْتَرى دكَّانًا وقعد فيه للكتابة حتى ذاع صيته بين الكتَّاب ولجأ إليه كل من أراد أن يرفع شكوى أو يكتب تهنئة أو يطلب شيئًا من دار الحجابة أو الخلافة، واستمر على ذلك فترة يسيرة توثَّقت خلالها علاقاته بالفتيان الصقالبة الذين كانوا كثيرًا ما يريدون إرسال التهاني والتبريكات إلى الوزراء والسادة، أو حتى إلى صُبْح أم ولد الخليفة.

❀❀✻❀❀

(2)

لم ينسَ الوزير «ابن حدير» حديثه مع ابن أبي عامر، وكيف ينساه وقد أُعجب الرجل بذكائه وقوة عزيمته، فلم يَألُ جهدًا في محاولة مساعدته، حتى إذا كان يجلس في أحد الأيام مع الوجهاء والقادة وكبار الجند وهم يتسامرون، وقد كانت قُرطُبة تعج بتلك المنتديات التي يكون العلم سيدها، وفي ذلك

المجلس لاحظ ابن حدير صمت قاضي القضاة «محمد بن السليم»، فسأله عن سر ذلك الصمت، فتحدَّث القاضي بهيئته الوقورة وقال:

- لقد كثرت القضايا والشكاوى وازدحم الناس على بابي، وكنت أفكر في استخدام من يعاونني في ذلك، يرتِّب لي الأوراق ويكتب لي ما أريد.

- إن كان كذلك فلتفعل، فما الذي يؤخرك؟

نظر ابن السليم إلى الحاجب «المصحفي» وكان جالسًا معهم، وكذا فعل ابن حدير الذي ارتدَّ ببصره صوب القاضي مبتسمًا وكأنه قد علم ما يدور في خَلَد القاضي الذي قال:

- لكن هذا يستدعي أن نفرض لهذا الذي سيعمل معنا؟

ضحك ابن حدير فقد كان يعلم ويعلم الجميع بُخل «المصحفي» الذي فهم ما يرمون إليه، فقال:

- وأنا لن أعطيه زرقًا من داري حتى لا تقولوا بَخِل الحاجب، فلترَ يا ابن السليم كم ستفرِض له وأنا سأجيز لك ذلك؟

ابن حدير: إن كنت فاعلًا وتريد شابًّا يفي لك كل ما تريد فسأدلك على شاب يستحق أن يكون مع ابن السليم.

القاضي: ومن ذلك الشاب؟

ابن حدير: إنه محمد بن أبي عامر المعافري، فهو شاب فطِن حسن المظهر يستحق أن يكون معك.

القاضي: وما صنعته؟

ابن حدير: يعمل في كتابة الشكاوى والرسائل في دكانه أمام الزهراء، فإن أردت استدعيته لك.

القاضي: هل هو جدير بهذا المنصب؟

ابن حدير: وأنا أثق أنه سيكون لك خير معين.

القاضي: على بركة الله، فلترسله غدًا إليَّ.

❀❀✻❀❀

أشرقت الشمس تمُد قُرطُبة بنورها ودفئها، فتحرَّك الفتى إلى دكانه ككل يوم وهو محمَّل بالنشاط والعزيمة التي لا تلين، وقعد في دكَّانه يتابع عمله وكان قد وصل صِيته إلى أرجاء الزهراء، فاستعان بقلمه كل من أراد كتابة رسالة جميلة أو تهنئة سعيدة، حتى كبار الصقالبة العاملين في قصور الزهراء استعانوا به غير مرة في مراسلاتهم، وبينما هو منهمك في عمله قائم به إذ تقدَّم منه أحد الخدم وقال:

- هل أنت محمد بن أبي عامر؟

رفع محمد رأسه من الكتاب الذي كان يخطُّه ونظر إلى اسمه المعلَّق على باب الدكان وقال:

- إن كنت تُحسن القراءة فهذا اسمي مكتوب على دكَّاني.
- وهل في الأندلس كلها من يجهل القراءة! ولكن ما يُدريني، فلعل هنا من يقوم مقامك!

طوى محمد الكتاب الذي كان يكتبه وأعطاه لصاحبه وأخذ منه الأجر، ثم قال:

- صدقت في هذا، والآن أخبرني، ما حاجتك؟
- ليست حاجتي، ولكن الوزير ابن حدير يُلح في طلبك.

نهض محمد من مكانه وقال: لن تصل إليه حتى أسبقك أنا، فامضِ راشدًا.

فتحرَّك الخادم مبتعدًا عن الدكان، بينما طوى محمد دفاتره واعتذر لأصحاب الشكاوى وأغلق دكانه وتحرَّك من فوره وهو لا يعلم ما هو الأمر الذي يريده فيه الوزير، ولكنه وعلى كلٍّ فقد استبشر خيرًا، وما إن وصل إلى الوزير حتى سلَّم عليه، فقال له الوزير:

- اذهب من فورِك إلى القاضي «ابن السليم» وأبلِغه سلامي وأخبره أني من أرسلك إليه ولا تخيِّب فيك ظني، فقد أوصيت الرجل بك وها أنا أوصيك به وبعملك، فهذا أول سلم الصعود والارتقاء إن أردت يومًا أن تكون من الخاصة، وإياك يا محمد أن تفرِّط في هذه الفرصة فإنها لن تعود.

- لن أخيِّب فيَّ ظنك يا سيِّدي، وسأكون كما أردت.
- انطلق ولا تتأخر.

استمع محمد إلى وصايا الوزير وانطلق من فوره إلى القاضي ابن السليم وهو يكاد يطير من الفرح، وما إن دخل على القاضي حتى عرَّفه بنفسه فقال له القاضي:

- لكَم أشاد بك الوزير ابن حدير! فلتعلم يا محمد أنك هنا في خطة القضاء فلا مجال للخطأ، فهنا بابٌ للجنة، أو منزَلق لجهنم، فنحن نحكم بين الناس، فلا تجامِل ولا تماطِل، ولا تأخذك رأفة بمخطئ، ولا غفران في الحدود، فامكث معي ودوِّن لي كل ما أريد، ولا تعجَل في شيء، فالعجلة تورِث الخطأ، واعلم أن الحُكم بين الناس بالعدل من أفضل أعمال البِر وأعلى درجات الأجر، والجُور فيه واتِّباع الهوى من أكبر الكبائر، فهو مِحنة، من دخل فيها ابتُلي بعظيم، لأنه عرَّض نفسه للهلاك، إذ التخلُّص منه عسير.

❀❀✻❀❀

(3)

كان الرضيع عبد الرحمن يصرخ وهو على ذراع أمه التي تحاول إسكاته وإطعامه، وهو لا يكاد يمَل من البكاء وهي تختلف به من مكان إلى آخر داخل جناحها بالقصر وقد بدا عليها الضجر والملل، فاقتربت منها جاريتها «مرجانة» وحملت الرضيع في محاولة لإسكاته، ثم قالت:

- لم نعتدْ عليه يصرخ كل هذا الصراخ يا سيِّدتي.
- لا أدري ماذا حلَّ به، ولكني ضِقتُ به ذرعًا.
- هل من شيء يقلقك يا سيِّدتي؟

بدأ الرضيع يهدأ قليلًا، فعادت صُبْح إلى حمْله وقالت:

- لا شيء غير انشغال الخليفة عني.

- إنها أعباء الحُكم والخلافة.
- لا يخرج من إيوان حُكمه حتى يلج إلى تلك المكتبة، فلا يخرج منها إلا بعد وقت طويل حتى إذا كان بين يدَي لم يمكث طويلًا حتى يمسك كتابًا آخر فيقرأ فيه فكأن الكتاب هو حياته.
- الجميع يعلم حب مولانا الخليفة للكتب والعلم، ووالله لقد علم الوزراء حبه للكتب، فمن أراد منهم التقرب منه أهداه كتابًا جديدًا، فما يمسك هذا الكتاب الجديد حتى يستغرق فيه، فما ينتهي منه إلا وقد علَّق عليه وكتب في حواشيه رأيه وفِكره فلا يعلم الناس هل الخليفة حاكم أم عالم، والله لم نسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ مولانا الحَكَم في اقتناء الكتب والدواوين، وإيثارها والاهتمام بها، فقد أضاف على العلم، ونوَّه بأهله، ورغَّب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصِلاته إلى فقهاء الأمصار النائية.
- بلى والله إنها الكتب، فقد أخبرنى «تليد الخصي» ذلك الذي على خزانة الكتب والعلوم أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير، ثم ظهرت الحسرة على وجه صُبْح فهمست لها جاريتها وقالت:
- إن كانت الكتب والعلوم والشعر غايته فلتكوني أنتِ أيضًا غايته.
- إنه يحبني وأنا أعلم ذلك، ولكنه لا يُقبِل عليَّ ذلك الإقبال الذي أريده.
- ومع ذلك فهو يستشيرك في أمور الدولة ويأخذ برأيك.
- لكن ذلك لا يكفي.
- إذن تعلَّمي الشعر وأسمعيه إيَّاه، وإن كان يحب الكتب فكوني له أعظم كتاب.

وبينما تتحدث الجارية إلى سيدتها إذ دخل الخليفة، فهرولت صُبْح إليه بعد أن وضعت رضيعها على أريكته وانصرفت الجارية ليخلو الجو للخليفة ومحظيته، ولم تُرِد صُبْح أن تتحدث حتى يتحدث الخليفة، ولكنها ساعدته في خلع ثيابه ثم جلس وهي تنظر إليه، فقال لها:

- لقد كان يومًا مرهقًا، ولكنه مليء بالأخبار، غير أن خبرًا واحدًا سعيدًا.
- وما هو ذاك يا سيِّدي؟
- لقد وصل إلينا كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وصل إلينا قبل أن يخرج في بغداد.
- يا لحظ الأغاني! لماذا لم أُخلَق كتابًا ليسعد الخليفة بي.

ابتسم الحَكَم واقترب من صُبْح، ثم جلس وجلست بجواره فقال:

- بل أنتِ أجمل وأسعد أيام الخليفة يا «صُبْح» يا «أورورا»، ثم أمسك بيدها وأكمل قائلًا: أنتِ الجزء الجميل في جسد الخليفة.
- لم أكن أحلم يومًا أن أحظى بالجلوس بين يدَي الخليفة، فكيف وأنا أسمع ما تقول؟ يا سيِّدي، إن الكلمات، والعبارات، وكنوز البلاغة، وشعر الشعراء لن يعبروا عما بداخلي الآن، كيف وأنا جارية الخليفة ومِلك يمينه ولا أملك من أمري شيئًا وهو يتغزل بي ويُسمعني مثل هذا الكلام؟!
- بل ملكتِ قلب الخليفة يا «أورورا».

مرَّ الوقت وهو بين يدي صُبْح، حتى إذا مالت الشمس نحو المغيب نهض من مجلسه وارتدى ثيابه وهو مبتسم، ثم خرج إلى إيوان حُكمه، بينما ملأت كلماته قلب صُبْح فرحًا وحبورًا، فأقبلت على عبد الرحمن تحمله بسعادة بالغة وتُقبِّله كمن تراه أول مرة.

وبين مجلس صُبْح وإيوان حُكمه تحرَّك الحَكَم في حدائق الزهراء، ولَحِق به «المصحفي»، ثم نظر إليه الحَكَم وقال:

- أوَتفعل النساء بنا كل هذا يا جعفر؟ فقد ملكت أم عبد الرحمن قلبي ولساني.
- تقول ذلك يا سيِّدي وهي بعدُ محظيتك وجاريتك!
- اكتم عني يا جعفر، فقد أعادت هذه البشكنسية إليَّ شبابي، فكأني شاب في مقتبل العمر، يرتجف بين يدَي حبيبته ويفكر فيها إن هو

غاب عنها، وتشغله ما دام وحيدًا، ولا يشبع منها إن كانت معه، فهل الحب الذي قرض فيه الشعراء أجمل كلماتهم يفعل بنا كل هذا ويمدنا بكل هذه الطاقة والسعادة وحب الحياة؟ ثم تحرَّك وأنشد يقول:

عجِبتُ وقد ودَّعتُها كيف لم أمُتْ وكيفَ انْثنتْ بعدَ الوداعِ يدِي مَعِي

فيَا مُقلَتِي العبْرَى عليها اسْكُبِي دمًا ويَا كبِدي الحَرَّى عليها تقطَّعِي

- وقد بلغت من نفْس الخليفة أن يقول فيها الشعر!

أخذ الحَكَم نفسًا عميقًا وقال:

- النساء هنَّ النساء يا جعفر، ولن ينقص منها كونها جارية أو يزيد لو كانت حُرَّة.. إنَّما هي القلوب تحرِّكنا، فلا نعلم أين تضعنا ولا نعلم أين ستأخذنا، فالقلوب يا جعفر هي الجزء الذي لا نملك التحكُّم فيه، فنحنُ لها تَبَعٌ، نفرح بفرحِها ونحزَن لحزنِها وننقبِض لانقبَاضِها ولن يختلف في هذا الأمر أمير أو خليفة أو حتى فلاح في الحقل أو راعي غنم في قمم الجبال.

❀❀✻❀❀

(4)

في دار القضاء «خطة القضاء» كان يجلس القاضي «ابن السليم» على مكتبٍ وأمامه مكان لجلوس المتخاصمين، وبيده دفترٌ كبير، وبالقرب منه يجلس «محمد بن أبي عامر» وهو يمسك بريشة ودواة، وبالغرفة بعض الحرس من الشرطة، وقد وُضع أمام محمد كتابٌ كبيرٌ يسجِّل فيه ما يدور وما ينطق به ابن السليم من أحكام، وكان هذا هو الوضع العام في كل يوم.

القاضي: أدخِلوا المتخاصمين.

دخل على القاضي أحد التجار وهو يكاد يبكي من الحزن والجزع، فجلس أمام القاضي الذي سأله وقال:

- ما بكَ يا رجل؟

- كان معي كيسٌ من الياقوت النفيس يا سيِّدي، هو كل ما أملك في هذه الدنيا، وعند نهر قُرطُبة تجرَّدتُ من ثيابي وتركتُ الكيس وكل ما معي وسبحتُ في النهر، وما هو إلا وقتٌ قصير حتى رفعته حدأة في مِخْلبها وطارت به، فخرجت من النهر وارتديت ثيابي وحاولت جاهدًا أن أتابعها بنظري، فتحرَّكتُ خلفها حتى تغلغلت في البساتين، ولكن دون جدوى، فقد ابتعدتْ عن مرمى بصري فحالت بيني وبينها الأشجار.

- وهل من عاقل يترك ماله دون حراسة ويسبح في النهر؟! وماذا عساي أن أفعل لك؟ هل أقبض على هذه الحدأة أم آمُر بجمع كل الطيور لنحاكمها؟!

أُسقِط في يدَي التاجر وشعر أن لا فائدة فقال:

- ألا تحكم لي بتعويض من بيت المال يا سيِّدي؟

- التعويض لمن هلك ماله، لا من أهمل ماله وتركَه ليسبح.

خاب أمل التاجر فهمَّ بالنهوض، غير أن محمد بن أبي عامر قال: «لو أذِن لي سيِّدي القاضي...».

أشار له القاضي فاستطرد يقول:

- ليستدعِ مولانا القاضي أصحاب البساتين القريبة من النهر، فنسأل خُدَّامها عمَّن ظهرت عليه في الآونة الأخيرة آثار تبديل وتغيير، فإنْ حدث عرفنا سببه، وإلا فالعِوض على الله في مالك أيها التاجر.

هزَّ ابن السليم رأسه وقد راقه رأي محمد، فأرسل في طلب خدَّام البساتين وراح يسأل الواحد تلو الآخر، حتى قال له أحدهم:

- إن هناك شخصًا ينقل الزِّبل قد اشترى حمارًا مؤخَّرًا وظهر على حاله ما لم نكن نعرف من قبل.

- أيها الشرطي، أحضر لنا جامع الزِّبل هذا، أما أنت أيها التاجر فلتنتظر خارجًا حتى يعود الشرطي.

خرج التاجر لينتظر وقد تعلَّقت كل آماله بجامع الزِّبل هذا، أما ابن السليم فقد قال لمحمد:

- لو ظهر لي رأي وظهر لك غيره، فلتختلِ بي وتخبرني به سرًّا، فإن أنا أجزته وإلا فكأنَّ شيئًا لم يكن، ولا تعودنَّ إلى ما فعلت.

- أمرك سيِّدي، واعْذر ما بدر مني.

- لقد أبديت رأيًا ذا وجاهة، ولكن لا يقولنَّ قائل إن كاتب القاضي هو من يحكم فتذهب هيبة القضاء.

مرَّ الوقت حتى إذا عاد الشرطي بجامع الزِّبل وما إن وقعت عليه عين القاضي حتى قال له:

- أحضِر كيس الياقوت من فورك.

ارتعش الرجل وتملَّكه الخوف وقال للقاضي:

- أيُّ كيسٍ يا سيِّدي؟

- ذلك الكيس الذي وجدته في البستان.

- ولكن كيف علمتم به؟

- هل كنت تريد سرقته يا رجل؟

- معاذ الله يا سيِّدي، ولكني نظرت هنا وهناك فلم أجد من يسأل عنه.

- فهل ظننت أنه قد سقط من السماء؟! اذهب وائتني به.

- دعني آتي به من المنزل.

- لا تتأخر فنُقيم عليك حدَّ السرقة.

- لا لا يا سيِّدي، لن أفعل.

خرج الزبَّال وقد وكَّل به القاضي مَن حمله إلى منزله وجاء بكيس الياقوت وقد نقص منه ما لا يقْدح في مسرَّة صاحبه الذي قال: والله لأخبرنَّ العامة والخاصة أن قاضي القضاة وفتاهُ يحكمان على الطيور ويُنصفان منها.

الزبَّال: العفو يا سيِّدي، فأنا لم أكن أعلم مَن صاحبه.

- لو أتيت به إلينا لأغنيناك، وأمَّا أنت أيها التاجر، فما نقص فهو عليك، فلن نُلزِم به هذا الزبَّال.

- وأنا قد عفوت عن الزبَّال يا سيِّدي، أما ما نقص فهو صدقة مني عليه.
- إذن تخرُج أيها الزبَّال كفافًا لا عقابًا ولا ثوابًا.

❀❀✻❀❀

(5)

كانت الشمس قد مالت صوب المغيب عندما عاد محمد بن أبي عامر إلى داره الجديدة في قُرطُبة بعد أن ترك القديمة وأسكن معه ابنَي عمَّيه وصاحبهم ابن المارعزي، وقد كانت الدار أوسع قليلًا وبها بعض الأثاث الجميل، حتى إذا دخل الدار نظر إليه موسى وقال:

- ثيابٌ جديدة تليق بمنصبك الجديد وتليق بفتى بني عامر.
- وأنت يا موسى متى تنمِّق ثيابك وترتِّبها؟
- وماذا أفعل بالثياب؟ هذه أمور لا أُحسِنها.
- لكنك تُحسِن الشراب والجلوس في الحانات!
- وما يضرك في ذلك؟ فوالله لا أُحسن غير ما قلت.
- بل ستُحسن يا موسى وإلا...
- وإلا ماذا يا ابن العم، هل تخشى أن يقول قائل: هذا ابن عمك؟
- إي والله، إني لأخشى ذلك، فالناس مظاهر، ألا ترى أهل قُرطُبة؟ ربما لا يجد الفرد فيهم طعامه، لكنه يشتري ما ينظِّف به ثوبه، فيقدِّم هيئته على طعامه وشرابه، يجوع ولكن لا تنقص هيبته أمام الناس.
- أقسم إنك تريدني ميِّتًا ولا تريدني بهذه الهيئة.
- أنت من بني عامر ومحسوب عليَّ، فاحرص على ذلك. والآن، خُذ هذه الدراهم فغيِّر من نفسِك. ثم أعطاه بعضها.

أمسك موسى الدارهم فرِحًا ولم يتحدَّث، بل خرج من فورِه من الدار.

عمرو: أخشى أنه لن يبتاع بها ثيابًا.

محمد: أعلم ذلك.

عمرو: فلِمَ أعطيته؟

محمد: حتى أكون قد أعذرتُ فيه.

وفي المساء، جلس محمد وجلس معه ابن عمه عمرو وابن عمه الآخر موسى وصاحبهم أبي الحسن المارعزي، وكان أمامهم الكثير من الطعام، فأكل موسى بنهَمٍ شديد وقد استلذَّ الطعام فقال: هذه والله مائدة لا تقِل عن مائدة الوزراء والأمراء، ولكن ينقصها بعض من الرَّاح.

محمد: معاذ الله أن نفعل ما ينقص المروءة.

موسى: وأين نقصان المروءة من الشراب يا ابن العم؟

أبو الحسن: اتقِّ الله يا موسى.

محمد: أتريد أن تشرب ما ينقص عقلك؟ ثم نهض وقال: أما أنا، فقدوتي في أمري هو صقر قريش عبد الرحمن الداخل، فحينما جاءوا له بالخمر سكَبه وقال: أنا أريد ما ينشِّط عقلي لا ما يُخمِله.

أبو الحسن: وقبل ذلك فهي حرامٌ حرام.

عمرو: غريبٌ أمرك يا محمد، ما زلت تقول ذلك منذ أمد.

محمد: وأيُّ غريب في ذلك؟ إي والله هو قدوتي ومنارتي، ألم يدخل الأندلس وحده فملَكَها؟

موسى: لم يدخلها وحده، بل سبقه إليها مُلك آبائه وأجداده وسطْوة عائلته، وإني لأتذكر أن الصميل بن حاتم قال عنه: «إنه رجل من قوم لو بال أحدهم في الجزيرة لأغرقنا جميعًا»، فأين أنتَ من بني أميَّة أيُّها المعافري؟

نهض محمد وتحرَّك صوب الباب وقال: ما هذه الصُّحبة؟! إي والله لم يدخلها وحدَه، ولكن سبقه عزمه وحزْمه وصديقه ومولاه بدر، فأين لي بمثل بدر إن أنا امتلكت العزيمة والحزْم؟

(6)

في دار ابن حدير وسط الحديقة الخاصة بالقصر حيث الأشجار والرياحين والورود، جلس القاضي «ابن السليم» مع صاحبه «ابن حدير» وهما يتجاذبان أطراف الحديث...

- ما كنت أنتظر أن أسمع منك مثل هذا؟

قالها ثم تحرَّك من مكانه ليصبَّ شراب التوت، ثم عاد وهو يُمسك بكوبين أعطى أحدهما للقاضي «ابن السليم» وأمسك هو بالآخر.

- لم أقل ذلك ذمًّا فيه، ولكنه والله لأعجوبة، فهو متَّقد الذكاء، حاضر الذهن، مطلع على العلوم والأحاديث، حتى إني لأحتار في الرأي فأراه عنده.
- هذا قول أعجب مما سبقه.
- إن وجوده معي ظلمٌ لي.
- فهل ستُقيله؟
- إن فعلتُ ذلك أكن أظلم الناس.
- فماذا أنت فاعل؟ لقد حيَّرتني!
- لا أدري، ولكن سأبحث عن مخرَجٍ لهذا.
- أتعلم أن الحاجب «المصحفي» يبحث عمَّن يتولَّى إدارة أملاك ولي العهد ابن الخليفة وأمير المؤمنين الحَكَم؟
- لا أعلم، ولكن إن كان كذلك فهذا والله هو المخرج.

❀❀❀❀❀

إيوان الحاجب

كان «الحاجب المصحفي» يجلس في إيوانه بالزهراء يتابع أعماله وأمامه بعض من الفتيان الصقالبة، حتى إذا انتهى أعطاهم بعض الكتب فخرجوا من عنده، ليدخل عليه أحد الجند وينحني أمامه ويقول:

- هذا كتاب من قائد الثغور «غالب الناصري».

أمسك الحاجب الكتاب ففضَّه وقرأ ما فيه وقد تغيَّرت وتبدَّلت ملامحه، حتى إذا انتهى منه وضعه جانبًا ونظر إلى الجندي وقال:

- ألا يكتفي صاحبكم بما نُمده به من نفقاتٍ كل عام؟

- إنما أنا رسول يا سيِّدي.

- ممم، لا عليك، انتظرني بالخارج.

لم يخرج الرسول من أمام «المصحفي» حتى دخل عليه القاضي «ابن السليم» فسلَّم عليه وجلس أمامه:

- كيف حال قاضي القضاة؟

- بخير ما دام أمير المؤمنين وحاجبه بخير.

- فما قدومك عليَّ؟

- أريد لقاء أمير المؤمنين بشأن زيادة القضاة، فقد كثُر الناس وكثُرت قضاياهم، وأصبح لِزامًا علينا الرِّفق بهم والإسراع في حلِّ قضاياهم والحُكم فيها، وهذا لن يتحقق بهذا العدد من القضاة حتى يكاد الواحد منهم يقضي في عشرات القضايا يوميًّا، وهذا ليس من العدل، فلربما يأخذ الواحد منهم التعب فيقضي ولا يتحقق.

- كم تريد من المال لذلك؟

- ضعف ما تنفقه خطة القضاء.

- ولكن هذا كثير؟

- الخِزانة عامرة، فلماذا البُخل أيها الحاجب؟

- تعلم أن ثُلث المال للجيش وثُلثه للعِمارة وثُلثه للادخار.
- وخطة القضاء من ثلث العمارة، فهل تُجيز لي ما أريد أم تُدخلني على أمير المؤمنين.
- سأعطيك نصف ما تطلب ولن أزيد.

صمت القاضي هنيهة ثم أمسك بلحْيتِه وقال:

- أقبَل، ولكن لي عِندك طلب.
- على أن يكون في غير مال.

ضحك القاضي وقال:

- تفعل هذا وأنت تنفق من مال الدولة على الدولة، فماذا لو كان مالك؟
- ما أعطيتك منه شيئًا أنت ولا غيرك.
- الأندلس كلها تعلَم عنك هذا، وتعلم حِرصك، وإن شِئت فلأقولنَّ بُخلك، على أني لن أطلب مالًا، ولكني علمت أنك تبحث عن مدبِّر لأموال وأعمال ابن الخليفة، وعندي شاب يستحق أن يتولَّى مِثل هذا الأمر.

قال مازحًا: فماذا لو لم أفعل؟

- سأتحدَّث للعامة والخاصة عن بُخل الحاجب.
- فإن فعلتُ؟
- سأذُبُّ عنك تهمة البُخل.

ثم ضحك الاثنان.

- أرسِله إلينا بعد غد رغم أنَّ غيرَّك حدَّثني فيما حدَّثتني فيه الآن.
- ولكن هذا الشاب مُختلف عن غيره.
- على كل حال فالأمر ليس لي، وإنما لأم ولد الخليفة، فهي من ستختار لابنها في النهاية.

(7)

لم ينم محمد ليلته تلك، فقد قضاها في التفكير في الزهراء، تلك المدينة الجميلة التي سيدخلها أول مرة. آه يا محمد، ماذا سيحدث غدًا؟ وماذا سأرتدي؟

ثم نهض من سريره ونظر إلى ثيابه فاختار أجملها، ثم فتح النافذة المطِلَّة على شوارع قُرطُبة يتنسَّم منها هواء الفجر العليل، ثم ارتدَّ للداخل وقال: «لن يكون مجرَّد يومٍ في حياتك، ولكنه سيكون بداية لما هو آتٍ، فإما الصعود إلى الذروة، وإما فلن أكون، فالفُرص لا تأتي إلا مرة واحده فقط، فإمَّا أن أغتنمها أو تذهب للأبد».

وظلَّ محمد يفكِّر حتى أقبل الصباح، فتهيأ وارتدى أجمل ثيابه وتعطَّر بأفضل ما يستطيع، فكان كالبدر ليلة تمامه، ووقف أمام المرآة يهندِم نفسه، فالتفت إليه ابن عمه موسى وقال:

- إلى أين أيُّها الوزير؟

ردَّ متأفِّفًا:

- أتسخر مني؟ لقد مللت حديثك هذا.

- بل أسأل، وهل السؤال، مجرد السؤال، فيه سخرية؟

- ولمَ العجب وأنت لا ترتدي من الثياب إلا أقلَّه، ولا تعرف إلى الهيبة سبيلًا.

- يكفينا -نحن بني عامر- هيبتك يا ابن العم.

دخل عليهم عمرو وقال: لا شأن لك به يا محمد، وامضِ إلى طريقك.

نظر محمد إلى موسى نظرة ذات معنى وانطلق وهو يحمل أحلامه وآماله إلى حيث الزهراء، يتيمة الناصر وعاصمة الدنيا ومهوى القلوب وموطن الحَلِّ والعقْد، حتى إذا وصل إلى أبوابها استوقفه الحرس، فقال لهم سبب وجوده فسمحوا له بدخول ذاك الصرح العظيم، وما إن اجتازه حتى هابَه وتملَّكته مشاعر كثيرة ومتداخلة لم يملك معها سوى الصمت والحركة في هدوءٍ

وترقُّب.. حتى إذا اقترب من دار الحجابة ووقف أمامها راح يحاول تجميع قوته وثباته، فقد كان يعلم أنه لكي يصل إلى داخل القصر يجب أن يمر على الحاجب المصحفي، فوقف منتظرًا دوره، فقد كان المنتظرون كُثرًا، فلمَّا دخل على الحاجب قال:

- سيِّدي الحاجب.

لم يرفع الحاجب رأسه، كان ينظر إلى الدفاتر أمامه، ولكنه قال:

- من أنت؟

- محمد بن أبي عامر يا سيِّدي، وقد أرسلني القاضي ابن السليم.

رفع الحاجب وجهه من الدفاتر ونظر إلى محمد وقال:

- قد علمت أنك من أوساط الناس، وقد حدَّثني قاضي القضاة عنك وعن أسلوبك وأدبك ومعرفتك، وإنك ستدخل إن قُبلت في الخاصة وتكون منهم، بل وستختلط بحرم الخليفة وهو أكثر الناس غَيْرَة، فلا ترفعنَّ عينك ولا تتحدث بما رأيت، فاحفظ لسانك تحفظ حياتك، واحفظ عينيك تحفظ كل ما تملك.

- سأفعل يا سيِّدي.

- ولتعلم أن لا شيء هنا يخفى عليَّ، فإن حدث شيء فسارع بإخباري إياه، وإلا فمن رفعك اليوم يستطيع غدًا أن يخسف بك.

- أمرك يا سيِّدي.

- والآن سيصطحبك أحد الخِصيان إلى حيث السيدة «صُبْح».

انحنى محمد وتحرَّك مع أحد الخِصيان، حتى إذا اقترب من إيوان السيدة صُبْح شاهده الفتى «جؤذر» فاقترب منه وقال:

- أنت هنا يا محمد!

- أجل، جئت للقاء السيدة صُبْح، فهي تريد من يتولَّى لها أعمال ابن سيدنا الخليفة.

- أنت حقيق بذلك يا محمد، وإني لأرجو أن تكون لها، ولو كان لي من الأمر شيء لساعدتك.
- أشكر كرمك وأسعد بتلك الكلمات، فهي كافية عليَّ الآن.

ثم تحرَّك محمد تتبعه نظرات الفتى «جؤذر» الذي كان قد عرف محمد من خلال دكانه بالكتابة، إذ كتب له يومًا نص إحدى الرسائل.

كانت السيدة صُبْح تجلس في جناح خاص بالزهراء تستقبل فيه المرشَّحين لولاية أملاك ولي العهد، وبجوارها وخلفها بعض الوصيفات، بينما يقف الفتى «فائق» عند الباب يرتب الداخلين عليها، وكانت السيدة قد ضجرت كثيرًا من كثرة من يطلب تلك المهمة ولا مؤهل له ليتولَّى هذا الأمر الكبير، حتى قالت:

- لا يأتيني إلا صاحب واسطة، ولكن ألا تجتمع الوساطة مع العلم؟ هل يجب أن يكون كل صاحب واسطة دون المستوى المطلوب؟ وهل يجب عليَّ أن أختار من هؤلاء؟

ردت عليها مرجانة وقالت:

- إن لم تجِدي اليوم من يصلح للمهمة فلنؤخِّرها للغد ونلتقي أُناسًا غيرهم.

نظرت صُبْح إلى فائق وقالت:

- هل بقي منهم الكثير؟
- اثنان فقط يا سيِّدتي.
- لا بأس، أدخِلهما.

خرج الفتى فائق ليعود وخلفه «محمد بن أبي عامر» الذي ألقى السلام ووجهه صوب الأرض لم يرفع عينه فيها، فبدأت السيدة صُبْح تسأله فيُحسِن الردَّ ويجمِّله، وينمِّق كلامه ويختار أفضله، حتى أخذ بعقل السيدة صُبْح، فلم تتردد في تعيينه بعد حوار طويل استمتعت به السيدة وأطالته لتسمع من بليغ ردود الشاب عليها، وقد لاحظ الفتى فائق إعجاب السيدة صُبْح بالشاب ولباقته، كما لاحظ ذلك الوصيفات.

تمَّ تعيين الشاب، وأبلغته السيدة بذلك فانصرف وقد شعر أن الدنيا لا تَسع سعادته ولا تحتوي فرحة تعيينه في تلك الوظيفة، وكيف لا وبهذه الوظيفة تحديدًا سينفُذ إلى عقل الحَكَم وقلبه؟!

وما إن خرج من أمام السيدة حتى عاد إلى إيوان الحاجب، فاستوقفه الحرس حتى يستأذنوا له كما حدث أول مرة، فانتظر كثيرًا حتى خرج صاحب المدينة «محمد بن المصحفي»، الذي كان شابًّا مستهترًا لا يحسن تقدير الأمور، فكل ما يشغله هو المال الذي يجمعه أبوه، والمناصب التي حازها لكونه ابن الحاجب، وما إن رأى محمدًا حتى نظر إليه وقال له بازدراء كبير:

- ما يوقفك هنا يا هذا؟

- أنتظر إذن الحاجب للمثول بين يديه.

- ألست أنت كاتب الرِّقَاع أمام الزهراء؟

- بلى يا سيِّدي.

- فما يريد كاتب الرِّقَاع من الحاجب؟ ومن أدخلك الزهراء؟

شعر محمد بن أبي عامر أن ابن «المصحفي» يزدريه ويقلِّل منه، فتحوَّل عنه إلى الحارس قائلًا له:

- هلَّا أدخلتني إلى الحاجب؟

وقبل أن يجيب الحارس كان ابن «المصحفي» قد غضِب وقال:

- كيف تجرؤ يا كاتب الرِّقَاع على تجاهُلي وعدم الردِّ عليَّ، بل كيف تدير ظهرك لي؟

امتص محمد امتعاضه وغضبه وأسرَّ تلك الإهانات في نفسه وقال:

- ما تجاهلتُك يا سيِّدي، ولكن هي إرادة الله التي أدخلتني الزهراء، فلا وسيط لي إلا هذا. وأشار إلى عقله.

- أراك معتدًّا كثيرًا بنفسك يا هذا، ولكن احذر، فأنت هنا في الزهراء ولست تكتب الرِّقَاع، فإياك أن تتحدث هنا بحديث العامة فتهْلك. ثم ضحك ودخل مرة أخرى إلى أبيه الذي بادرَه قائلًا:

- ماذا أرجعك إلى هنا؟

جلس محمد بن «المصحفي» وقال:

- لا شيء غير أني رأيتُ شابًّا أحمق خارج إيوانِك فأردت أن أعرف سبب وجوده، فلم يُجِبْ، فأردت أن يعلم الأحمق أني على معرفة ما برأسه لقادر.

امتعض «المصحفي» من ضعف تفكير ابنه وتعلُّقه بسفاسف الأمور، ثم أشار إلى الحارس فأدخل محمد بن أبي عامر الذي نظر إلى محمد بن «المصحفي» جالسًا أمام أبيه في تكبُّر وتعالٍ كبير قبل أن يقول في تواضع:

- لقد عيَّنَتْني السيدة يا سيِّدي، وما أردت الخروج من الزهراء إلا قبل أن تعلم وأخبرك.
- خيرًا فعلت، ولتعلم أني هنا مُطَّلِع على كل شيء، فما أعرفه منك أفضل لك مما أعرفه من غيرك.
- قطعًا يا سيِّدي.
- انصرف الآن.

استدار محمد للخروج من الإيوان، وقبل أن يبتعد، ناداه الحاجب مرة أخرى، فارتد محمد واستدار ملبيًا:

- سيِّدي الحاجب.
- كنت قد علمت من سيدك قاضي القضاة بتمكُّنك من الأحاديث والعلوم والنحو، فأردت أن أتأكد من ذلك.
- الأمر كما قال سيِّدي قاضي القضاة والحمد لله على نِعمِه وفضله.

وقف «المصحفي» وكان جالسًا خلف مكتب كبير عليه الكثير من الأوراق والأحبار والأختام، ثم اقترب من محمد الذي ظل مطأطئ الرأس ينظر إلى الأسفل في وقار كبير للمصحفي الذي قال:

- إذن اعرُج علينا في المنزل لتُعلِّم مَن بالقصر من أطفال ما استطعت من علومٍ وشعرٍ ولغة.

- أمرك سيِّدي الحاجب.

أشار الحاجب بيده إلى محمد فخرج من أمامه، وما إن خرج حتى وقف محمد بن «المصحفي» وكان قد تبدَّل حاله واشتد غضبه، فقال لأبيه:

- يتطاول هذا عليَّ فتُعيِّنه لإدارة أملاك ولي العهد، ثم تجعله معلمًا للأبناء في بيت الحاجب، فكيف لكاتب الرِّقَاع هذا أن يصل إلى كل ذلك؟ لا يا أبتِ يجب أن تطرده، فهذا الأحمق لا يستحق ذلك.
- بل أنت الأحمق، أتريد لأبيك أن يفقد الحِجابة.
- تفقد الحجابة من أجل هذا الصفيق!
- بل من أجل حماقة ولدي الذي يريدني أن أنقُض ما أرادته أم ولد الخليفة، فكيف أُشِيد بالرجل أمامها وأرشِّحه لها ثم أعود فأتهِمه، فكأني اتهمت نفسي.

❀❀✻❀❀

(8)

كانت صُبْح منشغلة الفكر غارقة فيه، حتى إنها لم تتنبه لدخول الخليفة إلى مخدعها، وقد لاحظ الخليفة ذلك فقال لها:

- أراكِ تستغرقين في التفكير حتى إنك لم تشعري بدخولي.

انتبهت صُبْح ووقفت من فورها واقتربت من الخليفة تعلوها ابتسامة كبيرة وقد وضعت يدها على شعرها ثم قالت:

- ذلك لأن مولاي يدخل دخول النسيم العليل فلا يشعر به أحد.

ثم قامت تخلع له ثيابه وعمامته ووضعتهما في جهة معينة، ثم جلس الخليفة وقدَّمت له صُبْح بعض الطعام والفواكه.

- كيف حال صغيرنا عبد الرحمن؟
- لا يحب النوم والراحة يا سيِّدي، فتراه كثير التقلُّب قليل النوم.

- أرجو أن يكون ذلك دليلًا على نشاطه.
- سيكون كذلك، فهو الأموي الأب البشكنسي الأم.
- كيف وجدتِ متعهِّد أموال عبد الرحمن؟
- لقد وقع اختياري على شاب من أواسط الناس لا بأس به.
- من أواسط الناس! كيف له أن يصل إلى الزهراء، وإن كان غير كفء فلتصرفيه.
- لقد أوصى به القاضي ابن السليم يا سيِّدي، فقد كان يعمل معه.

رفع الحَكَم قدمه عن الأرض ووضعها على الأريكة واتكأ بظهره للخلف على وسادة كبيرة، فجاءت صُبْح وجلست بالقرب من قدميه، فقال:

- إن كان قد أوصى به ابن السليم فلا غرو أن يكون على قدر ما سيكلَّف به، على كل حال أرسِليه إليَّ غدًا في المكتبة الأموية لأراه وأختبره.

❀❀✻❀❀

(9)

ما إن وصل إلى بيته حتى ابتدره ابن عمه عمرو وقال:

- أين كنت يا محمد؟

ابن المارعزي: وجدناك صباحًا وقد تهيَّأت أحسن هيئة وخرجت ونحن لا نعرف أين تذهب، فلمَّا تأخرت ذهبنا إلى خطة القضاء فلم نجدك عند القاضي بن السليم.

محمد: وهل كنتما تخشيان أن أضيع في الطريق أو أضل طريق العودة.

عمرو: ليس كذلك؟

قاطعه محمد وقال: على كل حال فقد كنت في الزهراء.

عمرو: الزهراء!

ابن المارعزي: أخيرًا الزهراء.

محمد: بل أولًا.

عمرو: فلماذا لم تخبرنا؟

محمد: ما كنت لأبوح بأمر قبل أن أنجزه وأُتِمَّه.

ابن المارعزي: وأنا كنت أراك وأقول لمَ كل هذا التزين؟ الآن علمت.

محمد: لا يحق لمن أراد معالي الأمور أن يظهر إلا بأجمل هيئة وأكرمها، فالناس لا تعرف البواطن، ولكنها تأخذ بالظواهر.

ابن المارعزي: وماذا حدث؟ أو لماذا ذهبت إلى الزهراء؟ وكيف وجدتها؟ هل حقًّا تشبه الأساطير؟ هل حقًّا بها بحيرة من الزئبق؟

محمد: وأي أسطورة وأي مدينة؟ إنها والله أعجوبة الدنيا.

عمرو: رحِم الله مولانا الناصر الذي قال:

هِمم الملوك إذا أرادوا ذِكرها ... من بعدهِم فبألسُنِ البُنيانِ.

أوما تَرى الهرمين قد بقيَا وكم ... مُلْـكٌ مَحـاهُ حـوادثُ الأزمانِ؟

إنَّ البناء إذا تعاظَم شأنُه ... أضحى يدلُّ على عظيم الشانِ.

ابن المارعزي: إذن قُص لنا ما رأيته أو صِف لنا الزهراء كما رأيتها؟

محمد: لم يُبنَ في الإسلام مدينة أحسن منها، وهي والله من عجائب الدنيا، في سورها ثلاثمائة برج، وقد قسَّم الناصر المدينة إلى ثلاثة أقسام، فجعل ثلثها قصورًا للخلافة، وثلثها منازل للخدم، وجعل ثلثها الأخير بساتين، كما عمل فيها بحيرةً ملأها بالزئبق، فإذا أشرقت الشمس عليها سطعت بأضواء ساحرة.

عمرو: كأنك تحكي سحرًا.

خلع محمد ثيابه ثم جلس بينهم وقال: وأيُّ سحرٍ يا عمرو، إنها والله دليل على فخامة مُلك الناصر وقوَّتِه وهيبتِه ومكانتِه التي كان قد وصل إليها.

ابن المارعزي: وماذا كان يفعل الفتى محمد بن أبي عامر في هذه المدينة العظيمة؟

وقف محمد وكان جالسًا، فتناول تفَّاحة من طبق أمامه وقضمها ثم قال: لقد تولَّيت إدارة أملاك ولي العهد.

ضحك موسى بصوت مرتفع وكان يجلس في الغرفة المجاورة ويستمع لحديثهم، فتحرَّك ودخل عليهم وقال: هل هذا يعني أن تهُز له سريره، أم تحضر له طعامه، أم تبدِّل له ثيابه؟

عمرو: دعك منه يا محمد، فوالله إنه ليهذي بكلام لا يليق.

صمت محمد هنيهة محاولًا كتمان غيظه وغضبه، ولكن دون جدوى، فخرج عن صمته وقال:

- لقد مللت منك ومن تلك الكلمات التي تقولها، مللت من حديثك ومن تثبيطك لي، ومن تهكُّمك عليَّ، ومن هيئتك التي تخفض ولا ترفع، وقد كنت علِمت أنك تريد المال لتنصرف عن هنا وتسيح في البلاد بحثًا عن مُتعِك.

ثم دخل إلى غرفته وخرج بصُرَّة من الدنانير وقال: هذا هو المال، فاخرج كما تحب وتشاء.

تبدَّلت لهجة موسى وقال: تريدني أن أخرج من قُرطُبة ولا ترى وجهي مرة أخرى؟

صمت محمد وأدار ظهره لموسى، فاقترب منه موسى وقال بصوت حزين: والله إني لأحبك يا ابن العم، وإني لأعلم أن هيئتي هذه لا تعجبك، وإني لأعلم أنك رجل تحب المظاهر كثيرًا.. ثم صمت هنيهة وقال:

- سأرحل.. نعم، سأرحل عن قُرطُبة كلها حتى لا أُعيق صعودك إلى القمة.

نظر عمرو وابن المارعزي إلى محمد وموسى وقد ملأ الحزن وجهيهما، ولكنهما لم ينبسا بكلمة واحدة.

موسى: لن يمسي نهار الغد إلا وأكون قد خرجت من قُرطُبة، فطِب خاطرًا وأرِح بالك، فلن يُعيقك موسى عن هدفك.

❀❀✻❀❀

(10)

دبَّت الحياة في شوارع «قُرطُبة» وانتشر الخَلق في كل مكان مع أول خيط من خيوط فجر هذا اليوم الجديد، وتحرَّك الخليفة خارجًا من مسجد الزهراء الذي دأب على الصلاة فيه، وتوجَّه صوبَ المكتبة الأموية العظيمة، فخفَّ خازنها وبعض حرَّاسها إليه يخدمونه ويكونون رهن أمره، ولكن الحَكَم لم يأمرهم بشيء بل توجَّه من تلقاء نفسه إلى أحد جوانب المكتبة وراح يدقق النظر في تلك الكتب، فقال له تليد الخصيُّ:

- هل تبحث عن شيء فأعينك يا مولاي؟
- بل البحث متعة لا أريد أن أخسرها، ففي معرفة العناوين ثم انتقاء بعضها متعة لا مثيل لها، فهذا فرق بين أن تطالع وتختار وبين أن يؤتى إليك بشيء منه.
- القول ما يقوله مولانا أمير المؤمنين.

تناول الحَكَم أحد الكتب ثم جلس يتصفَّحه على مكتبٍ كبيرٍ مخصصٍ لجلوسه، واستغرق يقرأ في الكتاب ويقلِّب صفحاته، أما عمَّال المكتبة فقد انشغلوا بترتيب الكتب الجديدة ووضْعها في أماكنها كلٍّ حسب موضوعه وعنوانه، فقِسمٌ للتاريخ، وقِسمٌ للشعر، وقِسمٌ للحديث، وقِسمٌ للفلك، وقِسمٌ للكيماء، وقِسمٌ للفلسفة و....

وبينما هو مُنشغل في كُتبه كان الفتى «جؤذر» يتحرَّك صوب المكتبة الأموية ومعه «محمد بن أبي عامر» الذي أراد الخليفة أن يراه، فقد كان الحَكَم يعلم أن مهمة تولِّي أملاك عبد الرحمن ليست بالمهمة السهلة، بل تحتاج إلى

رجل فطن ذكي أمين، وكيف لا وهو سيتولى مهمة كهذه ويخالط دون غيره حرم الخليفة ليقدِّم للسيدة صُبْح تقريره عن تلك الأملاك والأموال.

دخل «جؤذر» المكتبة ومحمد خلفه حتى وقفا أمام الخليفة، فقال «جؤذر»: محمد بن أبى عامر يا مولاي.

رفع الحَكَم رأسه من كتابه وقال: انصرف أنت يا «جؤذر».

انصرف جؤذر وبقي محمد واقفًا لا يتحرك، بينما يتابع الحَكَم ما يقرأ، وبعد لحظات رفع الحَكَم رأسه وقال:

- هل رأيت هذه المكتبة من قبل؟
- أجل يا سيِّدي، فقد حظيت أكثر من مرة بدخول المكتبة ومطالعة بعض كُتبها العامرة، وإنها لأجمل وأعظم ما شُيِّد في قُرطُبة بعد مسجدها وقنطرتها.
- بل ربما هي أعظم ما شُيِّد في الأندلس كلها بعد مسجد عبد الرحمن الداخل، فالمعرفة يا محمد هي ما تشيِّد القناطر وتبني الجسور، وهي ما تزرع وتحصد، وهي ما تُقيم الدول أو تهدِمها، وإلا فما الفرق بيننا وبين باقي الدول مثل قشتالة وليون وبلاد الإفرنج واللمبارد إلا في تلك الكتب وهذه العلوم؟
- كما قُلت يا مولاي.

أشار الحَكَم إلى أحد الكتب وقال:

- أعطني هذا الكتاب.

تحرَّك محمد إلى حيث أشار الخليفة فأمسك بمجلدٍ ضخم حمله بكل وقار إلى حيث الخليفة الذي فتحه وقال:

- هل قرأت لصاحب هذا الكتاب؟
- أجل يا سيِّدي.
- ماذا قرأت له؟

- العِقد الفريد، وأمثال العرب، وسِحر البيان، وأبناء النور، وأيضًا طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وغرائب وأخبار وأسرار.
- قرأت كل كُتبِه إذن، فهذا يعني أنك مُعجب بما كتب.
- الحقيقة أجل يا سيِّدي، وكيف لا يروقني أن أقرأ من تتلمذ مولانا الناصر رحمه الله على يديه.
- وعلمت هذه أيضًا رغم صِغر سِنِّك.
- رحم الله مولانا الناصر، فقد كان عظيمًا، ويجب لمثله أن يكون قدوة لنا، يجب أن نتعلَّم ممن علمه، فهو الناصر الذي أعاد للأندلس هيبتها وقوَّتها وشيَّد ما شيَّد فيها.
- أحسنت يا محمد، والآن اذهب إلى عملك.

انحنى محمد وخرج بعدما التقى بالخليفة أول مرة، متجهًا صوب أملاك الأمير عبد الرحمن بن الحَكَم وهو مبتهج النفس عالي الهمة والعزيمة والإصرار، وبدأ في تفقُّد الأرض وسائر الأملاك، حتى إذا كانت الشمس في كبد السماء، والجو قائظًا، أمر محمد الجميع بالاحتماء بالأشجار وتناول طعام الغداء. أما هو، فقد أخذ جانبًا مستظلًّا بظِل شجرة، وفتح أحد الكتب وراح يقرأ فيه، حتى إذا مرَّ بعض الوقت، سمع صياح وصهيل خيل، رفع رأسه وفتح عينيه يستطلع الأمر وكأنه قد شكَّ بأذنيه، فإذا بالصياح يتكرر والاستغاثة تزيد، ترك الكتاب ونهض من فورِه وامتطى صهوة جواده متحرِّكًا صوب الصوت، فإذا بحصانٍ جامحٍ قد فقدت مَن تمتطيه السيطرة عليه، تحاول إيقافه ولكن دون جدوى، فراحت تستغيث بصوت مرتفع.

لكز محمد بطن جواده وهو يحُث حصانه على اللحاق بالفتاة، حتى إذا ما اقترب منها مدَّ يده فأمسك بلجام الحصان حتى أوقفه، وقبل أن يتفوَّه بكلمة كانت الفتاة قد فقدت توازنها وبدأت في التهاوي من فوق الحصان، فنزل محمد بسرعة وساعدها في النزول، ولكنها كانت قد غُشي عليها من هول ما رأته، فسقطت على العشب، وكان الصقالبة العاملون في الحقول قد

تنبَّهوا لما حدث، فسارع أحدهم ووقف بجوار محمد الذي قال له: أريد كوبًا من الماء.

هرول الصقلبي وأحضر الكوب، فوضع محمد يده فيه ورشَّ بضع قطرات من الماء على وجه الفتاة بعدما مال غطاء وجهها وانكشف أكثره، واستعادت الفتاة وعيها وهي تنظر إلى محمد الذي قال لها:

- لا بأس عليكِ، ولكن لماذا تمتطينه إن كنتِ لا تحسنين ركوبه والسيطرة عليه؟
- لم تكن هذه أول مرة أخرج به.
- فما الذي حدث؟

صمتت الفتاة هنيهة واستوت في قعدتها على العشب وأعادت حجب وجهها بينما هدأ حصانها ووقف بجانبها يعلك رسَنَه وقالت:

- تعرضت لمضايقات من بعض الفتية الذين حاولوا الحديث معي، فلمَّا تجاهلت حديثهم مستصغِرة لهم لويْتُ رسن جوادي مبتعدة عنهم، فإذا بواحد منهم يقترب مني وينغز فرسي بطرف عصا كانت بيده، فصهل جوادي وانطلق يعدو بي وكأنه في سِباق بينما الشابان يضحكان، ففقدت السيطرة على الجواد حتى رأيت ما رأيت بنفسك.

همس محمد في نفسه وقال: لقد اختلَّ الأمن، وكل ذلك بسبب محمد بن «المصحفي» الذي لم يُحسِن تولِّي أمور قُرطُبة.

نهضت الفتاة مبتسمة وقالت:

- والآن لا يسعني شكرك فكيف أفعل؟
- هذه الأمور لا تستحق ذلك، فلو كان غيري لفعل كما فعلت، والآن سيرافقك بعض الفتيان حتى منزلك.
- بل سأعود كما جئت.
- كما تحبين، ولكن لم تخبريني بعدُ من أنتِ؟

- أنا «الذلفاء بنت خالد» رئيس حرس الخليفة، فإن أردت فسيجعل لك أبي جائزة كبيرة لحُسن ما صنعت.
- ومن قال إن ثمن المروءة جائزة؟ فوالله حين تقدَّمت منكِ لم أكن أعلم من أنتِ، فاللهفان حقٌّ علينا إغاثته أيًّا كان، فقيرًا أم غنيًّا، مسلمًا أو حتى كافرًا.

أُعجبت الفتاة بمنطق محمد وكلامه، ثم امتطت جوادها وتحرَّكت عائدة إلى بيتها وقد بلغ محمد من نفسها مبلغًا، حتى إذا وصلت الدار سألت عن أبيها فلم تجده، فحمدت الله على ذلك، إذ كانت تعلم أنه لن يسكت على ما حدث إن هو علم به.

أمَّا محمد، فقد راقب الفتاة ببصره حتى اختفت عن ناظريه، ثم نظر إلى العُمال والفتيان وقال لهم: عودوا إلى أعمالكم بارك الله فيكم.

ثم بدأ في إحصاء الأملاك وتدوينها، فهناك أرض في شرق قُرطُبة وأخرى في غربِها، وبساتين كثيرة مزروعة بالتين والعنب والبرتقال، وبعض أرض مزروعة بالقمح والخضروات، فكتب ودوَّن وجمع كل ما يستطيع جمْعه من معلومات كافية، سواء في النفقات أو حجم تلك الأملاك وحساب مصاريفها وتكلفة العناية بها، واستغرق ذلك منه أسبوعًا كاملًا وهو يكتب تقاريره ويدوِّن أفكاره ومعلوماته، حتى رأى أن بعض الأرض خَراجها قد ضعف استدعى أحد الصقالبة وقال له:

- لماذا يضعُف خَراج هذه الأرض عن غيرها؟
- لا أدري يا سيِّدي، فنحن نعتني بها ولكن دون جدوى، وكلما مرَّت عليها السنون ازدادت ضعفًا.
- منذ متى وأنتم تزرعونها قمحًا؟
- منذ ثلاثة أعوام أو يزيد.
- ممم، أي قبل مولد الأمير.
- أجل يا سيِّدي.

- فليكن هذا آخر عهد لقطعة الأرض تلك بزراعة القمح، فإن تكرار المحصول الواحد يفسد الأرض فتقل جودة محصولها، ولكن في التغيير فائدة، وكذا افعلوا في كل أرض خاصة بالأمير.

- أمرك يا سيِّدي.

وبعد أن انتهى من كتابة تقريره عن الأرض ومحاصيلها ذهب إلى اسطبلات الخيل وحظائر الحيوانات، فأحصى ما بها وحسب تكلفة علفها والعناية بها، وبعد أن أتمَّ عمله تحرَّك حاملًا كتابه وعلى باب أم ولد الخليفة انتظر الإذن له بالدخول.

تكررت الزيارات، وفي كل مرة كان محمد يقدِّم تقريره والسيدة «صُبْح» تستمع إليه وهي لا تدري بحبال الانجذاب إليه التي بدأت تلتف حولها، فكل زيارة كانت تختلف عن سابقتها، فتبدو كمن ينتظر ويترقب لا لتتلقَّى تقريرًا عن أملاك ولدها، ولكن لتلتقي محمدًا نفسه وتتحدث إليه، أو تسمعه وهي مطمئنة النفس سعيدة الروح، ومع تكرار الزيارات تبدَّلت حال صُبْح، فاجتهدت أن ترتدي في كل مرة أفخر الثياب وأجملها وكأنها ذاهبة إلى من يطلب يدها لا من يعمل في خدمة ولدها، وكيف لا وهي شابة جميلة صغيرة والخليفة في مرحلة كبيرة من العمر، بينما محمد شاب جميل يشتعل ذكاءً ويتَّقد حيويةً ونشاطًا ومقدرةً على تصريف الأمور، فانجذبت إليه دون أن تدري.

لاحظ محمد ذلك فتلطَّف معها كثيرًا، وكان الحديث بينهما يطول، وصُبْح مستمتعة به، حتى إذا انصرف من أمامها وجد محمد نفسه مطلوبًا إلى ديوان الحاجب «المصحفي»، فلم يجد بُدًّا من تلبية أمره وطلبه، فقد كان يعلم أن «المصحفي» هو أهم شخصية في الزهراء بعد الخليفة ولا يريد إغضابه، فدخل عليه وسلَّم قائلًا:

- سيِّدي الحاجب.

لم يرفع الحاجب عينه لمحمد وقال له:

- أخبرني ماذا وجدت في إدارتك أملاك سيدنا الأمير؟

- كل خير يا سيِّدي، وقد كتبت تقريرًا ورفعته إلى السيدة أم ولد الخليفة.
- مممم، لا تؤخِّر عني شيئًا تعلمه.
- قطعًا يا سيِّدي، فإنما أنا تابعك وأنت من رشَّحني لهذا العمل، فالشكر لله ثم لسيِّدي الحاجب.
- أحسنت يا محمد، والآن لا تنسَ دروس الأطفال في دراي.
- قطعًا سيِّدي، فهذا شرف عظيم أن أدخل بيت الحاجب وأعلِّم أولاده.
- فكُن كما أظنك.
- أمرك سيِّدي.

وما إن مالت الشمس صوب الغروب حتى كان محمد قد ذهب إلى قصر الحاجب ومعه كتب اللغة والعلوم، ولكن الحرَّاس لم يُدخِلوه فورًا، بل جعلوه ينتظر كثيرًا، فلمَّا اشتدت عليه حرارة الجو أدخلوه إلى دهليز الدار وجعلوه ينتظر، وقد كان أولاد الحاجب لا يحبون العلم الكثير، لذا فقد كانوا يتملصون من كل معلم يدخل إليهم. انتظر محمد ولم يُظهر الضجر بل ظهر مبتسمًا بينما الغِلمان والعبيد يتحركون أمامه وهو لا ينبس بكلمة، إذ كان يتخذ من الصمت وطول التفكير دِرعًا له، ومرَّ الوقت وجاء «محمد بن المصحفي» فوجد محمد بن أبي عامر في دهليز القصر، فنظر إليه محتقرًا له وساخرًا منه، ثم دخل ولم يحدِّثه، وبعد وقت ليس بالقصير أذِنوا له أخيرًا في الدخول وبداية الدرس.

❀❀✻❀❀

(11)

كانت تلك الفتاة التي سلبت لُبَّ محمد هي «الذلفاء بنت خالد بن هشام»، رئيس حرس الخليفة، وقد كانت وحيدة أبيها، لذا فقد كانت مرفَّهة إلى أبعد حدٍّ، وكان والدها يُغدق عليها من صنوف الهدايا والأموال، ولا تنفك «الذلفاء»

تتسوَّق وتشتري ما تريد، فقد كان حضورها إلى الزهراء كثيرًا، مما ساهم في معرفة «محمد» ماهية تلك الفتاة.

ففي بعض الأيام كان محمد خارجًا من أمام السيدة صُبْح فلمح تلك الفتاة وهي تتحرك في الزهراء، فتعجَّب ووقف مشدوهًا وهو ينظر إليها، فاقترب منه الفتى «فائق» وقال هامسًا:

- إنها الذلفاء، ولن تجد في الزهراء كلها من يجهلها، ولولا السيدة صُبْح لكانت أجمل نساء الزهراء.
- أجل، إنها كما تقول.

ثم تحرَّك محمد خارجًا من الزهراء وهو يفكر في أمر الفتاة، ويفكر في نفسه أيضًا، فقد سلبت «صُبْح» بعضًا من تفكيره وإعجابه، فرَاحَ يحدِّث نفسه وقد جلس تحت إحدى الأشجار الضخمة بعيدًا عن مواطئ الأقدام: «إنها أم ولد الخليفة يا محمد، في النظر إليها المهالك، وقد علمت أن الحَكَم يغير على حرمِه، أم نسيت قول الحاجب؟! إنَّ وقوعك في مثل هذا الحب فيه هلاكك وانتهاء أحلامك، والحب يُضعف النفس ويجعل المحبوب هو الغاية، فلا يفكر الإنسان إلا في تلك الغاية، ثم يلتمس لنفسه الوسيلة تلو الأخرى لا يكل ولا يمل، فتتغير وِجهته وتتبدل أحلامه وتضيق الدنيا ولا يرى فيها غير حبيبته، فتصغر دونها الأحلام، وتبعد دونها الغايات. أجل، يجب مُلاطفة السيدة صُبْح، فالمرأة تُحب بأذنيها قبل عينيها، فهي وسيلتك إلى معالي الأمور، ولن يكون تولِّي أملاك عبد الرحمن هو النهاية، بل البداية لما خلفه، ولكن كيف أُنقذ نفسي من شَراك جمالها؟ وكيف أنقذها من نفسها؟! ثم نظر بعيدًا وقال: أجل، إنه الزواج، الزواج الذي سيحيطني بحصنٍ حصين ويقطع ألسنة قد تتحدث يومًا وتلوك ما لا أريد.

الفصل الثالث

بَنـو أُمَيَّـةَ لِلأَنبـاءِ مـا فَتَحـوا
وَلِلأَحاديـثِ ما سـادُوا وَمـا دانُوا

كانوا مُلوكًا سَريرُ الشَّرقِ تَحتَهُمُ
فَهَل سَأَلتَ سَريرَ الغَربِ ما كانوا؟

بِالأَمسِ قُمتُ عَلى الزَهراءِ أَندُبُهُم
وَاليَومَ دَمعـي عَلى الفَيحاءِ هَتَّانُ

لَولا دِمَشقُ لَما كانَت طُلَيطِلَةٌ
وَلا زَهَـت بِبَنـي العَبَّـاسِ بَغـدانُ

مَرَرتُ بِالمَسـجِدِ المَحزونِ أَسأَلُهُ
هَل في المُصَلَّى أَوِ المِحرابِ مَروانُ

تَغَيَّرَ المَسجِدُ المَحزونُ وَاختَلَفَت
عَلـى المَنابِـرِ أَحـرارٌ وَعِبـدانُ

فَـلا الأَذانُ أَذانٌ فـي مَنارَتِـهِ
إِذا تَعالَـى وَلا الآذانُ آذانُ

وَالطَيرُ تَصدَحُ مِن خَلفِ العُيونِ بِها
وَلِلعُيـونِ كَمـا لِلطَيـرِ أَلحـانُ

الشاعر/ أحمد شوقي

(1)

جلس الحَكم في إيوان حُكْمه بالزهراء واجتمع من حولِه الإخوة والوزراء حسب مكانتهم وقُربِهم من الحُكم، صمت الجميع وتحدَّث الخليفة قائلًا:

- الحمد لله الذي ردَّ كيدهم إلى نحورِهم فافترقوا بعد تجمُّعهم، وصار كل واحد منهم يزعم أنه الأحق بالمُلك.

«غالب الناصري»: ذلك لأن الطفل «راميرو الثالث» الذي أصبح خلَفًا لأبيه «سانشو» لم يستطع السيطرة على الأمر، وسقطت الهَيبة بتولِّي امرأة وصبي الحُكم فطمع كل طامع وخرج كل صاحب فِتنة.

الحَكَم: وهذه فرصتنا لتطويعهم أكثر وأكثر، فالفِتنة أفضل مُعينٍ لنا عليهم، وها هو كونت قشتالة الذي كان يتكبَّر علينا سيأتي إلينا صاغرًا اليوم مقدِّمًا فروض الطاعة.

الحاجب «المصحفي»: وأيضًا يا سيِّدي فقد أرسل «بوريل بن شونير» أمير قطلونية برسالة مفادها أنه سيقدُم إلى قُرطُبة اليوم.

نهض الحَكَم من مكانه فوقف الجميع، ثم قال: أحسِنوا استقبالهم واجعلوهم يرون كيف هي الأندلس وكيف ملوكها ورجالها، فلا يفكرون في مناوءتها أبدًا، وليعلموا ويعلم كل أهل الجزيرة بِعِزَّة الإسلام هنا وقوَّته ومنَعته، وأنَّ لنا اليد العُليا، ليس في الأندلس فحسب، بل نستطيع لو أردنا فرض هيبتنا على الجميع.

وما إن مالت الشمس صوب الغروب إلا وكانت الزهراء قد تزينت واصطفَّ الحرس الصقلبي ودُقَّت الطبول ونُفخت الأبواق لاستقبال السفراء.

وكان أول الوافدين على قُرطُبة من أمراء النصارى أمير «جليقية» وأمير أشتوريش، (الأستریاس)، ثم وفدت رسل سانشو غرسيه ملك نافار، وهم جماعة من الكونتات والأساقفة يسألون الصُّلح، فأجابهم الحَكَم إلى ما طلبوا.

ووفدت أيضًا سفارة من أمير برشلونة الكونت «بوريل ابن شونير» وعلى رأسها مبعوثه الكونت «بون فلي» لتجديد المودة والصداقة، ومعهم ثلاثون أسيرًا من المسلمين الذين كانوا محجوزين بالإمارة، تقرُّبًا من الخليفة. فاستقبلهم الحَكَم بالمجلس الشرقي من قصر الزهراء مرتين، الأولى في الرابع من رمضان سنة 360هـ، والثانية في الثاني من شوال، واستمع إلى رسالتهم بالقبول والرِّضا، وصرَفهم بجزيل الصِّلات وفاخر الأكْسِيَة، ثم وفدت الراهبة «ألبيرة» عمَّة ملِك «ليون» «راميرو الثالث» والوصية عليه، فقوبِلت في قُرطُبة بمظاهر الترحاب والتكريم، واحتفل الحَكَم باستقبالها بقصر الزهراء في يوم مشهود، وعقد السِّلم لملك «ليون» تحقيقًا لرغبتها، وأغدق عليها الهدايا والصِّلات «وحُملت على بغلة فارهة بسِرج ولِجام مُثقَلَيْن بالذهب ومِلحفة ديباج»، كما وردت إلى الخليفة رسالة ودِّية من «يوحنا زيمسكي» (الدمستق) قيصر قسطنطينية على يد رسوله قسطنطين المُلقى، ورسالة أخرى من إمبراطور ألمانيا «أوتو الثاني» الذي خلف أباه «أوتو الأول» وفيها يجدِّد علائق المودة التي كانت بين أبيه وبين الناصر. وهكذا وتحت الحُكم الأموي وصلت الخلافة الأندلسية في ذلك العصر إلى أوج روعتها، وبسطت سيادتها السلمية على سائر الأندلس، وكفلت بذلك السَّكِينة العامة».

❀❀✻❀❀

(2)

كان خرير الماء في النافورة يصنع لحنًا جميلًا، بينما «محمد بن أبي عامر» يجلس بالقرب منها وهو غارق في تفكيره، لم يُخرجه من تلك الحالة سوى طرق على الباب، فهبَّ أحد الخَدم لفتحِه، فإذا ابن عمه عمرو ومعه ابن المارعزي، فما إن رآهما حتى ابتسم لهما ورحَّب بهما وأجلسهما بالقرب منه.

عمرو: نعرف انشغالك تلك الأيام، ولكنَّا لا نقدر على ترك صحبتك.

محمد: وأنا أيضًا يا عمرو لا أقدر على ترك صحبتكما.

ابن المارعزي: ألم تجد في الزهراء من يغنيك عنَّا؟

محمد: ولن أجد، ففي الزهراء نفوس طامحة وقلوب لا تعرف إلا التقاء المصالح، ثم وقف واقترب من عين الماء وداعب الماء الصاعد لأعلى واستطرد يقول: كلما ارتقيت في المناصب زاد مريدوك وتابعوك ومن يريد أن يكون لك خِلًّا وصاحبًا، ولكن تظل تلك التبعية والصُّحبة هي للمنصب وليست لصاحب المنصب، فإن حافظ على مكانته بقيت الصُّحبة ودامت، وإن فقدها فقَدَ من كان يتقرَّب منه لأجلها، ثم ابتسم وعاد للجلوس وقال: دعكما من الزهراء وما فيها فإني جائع، وقد تاقت نفسي للطعام معكما.

صفَّق محمد فإذا بأحد الغِلمان العاملين في الدار يقول: أمرك سيِّدي.

محمد: أعِدَّ لنا الطعام في الحال.

وما هي إلا لحظات حتى جاء الخدم يحملون صِحاف الطعام، فشمَّر محمد عن ساعديه وبدأ يأكل هو وأصحابه وهم يتضاحكون ويتسامرون ويتذكَّرون تلك الأيام الأولى لهم في قُرطُبة حينما ألجأتهم الحاجة إلى النوم في الطرقات بعد أن فشلوا في تأمين ولو غرفة يكتَرونها، ولم يُتموا حديثهم حتى طَرق عليهم الباب طارق، فهبَّ محمد ليفتح بنفسه هذه المرة، فإذا بزيْدون الخبَّاز هو الطارق.

محمد: أهلًا بك ومرحبًا، تفضَّل معنا، فقد طعِمنا معًا من قبل كثيرًا.

زيدون: الشكر لك يا أبا عامر، فإني لستُ بجائع ولا رغبة لي في الطعام.

أمسك محمد بمنديل فمسح الطعام من يده ثم جلس بعيدًا عن المائدة حيث يُكمل عمرو وابن المارعزي طعامهما، ثم صفَّق فحضر أحد الخدم...

محمد: أحضِر لنا بعض الشراب.

الخادم: أمرك سيِّدي.

انصرف الخادم ونظر محمد إلى زيدون الذي قال:

- لقد علمت وعلم كل أهل الربض ما وصلت إليه، ولقد سعِدنا بك، فأنت منا ونحن منك، وأنت تعرف ما نحن فيه من سطوة الصقالبة وتجبُّرهم علينا، حتى حضر إليَّ أحدهم منذ يومين وأخذ مني عنوة ما تعبت وتعب فيه غلماني من خبْز طوال اليوم بحُجَّة أنه يريده لإطعام من يعمل له في أرضه.

وفي تلك الأثناء كان عمرو وابن المارعزي قد انتهيا من طعامهما وجلسا مع محمد وزيْدون.

محمد: نعم يا زيْدون، أعلم أنهم يفعلون ذلك وأكثر.

بكى زيْدون وقال: لقد نهبوا مالي ففكَّرت في رفع شكوى ضدهم، ولكني خشيت بطْشَهم، فبكيت على حالي، ولكن صديقنا «مروان القماش» ذكر ما أنت فيه الآن فأردت أن تنصفني منهم.

صمت محمد لحظات بينما كان يترقَّب الجميع حديثه وينتظرون أن ينطق بما يريدون، ولم يطُل صمت محمد حتى تحرَّك ليعود بعد قليل وهو يحمل صُرَّة من الدنانير أعطاها لزيْدون قائلًا: استعِن بهذه على تعويض ما خسرت وما هلَك من مالك.

أمسك زيْدون صُرَّة الدنانير ثم نظر إلى محمد قائلًا: لم آتِ لطلب صدَقة.

محمد: هي ليست صدقة، ولكن اعتَبرها هديَّة من صديق قديم، أما الصقالبة فسوف يأتي اليوم الذي ننتصف منهم، وقل عسى أن يكون ذلك اليوم قريبًا.

صمت زيْدون هنيهة وكأنه لا يعرف ماذا يصنع أو يقول، فربَّت محمد على فخذه ونظر إليه نظرة فهِم زيْدون معناها، ثم نهض زيدون من مكانه وقال: أستأذنك يا سيِّدي.

محمد: ألا تجلس معنا لوقت أطول.

زيْدون: أشكر كرمك، ولكن يجب أن أنصرف الآن لأتدبَّر أمري.

انصرف زيدون، وما إن خرج حتى نظر محمد إلى صاحبيه وقال وهو يرفع يده: أعلم ما تريدون قولَه، ولكن..... ثم تنهَّد قائلًا: لست في ذلك

الموضع الذي يجعلني أتحدى الصقالبة أو أرفع ضدهم شكوى، فهم منْ هُم في البلاط، وأنا لا أريد أن أتصادم الآن معهم فأخسر كل شيء، ثم ما أنا إلا متولِّي أملاك ابن الخليفة، فلستُ أنا الحاجب أو صاحب الشرطة العُليا، فما أهون أن يستغنوا عني.

❀❀*❀❀

(3)

وقفت صُبْح تنظر إلى نفسها أمام المرآة وهي تُمسك بخصيلات شعرها تداعبها وتنظر إلى وجهها وهي ترتدي أجمل الثياب وكأنَّ خاطبًا جديدًا قد قدِم إليها، ثم قالت لوصيفتها «مرجانة» وهي تتحسس جسدها بيدها وتدور أمامها:

- هل أبدو جميلة؟
- بل أجمل نساء الأندلس إن لم تكوني أجمل نساء الدنيا يا سيِّدتي.

ابتسمت «صُبْح» لحظة ثم وجمت وقالت:

- لقد تأخَّر.
- لم يعتد الخليفة أن يأتي في مثل هذا الوقت من اليوم.
- لم أقصد الخليفة، ولكن «محمد بن أبي عامر».

تعجَّبت «مرجانة» قليلًا ثم قالت:

- وأيضًا هذا لم يعتد القدوم مبكرًا يا سيِّدتي.

تحرَّكت صُبْح ونظرت من شُرفة القصر المُطِل على حدائق الزهراء الجميلة وقالت في بعض الضجر: ربما هو كما تقولين.

ثم رنَتْ ببصرها مرة أخرى، فإذا بمحمد قادم وهو يحمل بيده بعض الدفاتر والأوراق فعادت صُبْح إلى مجلسها وكأنها لم تكن تترقب، فجاء أحد الفتيان الصقالبة وقال:

- محمد بن أبي عامر يا سيِّدتي.
- أدخِله.

أشارت «صُبْح» فدخل محمد وألقى التحية على السيدة «صُبْح» التي دقَّ قلبها بعنف وهي تراه أمامها، نظر محمد إلى الأرض ثم تقدَّم من السيدة «صُبْح» وأعطاها الدفتر وقال:

- في هذا الكتاب إحصاء دقيق لكل أملاك سيِّدي عبد الرحمن، وقد رأيت يا سيِّدتي أن نستبدل بعض المحاصيل التي تعوَّدنا على زراعتها، إذ يجب ألَّا نزرع نفس الرقعة بنفس المحصول لسنوات متتالية، فالأرض يا سيدتي تحب الجديد وتمَل من تكرار القديم.
- تتحدث عن الأرض وكأنها الرجل الذي يشتهي أنواعًا من الطعام.
- أجل، هي كذلك يا سيِّدتي، فكما نمَلُّ نحن من تكرار الطعام الواحد كذا الأرض تشتاق إلى الجديد.
- هل يعني ذلك صعوبة أن يتعلَّق الرجل بشيء واحد.
- بلى يا سيِّدتي، فهذا الأمير الداخل -رحمه الله- دخل الأندلس أميرًا عليها، ولكنها لم تعوِّضه الشام، فكان في كل أشعاره يذكر الشام ذِكر الإنسان لمعشوقته، فليست الأمور على مقياس واحد، وهذا عنترة بن شداد أخذ الكثير من النساء سبايا، ولكن حبَّه لعبلة لم يتبدَّل أو يتغير، بل إنه لم يتسرَّ بإحداهُنَّ.
- تعني بذلك أن الجديد ليس في أمور القلب؟
- القلب يا سيِّدتي لا ينسى أول نظرة وأول خفْقة أبدًا مهما مرَّ عليه من الجديد، فلا تُقاس حاجة القلوب بحاجة البطون أبدًا.

أخذت صُبْح نفَسًا عميقًا وقالت:

- وأنت، ألم تجد حاجة قلبك إلى الآن؟
- ليس كل ما يتمناه المرء يُدركه يا سيدتي.
- تعني أنك وجدت حاجة قلبك فلم تُدركها؟

- ليس كل ما نريده نأخذه يا سيدتى، على أني الآن مشغول فقط بعملي في أملاك سيدي عبد الرحمن وأرجو أن أُحسن فيها، فأنا محسوب عليك، وما أفعله الآن يرجِع فضله إليكم، فأنتم من اختارني لهذه المهمة.

❀❀✻❀❀

(4)

قرر محمد أن يقطع على نفسه كل هوًى ويُخضع هوى قلبه لعقله، فقد كان يعلم أن خواطر الفؤاد ليست دائمًا على صواب، وأن تحكيم العقل أفضل وأوضح.

أمَّا «صُبْح» فقد هامت في الفتى حبًّا وإن عاندت نفسها كثيرًا، فهي أيضًا كانت تتأرجح بين دينها الذي يرفض ذلك الحب العفيف وبين قلبها الذي يريده، فاجتهدت أن تبتعد عن محمد، ولكن كيف يكون ذلك يا صُبْح؟ وكان هذا هو السؤال المؤرِّق لها. آه يا صُبْح! لو أنه أتاكِ مبكِّرًا قبل الخليفة وقبل أن يدخل حياتك إنسان! ولكن منذ متى تتحقق الأماني والأحلام؟ وفي غرفة داخل القصر لم تُرفع ستائرها بعد، ولم توقد شموعها وفوانيسها، جلست «صُبْح» تتدبر أمرها وقد شحب وجهها وفارقتها الابتسامة والبهجة، وطال مكثها في تلك الغرفة وهي لا تتحرك وكأنها فقدت القدرة على الحركة وفقدت حب الحياة، وقد شلَّ تفكيرها أمر محمد حتى طال الوقت والصمت ولم يقطعه سوى دخول الجارية «مرجانة» التي تعجبت من أمر سيدتها، وتحركت صوب الستائر ترفعها، ونظرت إلى صُبْح وقالت:

- سيِّدتي، ما الأمر؟

رفعت «صُبْح» وجهها صوب مرجانة ولم تتحدث، فلاحظت مرجانة الدموع في عين سيدتها فاقتربت منها وقالت لها:

- هل أغضبك مولانا الخليفة؟

ما إن سمعت اسم الخليفة حتى أجهشت صُبْح في البكاء وقالت في نفسها:

- ليته أغضبني أو فعل شيئًا يجعلني أكرهه... ثم تمالكت نفسها وقالت:
- محمد بن أبي عامر.
- ما به يا سيِّدتي؟
- لا أريد رؤيته.
- إذن فلنأمر بصرْفِه عن أعمال سيدي عبد الرحمن ونُعيِّن غيره.
- لا، فهو لم يفعل ما يوجِب ذلك، ولكن فقط لا أريد رؤيته، لذا فإن قدِم إلينا اسمعي منه ما يجب عليَّ سماعه ثم انقليه إليَّ.

شعرت «مرجانة» بما يدور في خلد سيدتها فوافقتها عليه، بل وأرادت أن تقوِّي من عزيمة سيدتها، فقالت:

- نِعم ما صنعتِ يا سيدتي.

وجاهدت «صُبْح» نفسها كثيرًا، حتى إذا حلَّ الموعد وجاء محمد خرجت إليه مرجانة فقال لها:

- أين السيدة صُبْح؟
- إنها متوعكة بعض الشيء ولن تقدر على لقائك، فأخبرني أمرك وسأعرضه عليها.

تلعثم محمد وتعجَّب مما يسمع، ولكنه لم يستطع قول شيء، فقدَّم تقريره إلى مرجانة وانصرف على عجل وهو حزين النفس متوتر لا يعلم ما الذي غيَّر قلب السيدة عليه، في الوقت الذي كانت «صُبْح» تتلصص النظر إليه من خلف الستائر وتسمع صوته من خلف الجدران.

استمر الوضع هكذا عدة أيام، ذبُلت فيها «صُبْح» وفقدت بسْمتها وهي تحاول الابتعاد عن الفتى وتجاهد نفسها وقلبها الذي كان أقوى منها، فأمرها وأطاعت، وحكمَها فصدعت له وانهارت أمام رغباته ولم تستطع المقاومة، فخرجت بنفسها للقائه وهي كالطائر السجين في قفص وقد أُعطي حُريته.

أمَّا محمد، فقد كان كالتائه في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا طعام، وقد جفَّ حلقه وانقطع أمله، حتى إذا خرجت له وشاهدها تبدَّل حاله، وشعر

بالحياة بعد أن ظن أنه مشرف على الموت، وطال الحديث بينهما فانتعشت نفساهما وعادت السيدة صُبْح إلى الاهتمام بزينتها وارتداء أجمل ثيابها.

لاحظ كل من في القصر ذلك، فتهامسوا فيما بينهم وقد علموا أن الفتى قد سلَب سيدة القصر قلبها وهواها.

قررت «صُبْح» أن تكافئ الفتى وتعوِّضه تلك الأيام التي لم ترَه فيها، فاجتهدت في تزكيته أمام الخليفة والإشادة به والحديث عنه مع الخليفة، وكان الحَكَم يثق بها كثيرًا ويستمع لرأيها ويعرف جِدَّته لهذا، فقد انساق خلفها، حتى قرر تعيينه على دار السَّكَّة، ليبدأ «محمد بن أبي عامر» خطوته الثانية في الصعود إلى القمة والسير نحو هدفه، ليعتاد مع هذا المنصب الجديد الدخول على الخليفة، فقد أضحى من رجالات الدولة، ورغم كونه وزيرًا عند الحَكَم فإنه تمسَّك بإدارة أموال عبد الرحمن؛ ذلك لكي لا ينقطع عن تلك السيدة التي كانت سببًا في تولِّيهِ دار السَّكَّة.

❀❀✻❀❀

(5)

بابتسامة كبيرة وبمظهره الجميل دومًا وقف محمد وهو يقول مرحِّبًا بأصحابه: تفضَّلوا تفضَّلوا.

دخل عمرو وابن المارعزي وهما ينظران هنا وهناك، فالدار جميلة واسعة وبها بهوٌ كبير وغرف كثيرة وبعض الخدم يتناوبون على الخدمة، فلمَّا جلسوا قال عمرو: منزلٌ يليق بالوزير محمد بن أبي عامر.

ابن المارعزي: الدار جميلة ومتَّسعة، ولكن لماذا الرصافة يا ابن أبي عامر؟

أخذ محمد نفسًا عميقًا، ثم نهض من مكانه وتحرَّك صوب النافذة المطِلَّة على الحديقة وقال: ليكون بيتي أمام قصر الداخل. ثم عاد وجلس مكانه وقال: والآن سيكون لكلٍّ منكما عمل في خطة دار السَّكَّة، وأما داري القديمة فستكون لكما تسكنان فيها.

عمرو ضاحكًا: كنَّا نظن أننا سنمكث معك هنا.

محمد: لا، ولكن ربما تحضرون يومًا للطعام والشراب وضيوفًا كرامًا.

ابن المارعزي: إني والله لأشتمُّ ريحَ خبرٍ جميل.

محمد: أجل، فقد قررت الزواج.

عمرو: الزواج! ومن تكون العروس؟

محمد: ستعرف قريبًا، والآن، هيا إلى الطعام.

انتصف الليل وخرج عمرو وابن المارعزي من دار محمد وقد علم كل منهما وظيفته الجديدة، أما محمد، فقد دخل إلى سريره ونام على ظهره وراح يحملق في سقف الغرفة وهو يفكر في تلك الفتاة التي رآها منذ فترة، وبعد تفكير قرر أن يتزوجها، فهي جميلة جديرة بأن تكون زوجته، وهي أيضًا ابنة رئيس حرس الخليفة، ما يعني أنه زواج وفائدة في ذات الوقت، أجل يا محمد، إنه ذلك الزواج الذي سيقطع تلك الألسنة التي بدأت تتحدث عن شيء ما بينك وبين السيدة صُبْح.

وما هي إلا أيام حتى تقدَّم محمد وخطب «الذلفاء» التي كانت هي أيضًا معجبة به وتحبُّه منذ إنقاذه إياها، ومنْ في كل الزهراء لا يُعجب بفتى الأندلس؟ ذلك الشاب الذي استطاع أن يكسب قلوب الجميع، حتى الحاجب «المصحفي» لم يكن يكره محمدًا إلا لكراهية ابنه له، ولكن محمدًا كان يُظهر دائمًا الود والحب للحاجب وأهله.

وحزنت صُبْح كثيرًا لمَّا علمت خبر زواج محمد من الذلفاء، ولكنها عادت إلى عقلها، فهي تعلم أن حبها لا طائل من خلفه، فلماذا لا يتحوَّل إلى ودٍّ بريء؟ وغالبت صُبْح ما يجيش في قلبها وباركت لمحمد زواجه وأهدته بعض الحُلِيِّ إلى الذلفاء.

وتمَّ الزواج على عَجَل، وفي أول يوم له بعد زواجه استيقظ أبو عامر مبكرًا كعادته ونظر إلى الذلفاء بجواره، فرآها نائمة مطمئنة تتقلَّب في سريرها، وما إن نهض حتى استيقظت، فعاد إلى جوارها وقبَّل جبينها وقال:

- يجب عليَّ أن أذهب لمتابعة أعمالي.

- كنتُ أظن أنك ستمكث معي هذا اليوم.
- من يتولَّى شيئًا من أمور الدولة لا يعرف للراحة مكانًا أو زمانًا.

نهضت الذلفاء واحتضنت محمدًا وقالت:

- وأنا لن أشغلك عن معالي الأمور، بل ستجدني كما أردت وكما أحببت.
- نِعمَ الزوجة يا ذلفاء.
- من تتزوج ابن أبي عامر يجب أن تكون له كما أراد.

ثم تحرَّكت تجهِّز له ثيابه وتساعده في ارتدائها، وما إنْ لفَّ عمامته حتى احتضنته من الخلف وقالت:

- كيف حال السيدة «صُبْح»؟
- إنها تتابع معي أملاك ولدها عبد الرحمن.
- لم أقصد ذلك، ولكني قصدت كيف تجدها بين النساء؟
- امرأة ككل النساء يا «ذلفاء»
- لكن الجميع يقولون غير ذلك.
- ماذا يقولون؟
- يُشيدون بجمالها وحُسن طلعتها ورجاحة عقلها.
- لم أدقق النظر، ولم أرَ فيها شيئًا مختلفًا.
- لقد سمعت الكثير عنها في الزهراء، وسمعت بكثرة مخالطتك لها.
- إنه العمل يا حبيبتي، فهل تغارين من الآن؟
- وأغار من قبل أن أتزوجك.
- ممم! حقًّا؟!
- أجل يا محمد، فقد كنت أذهب كثيرًا إلى هناك، ليس لشيء إلا أن أراك، ولكن اطمئن، فلست تلك المرأة التي تغلغل يد زوجها وتقف دون غاياته، بل ستجدني أساعدك على بلوغها، وإني لأعلم تأثير النساء على الرجال.

- وأنا أحبك يا ذلفاء، فأنتِ المرأة الوحيدة التي تعلَّق بها قلبي فلم يستطع صبرًا على فراقها.

ثم قبَّل يديها، وما إن تركها حتى ابتعدت قليلًا واتجهت صوب النافذة المُطلَّة على الرصافة، ثم قالت بعد تردد:

- لا تبخل على السيدة «صُبْح» ببعض الكلمات الجميلة، فأنا أعلم كوني امرأة مثلها وقع تلك الكلمات على القلوب، فالنساء يحببن ذلك الكلام الجميل ولا بأس أيضًا ببعض الهدايا الجميلة، فالمرأة تميل إلى من يهاديها.
- ما كنت أظن أنك تقولين هذا.
- أنا أعلم قدر نفسي جيدًا عندك، وأعلم أخلاقك ودينك، وأعلم أن لك مبتغًى وهدفًا يجب أن أكون سندك وعونك لتحقيقه.

❀❀✻❀❀

(6)

منذ أن تولَّى دار السَّكَّة عمل أبو عامر على اجتذاب الكبراء والوزراء ووجوه الناس، يُغدِق على الجميع ويَصِلهم، وخصوصًا رؤوس العرب من قيسية ويمانية في الأندلس، فكانت داره مفتوحة للضيوف دائمًا، مائدته مُعدَّة لكل طارئ، كل ذلك خلق من حوله جوًّا من الإعجاب والأصحاب والأنصار.

ولأنه كان يعلم أن الهدايا تخطف قلوب النساء، وأنَّهن يحببن من يهتم بهنَّ، فقد دأب على تقديم الهدايا والتُّحف لكل نساء قصر الخلافة، فضلًا عن السيدة «صُبْح» التي كان يخُصُّها بأجمل وألطف الهدايا، ولأنه كان يعلم أن قلوب النساء تُفتح من الأذن، فقد شمل بظريف وجميل كلامه كل جواري القصر وذلك ليذْكُرنه بخير أمام السيدة «صُبْح».

وفي صباح أحد الأيام تقدَّم محمد إلى الزهراء وخلفه أربعة من الصقالبة يحملون مجسَّمًا لقصر بديع من الفضة الخالصة، وقد لفت القصر كل أهل

الزهراء، فذهبوا ينظرون إليه، حتى إذا دخل محمد إلى حيث السيدة صُبْح قال:

- سيدتي.

ثم أشار للفتيان فوضعوا القصر على منضدة كبيرة وسط الجناح، فنظرت صُبْح إليه مشدوهة وقالت:

- ما هذا يا محمد؟

- إنه أقل شيء يمكن أن أقدمه لك.

تلمَّست صُبْح الفضة بيدها والابتسامة تعلو وجهها، بينما الوصيفات قد أُخِذنَ بجمال القصر وروعته، ثم قالت:

- إنه لشيء جميل.

- لو استطعت أن أقطف لك نجمة من السماء لفعلت، ولكن ماذا تفعل النجمة في حضور القمر؟

- إنك تبالغ في كل شيء.

- لا، بل أعطي الأمور حقَّها.

- أنت من تقول ذلك مع قوة حُجتك وبلاغة منطقك؟

- هناك أمور يعجز الإنسان عن وصْفها مع محاولة العين والقلب البوح، ولكن لا يجد اللسان ما يناسب ليقوله فيلتزم الصمت.

- الصمت!

- وأحيانًا يكون الصمت نفسه وسيلة للإيصال والتبليغ.

وكان الفتى «جؤذر» يقف على باب الجناح مشاهدًا، وقد أزعجه ما يقوم به محمد، فتحرَّك صوب صاحبه «فائق» وجلس معه وقال:

- ما زال هذا الفتى يُغدق على أم ولد الخليفة حتى سلبَها عقلها.

- لم يسلبها عقلها هي فقط، بل كل نساء القصر.

- لكن من أين له بتلك الأموال؟

- وهل هذا سؤال؟ ربما لا تعلم أنه مسؤول عن دار السَّكَّة، ما يعني أن كل أموال الدولة تحت يده.
- أيُعقل أن يفعل هذا؟!
- ولمَ لا؟ فمن يحاسبه؟
- الخليفة.
- لكن الخليفة يثق به، وإلا ما جعله عليها.
- إذن يجب علينا إخبار الخليفة ما يدور في رؤوسنا، فوالله ما بلغ أحد من قبل هذا المبلغ وبهذه السرعة إلا وكانت له خُطط يريدها ويدبِّرها، كاتب الرِّقَاع يصل إلى الوزارة في شهور معدودة ثم يطمح للمزيد!

❀❀✻❀❀

لم يكن الخليفة الحَكَم بمن يسمح لأحد بالاختلاس من أموال الدولة، لذا فما إن قال له «فائق» و«جؤذر» ما قالاه حتى أمر بإحصاء أموال دار السَّكَّة وتقديم دفاترها ومراجعتها.

شعر محمد بالخطر الداهم يتهدَّده، فهو كان قد أخذ من أموال دار السَّكَّة الكثير، وكان يعوِّل على رد تلك الأموال ولكن مع نهاية العام، أما الآن، فهذا الإحصاء سيبين اختلاسه وتكون الطامة الكبرى.

كاد عقله أن يذهب من التفكير وهو يتخيل ذلك المصير المرعب الذي سيكون فيه وقد ضاعت آماله وأحلامه وذهبت أدراج الرياح، فتبدَّل حاله وغاصت ضحكته واعتلاه همٌّ عظيم، فذهب عنه النوم وقُضَّ مضجعه والتزم الصمت.

لاحظت الذلفاء قلق وتوتر زوجها الذي لم ينم ولم يبتسم، بل ظل ساهرًا يتقلَّب كما يتقلَّب القِدر على النار وهي تنظر إليه بين الفينة والأخرى علَّه يتحدث إليها، ولكن دون جدوى، عندها قررت أن تقطع هذا الصمت وتشارك زوجها حيرته وقلقه وسهره، فاقتربت منه وقالت:

- لماذا أراك هكذا؟ فمنذ أن عدت إلى الدار لم تنطق بكلمة.

- لا شيء.

- بل هناك شيء عظيم أهمَّك، فلِمَ لا تشاركني وأنت تعلم عقلي؟ ومن يدري؟!

تنهَّد محمد وانتصب وكان مسترخيًا وقال:

- لقد أمر الخليفة بإحصاء أموال دار السَّكَّة ومراجعة دفاترها.

- هل مال دار السَّكَّة ناقص يا محمد؟

- أجل، وإلا فمن أين لي بكل تلك الهدايا التي أقدمها للسيدة صُبْح والمال الذي أُغدقه على بعضهم.

- كيف لك أن تفعل دون أن تؤمِّن نفسك؟

- كنت سأسوِّي الأمر بنهاية العام، وكل شيء كان مُرتَّبًا ومبنيًّا على ذلك.

- إن كان عجزًا وكنت تعرف كم أنفقت منه، فلمَ لا تذهب إلى صاحبك الوزير «ابن حدير» وتقترض منه ما أنفقت، فلعمْري لن يتوانى هذا الرجل عن مساعدتك وأنت من أنت عنده ولك صُحبة قديمة معه.

هبَّ محمد واقفًا وقد انفرجت أساريره ووقفت الذلفاء، فاقترب منها محمد وأمسك بذراعيها وقال:

- كيف لم أفكِّر في هذا من قبل، أجل والله، لن يخرجني مما أنا فيه سوى ابن حدير، فلا حرمني الله رأيك وعقلك.

- إذن لا تتأخر واخرج إلى الرجل الآن.

- الآن؟!

- لا يصح لك أن تتأخر حتى يدبر لك الرجل حاجتك.

هزَّ محمد رأسه ثم نهض من فوره وارتدى ثيابه وخرج من بيته قاصدًا منزل الوزير «ابن حدير» الذي تلقَّاه وعانقه وقال له:

- لم يأتِ الوزير «أبو عامر» إلينا في هذا الوقت إلا لأمرٍ جلل.

- هو كذلك يا سيِّدي، وأرجو أن تقضي لي حاجتي، فوالله ليس لها غيرك.

- كل ما تريده مقضيٌّ إن شاء الله.

وما هي إلا بضع ساعات حتى خرج محمد من دار الوزير «ابن حدير» وخلفه بعض الغلمان يحملون أكياسًا من الدنانير توجهوا بها صوب دار السَّكَّة، حتى إذا جاء من يحصي الأموال وجدَها كما هي لم تنقص دينارًا واحدًا.

❀❀*❀❀

(7)

كان محمد يجلس في داره وبجواره «الذلفاء» وأمامهما طبق كبير من أنواع الفاكهة، أمسك محمد بعنقود من العنب وأخذ يأكل منه، بينما الذلفاء تنمِّق أظفار يديها، وبعد أن مرَّ بعض الوقت طرق الباب طارق فتحرَّك بعض الخَدَم وفتح الباب، ثم عاد إلى سيِّده وقال:

- إنه ابن عمكم يا سيِّدي.
- أدخِله فورًا.

دخل عمرو وخلفه زوجته وهي تحمل رضيعًا على يديها.

جلس عمرو بجوار محمد وجلست زوجته بجوار الذلفاء، ثم تحدَّث عمرو فقال:

- لقد مرَّ وقت طويل منذ زيارتنا الأخيرة، فأردت أن أكرِّرها لأراك بعيدًا عن خطة الوزارة والعمل.
- خيرًا فعلت، فأنا أيضًا اشتقت لحديثي معك بعيدًا عن أمور الوزارة وشئونها.

أما الذلفاء، فنظرت إلى الرضيع وقد أخذ قلبها فقالت:

- ما اسمه؟
- أسماه أبوه «محمدًا» تيمُّنًا بالوزير محمد بن أبي عامر.

عمرو: إنه ليس ابن عمي فقط، ولكنه أحبُّ الناس إلى قلبي.

الذلفاء: أعطِنيه، أريد أن أحمله.

أخذت الذلفاء الرضيع وحملته في سعادة غامرة، غير أنها نظرت إلى محمد فشعرت بشيء من الضيق، فردَّت الرضيع إلى أمه وقامت لتدخل غرفتها، فنهضت زوجة عمرو خلفها ليظلَّ محمد وعمرو بمفردهما.

- أهو أمر الذرية وتأخر الإنجاب.
- وما غيره!
- إذن لماذا لا تتزوج غيرها.
- تقول ذلك وأنت هنا في بيتها؟!
- بل في دارك وبيتك، ولا أقول ذلك بخسًا فيها، فهي والله من أفاضل النساء، ولكن رأفة بك وبها.
- هي أيضًا تقول لي ذلك.
- فلمَ لا تفعل؟
- هي تقول ذلك لأرفض فيكون الرفض مني، فلن أفعل يا عمرو فلست الآن في سِعة من أمري لأصنع هذا.

ضحك عمرو وقال مازحًا:

- هل تعوزك الحاجة فأُقرضك؟
- ليس المال ما أقصد، ولكن لي غاية بعيدة لا أريدها أن تتعطل أو يمنعني عنها مانع.
- إذن فقد قبِلت هديتي!
- أيُّ هدية؟!
- والله قد كنت اليوم في دار المدنيات ووقعت عيني على إحدى الجواري فابتعتها من أجلك، فهي هديتي لك.

صمت محمد ولم يتحدَّث، فابتسم عمرو وقام إلى الشراب فصبَّ كوبين أعطى محمدًا أحدهما وشرب هو الآخر.

وفي مساء اليوم التالي كانت الجارية تقف أمام دار «محمد بن أبي عامر» الذي أمر بدخولها، وما إن دخلت حتى نظرت إليها «الذلفاء» وقالت:

- من هذه؟

- إنها جارية أُهدِيَت إليَّ.

شعر محمد أن الذلفاء قد انزعجت وانتابها الحزن، ورأى فيها الغَيرة التي لم يعهدها من قبل، فاحتضنها قائلًا:

- لقد طلبتِ مني كثيرًا أن أتزوج وقد رفضت وأرفض ذلك، وما هذه إلا وعاء نأخذ منه ما نريد.

- أوَتظن يا محمد أني أغار من جارية؟

- أليست امرأة على كل حال؟

- بلى، ولكني «الذلفاء» التي تعرف قدر نفسها، وتعرف أيضًا قدر زوجها، فليس كل الرجال مثلك.

هزَّ محمد رأسه وعلم مقصِدها فقال:

- وليست كل النساء «الذلفاء» فأنت عندي كغير النساء وككل النساء.

غالبت «الذلفاء» دموعها وحبستها في مقلتيها، وقالت لمحمد:

- طابت ليلتك يا أبا عامر.

قالت ذلك ثم انصرفت ودخلت غرفتها، وما إن أغلقت عليها بابها حتى أجهشت بالبكاء وانهارت تلك الكبرياء التي كانت تتَّشِح بها.

❀❀✻❀❀

(8)

- لم يكد يدخل القصر حتى سلب لُبَّها، فصعدت به إلى سُلم الوزارة في أشهر معدودة.

- صهٍ! أتريد أن تُهلكنا بهذا القول؟

- ومَنْ في قُرطُبة كلها لا يتحدث بهذا الحديث؟ فقد صار حديث العامة والخاصة، بل لقد قيل فيهم الشعر، كل هذا وهذا الدعِيُّ يرتقي ويصعد لا يوقفه أحد.

نهض الحاجب وكان جالسًا في إيوان داره وأمسك بتلابيب ابنه وقال:

- وإن قيل ألف بيت من الشعر فلا تسمعه، وصُم أذنك عنه، فهذا الأمر يُهلك من قال ومن سمع ولا ينجو منه إلا من تغافل عنه، فإياك أن تُهلِكنا برعونتك.
- لكن يا أبي إلى متى؟
- فليرتقِ ما يرتقي، فما دام أبوك هو الحاجب فلا ضير عليك، فاصمت وتابع عملك في إدارة شئون قُرطُبة ولا تقصِّر، ولا تجعل لأحد عليك سبيلًا.

❀❀✻❀❀

بينما كانت «شمس» تعاني من ألم المخاض، كانت الذلفاء تعاني ألمَ عدم القدرة على الإنجاب، فكانت كل صرخة تصرخها شمس تنزل كالسوط الحامي على أُذن الذلفاء التي أغلقت عليها بابها وتركت «شمس» تحت وطأة صراخها، وما هي إلا ساعات حتى وضعت وليدها الذي تلقَّفه محمد بلهفة شديدة، فأخيرًا أصبح له ولد، وبينما لم تملك كل قوَّتها بعد، فقد أنهكتها الولادة وآلامها، إلا أنها نظرت إليه وقالت:

- هل تراه يشبهك؟
- لا يظهر الشَّبه في مثل هذا العمر، ولكن من يدري؟
- أدعو الله أن يكون شبَهك ومثيلك وامتدادك.
- آمين.
- هل اخترت له اسمًا يا سيِّدي؟
- أجل، سأسميه على اسم أبي رحمه الله.

- عبد الله؟

- أجل، سيكون اسمه عبد الله.

قال ذلك ثم مدَّ يده فحمل الطفل على يديه، وما إن فعل حتى تغيَّر حاله قليلًا وذهبت تلك الفرحة من وجهه وراح يدقِّق النظر في وجه الوليد وجسده وهو لا يصدق نفسه، فقد كان الوليد ضخم الجثة لا يُنبئ عن ابن سبعة أشهر أبدًا فقال متعجبًا:

- وليد سبعة أشهر ويكون بمثل هذا الحجم!

- ولمَ التعجُّب، فليس كل الأطفال سواء.

- لكن... لا شيء لا شيء.

ثم تركها في حجرتها وخرج إلى بهو المنزل حيث السعة ونافورة المياه، فجلس في مكانٍ بعينه وهو يفكر في هذا الرضيع، وقد ساورته الشكوك في كون هذا الطفل ابنه أم لا، فلربما لم تكن الجارية قد استبرأت وقت أن دخل عليها، فشكَّ في بنوَّة الطفل، ولكنه لم يُفصِح بما يدور في رأسه، ولكن تغيَّر حاله واختلف مِزاجه وأصبح كثير الصمت والتفكير.

وبعد أيام عمَد إلى أحد الأطباء ودعاه إلى الدار ليتناول معه الطعام، وبعد أن فرَغا، حمل ابن أبي عامر ابنه إلى الطبيب، وقال له:

- كم عمر هذا الرضيع؟

- لا أعلم على وجه التحديد، ربما شهران.

- هل يولد أطفال على سبعة أشهر بمثل هذا الوزن؟

- يستحيل ذلك يا أبا عامر، فيجب أن يكون هذا قد اكتمل في بطن أمه تسعة أشهر لا ينقصها يوم واحد.

نزل هذا الكلام على أبي عامر فألجمَهُ الصمت ولم يتحدث، ثم نهض الطبيب واستأذن في الخروج، فأذِن له وعاد إلى مجلسه وحيدًا حائرًا لا يدري ماذا يصنع أو ماذا يقول، فهل يعمَد إلى شمس فيخبرها؟! وماذا عن الرضيع فهل يتبرَّأ منه؟ فإن هو فعل سيكون حديث قُرطُبة كلها ويشمت فيه

الشامتون، فماذا يفعل؟ كان هذا السؤال مؤرِّقًا لمحمد أكثر من أي شيء آخر، فمكث ليلته تلك على أريكته لا يتحرك، حتى إذا أقبل الصباح ذهب إلى متابعة عمله، ولمَّا عاد إلى المنزل جلس بجوار الذلفاء التي قالت له:

- هل ذهب الرضيع بتلك الابتسامة يا محمد، أم تضِن بها عليَّ؟

تنهَّد محمد وأغمض عينيه للحظات، ثم فتحهما ونظر إلى الذلفاء وقال:

- إنه ليس ابني.
- كيف تقول ذلك؟
- أما نظرتِ إلى حجمه ووزنه؟ كيف يكون هذا ابن سبعة أشهر؟
- لا تستطيع الجزم بذلك.
- ولا أستطيع الجزم بعكسه، فماذا أفعل؟
- هوِّن عليك.
- كيف ذلك وأنا هنا كالعاجز عن فِعل أي شيء.
- ليست الأطفال تولد بوزن واحد، ومن يدري.
- لا يا ذلفاء، لقد وقع في قلبي أنه ليس ابني.
- فماذا أنت بفاعل؟
- لقد ابتعت دارًا في أحد أرباض قُرطُبة تسكن فيه شمس.
- والرضيع؟
- ما إن يُتم عامه الثاني حتى آخذه منها فلا سبيل غير ذلك، فقد وقع القول، فلا برهان لي عليها، ولكن لا أقرَبها ولا أراها بعد اليوم.

❀❀✻❀❀

(9)

كان الحَكَم المستنصر يقلِّب في أوراقٍ موضوعة على مائدة كبيرة أمامه، وتظهر تلك الأوراق على هيئة رسائل أو كُتب معينة، وكان الفتى «فائق» يقف بالقرب منه والإيوان خالٍ إلا من الحرس الخليفي فقط، نظر الحَكَم إلى الفتى «فائق» وقال:

- هل أرسلتم في طلب محمد بن أبي عامر.

- أجل يا سيِّدي.

هزَّ الحَكَم رأسه وتابع عمله، حتى إذا مرَّ بعض الوقت حضر محمد بن أبي عامر وهو متوجِّس النفس مضطرب لا يعلم ماذا يريد منه الخليفة، إذ إنَّ آخر مرة طلبه فيها كان من أجل إحصاء أموال دار السَّكَّة، لهذا فقد كانت ضربات قلب الفتى تخفق بقوة، وما إن حضر حتى نزل على يد الخليفة يقبِّلها وهو يقول:

- طلبتني يا سيِّدي.

- اجلس يا محمد.

اطمأن محمد قليلًا بطلب الخليفة منه الجلوس، ولكنه ظل قلقًا ومترقِّبًا.

أمسك الخليفة بكتاب وقال:

- لقد أخبرتنا أم ولدنا عبد الرحمن أن خَراج أملاكِه قد تضاعف تحت يدك، كما أن دار السَّكَّة ودار الخزانة قد أحكمت عليهما يدك، لهذا فقد أوكلت إليك خطة المواريث بجانب عملك في دار السَّكَّة والخزانة.

ابتلع محمد ريقه وانفرجت أساريره وانحلت عقدة لسانه الخائف فقال:

- كما يأمر مولاي، فأنا طوْعُ بنَانِه.

- والآن اذهب يا محمد فتابع أعمالك.

تقدَّم محمد صوب الخليفة فلَثَمَ يده وشكر له ثقته، ثم قال له:

- سيِّدي، أتأذن لي أن أحتفظ بتعهُّد أملاك سيِّدي عبد الرحمن؟ فوالله إنها لمكْرُمة كبيرة وثِقة عظيمة لا أريد أن أتركها أبدًا.
- تستطيع الجمع بين جميع أعمالك.
- وسأكون دائمًا عند حُسن ظنِّك يا سيِّدي.

ثم انطلق محمد وقد شعر أن أبواب الزهراء قد فُتحت له جميعها، وأنه بات ينتقل من خطة إلى خطة أكبر منها، حتى إذا دخل دار السَّكَّة اقترب منه عمرو الذي لاحظ البِشر في وجهه فقال:

- لم يكن حالك هكذا عندما طلبك الخليفة.
- لقد وُلِّيت خطة المواريث مع احتفاظي بما كان لي من قبل.
- اسمع يا محمد، أنا لا أشك أبدًا أنك ستصل إلى غايتك، ولكن احذر يا ابن عمي، فقد بدأت الألسنة تتحدث عنك وبقوة.
- لم يظهر لي أي حاقد أو حاسد من كبراء الزهراء.
- لم يصعد أحد مثل صعودك السريع إلا وقعد له الحُسَّاد والحاقدون، يقولون حديث عهد بالوزارة ومخالطة الكبراء ثم يصعد هذا الصعود ولا ظهير له يستند إليه! ثم يخشون على مكانتهم منك، فمثلك يهدِّد الجميع.
- وقد حدث ذلك يا عمرو عندما وشَوَا بي إلى الخليفة في أمر دار السَّكَّة فنجاني الله منها.
- وهؤلاء لن يتركوك أبدًا وهم عُصبة كبيرة.
- أداريهم وأصانعهم إلى أن يتم لي ما أريد.
- تتخذ من التقيَّة رداءً لك؟!
- وما المشكلة في ذلك إن كان لي غاية بعيدة لن أصلها إلا بالمُدارة والمُصانعة، والحرب خُدعة، وأنا في حرب ولا أملك أسلحة إلا هذا.
- وماذا عن زوجة الخليفة وأم ولده؟
- معاذ الله أن أخون ولِيَّ نِعمتي.

- ولكن الألسنة بدأت تلوك تلك العلاقة وإن كانت طاهرة كما تقول.
- هل تشك في ديني يا عمرو؟
- قطعًا لا، ولكن لنتَّقِ الشبهات.
- لكن أم ولد الخليفة تطوِّقني بعطفها، ولولاها ما بلغتُ ما بلغتُ، وأنت تعلم تأثير النساء على الرجال، على أني أشهد أنها امرأة عفيفة، لم تتطرَّق يومًا معي إلى حديث لا يليق.
- ألا تراجع نفسك وتترك ولاية أمور الأمير عبد الرحمن؟!
- لا أترك أمرًا سيبلغني يومًا غايتي.

❀❀✻❀❀

(10)

كانت «شمس» تعيش في كنف أبي عامر ومعها طفلها، وقد علمت أنَّ محمدًا يشك في بنوَّتِه فعاشت أيامًا كئيبة، ولكنها لم تحاول قط رفع الظلم عن نفسها أو حتى محاولة التقرُّب من محمد، فقد اكتفت منه بالنفقة وظلمه لها، أمَّا «الذلفاء» فأخيرًا وضعت يديها على بطنها بعد أن شعرت بحركة تدبُّ في أحشائها، فلم تمكث أن أخبرت محمدًا الذي كاد أن يطير من الفرح، فأخيرًا سيُرزق بولد ومِن مَن؟ من الذلفاء التي يحبُّها ويُجِلُّها.

ومرت الأيام وولدت «الذلفاء» وفرِح محمد أيَّما فرح بمولوده الأول، وكانت «الذلفاء» تنظر إليه والعرق يتصبب منها وألم الولادة لم يفارقها وهي سعيدة لسعادة محمد الذي حمل الطفل بين يديه وتحرَّك به في الغرفة قبل أن يجلس مرة أخرى بجوارها ويقول:

- سيكون اسمه عبد الملك، على اسم جدنا الأكبر عبد الملك المعافري، ذلك الرجل الذي دخل مع طارق بن زياد فكانت له اليد العليا في فتح قرطاجنة.
- وتريده أن يكون مثل جدِّه؟

- ولمَ لا، فنحن آل عامر سيكون لنا ما يكون في الأندلس.
- على أني يا «أبا عامر» لا أريد مع حبِّك لعبد الملك أن تظلم عبد الله.
- «عبد الله» ليس ولدي.
- ليس عندك دليل دامغ على ذلك.
- قلبي يحدِّثني بذلك، وكذا كل الأدلة تبرهِن على ذلك.
- الشك يا محمد يذهب لصالح المتهم لا ضده، ثم ما ذنب هذا الصغير؟
- وماذا أفعل والحب والكره ليس بيدي.
- لا تظلمه.

تنهَّد محمد وقال:

- دعكِ من هذا الآن.

ثم وقف ودار حول سريرها وقال:

- يجب أن يكون مولد «عبد الملك» فرصة سانحة للتقرُّب من البعض.
- افعل ما يحلو لك.
- أجل سأفعل.

وفي اليوم الثاني لمولد «عبد الملك» أُقيمت الولائم، وكان حقًّا عليه أن يفعل، فهو الوزير صاحب دار الخزانة والسَّكَّة وخطة المواريث ومتعهِّد أموال الأمير «عبد الرحمن» فكيف لا يستغل ذلك في التقرُّب من رؤوس القوم؟

فأقام مأدبة كبيرة في بيته بالرصافة وجمع فيها الوزراء والشعراء وكبار القيسية واليمانية، وكان غرضه من ذلك جذب قلوب الناس وتأليفهم، فالناس دائمًا تحب من يكرمها ويتودَّد إليها، وكان محمد يخدم الناس بنفسه، وبينما القوم جلوس إذ بالعرَّاف وزعيم المنجِّمين يدخل على الوزير أبي عامر فينهض له محمد، وكان لا يحب أن يطرد أحدًا من بيته مهما كانت هيئته، بل قال له:

- أهلًا بك ومرحبًا.

جلس العرَّاف وبدأ يأكل بطريقة عجيبة والجميع ينظرون إليه ويتعجَّبون، كيف للوزير أن يسمح له بالأكل على مائدته وكان حريًّا به أن يُخرجه، أو يُطعمه، ولكن ليس هنا، بل ربما في الحديقة أو مع الخدم؟

لاحظ العرَّاف نظرات الناس إليه فلم يعبأ بها وتابع نهَمَه في الأكل، حتى إذا انتهى استند إلى عصاه ونهض واقفًا وقال:

- لم آتِ إلى هنا لأنظر إلى تلك الوجوه، ولكن لأبلغكم ما يجول بداخلي عن هذا الوليد «عبد الملك بن محمد بن أبي عامر»، فوالله لم يُولد قط بالأندلس مولودٌ أسعد منه على أبيه وعلى نفسه وعلى حاشيته، وعلى كل أهل الأندلس وعلى أرضها قاطبة، فضلًا عن ناسها، وإنها لا تزال كذلك حال حياته، وإذا هلك فما أراها إلا بالضد.

نظر محمد إلى كبير العرَّافين وكذا باقي الحضور وقال:

- وما الذي سيحدث بعد وفاته؟

- ستكون فتنة كبيرة، ستكون فتنة كبيرة.

وظل يردد هذه الكلمة حتى خرج والكل مشدوهٌ لمَا يقول.

❀❀✻❀❀

(11)

خرج الخليفة كعادته كل يوم فصلَّى الفجر في مسجد الزهراء الجامع، ثم ذهب إلى المكتبة الأموية يطالع جديدها. أما «صُبْح» فقد كان الكسل مسيطرًا عليها، فظلت تتقلب يمينًا ويسارًا حتى طلعت الشمس.

تحسست صُبْح سريرها وفراشها وهي تتعجب من نوم الطفل كل هذا الوقت على غير عادته، ثم نظرت إلى سقف الغرفة وهي ما تزال نائمة تستمتع بهذا الكسل العجيب الذي انتابها، وظلت على هذه الحال ساعة، ثم نهضت متكاسلة وتحركت للاطمئنان على الرضيع، فوجدته لا يتحرك، فظنت أنه ما زال نائمًا، فتحدثت هامسة وقالت:

- هل شعرت بجسد أمك المتعب فأردت أن تتركها نائمة مستمتعة في سريرها؟ عبد الرحمن، قم يا صغيري، فقد طلعت الشمس ولمَّا تأكل بعد.

هزت سريره لتوقظه فلم يتحرك، فمدَّت يدها وحملته فإذا به قد فارق الحياة، جزعت «صُبْح» وصرخت وأجشهت في البكاء وهي لا تكاد تصدق ما حدث، واجتمع كل نساء القصر والفتيان الصقالبة والجميع في ذهول وحزن، وابيضت الزهراء حزنًا على الرضيع، وسالت دموع الحَكَم وهو يرى وفاة وحيده الذي رُزق به على كبر، وشعر باليأس يدبُّ في أوصاله، واهتزت قُرطُبة كلها لموت عبد الرحمن، وانقطعت بمحمد بن أبي عامر الأسباب، فقد مات من كان يتولَّى أملاكه وكان السبب الأول في ولُوجِه الزهراء وراح يحدِّث نفسه ويقول: أجل يا محمد، فقد بلغت الوزارة، ولكن بموت عبد الرحمن لن يكون لك سبيل إلى أم ولد الخليفة وستفقد بذلك عونها ودعمها. ومع حزن محمد كان هناك في الزهراء من يرقص فرحًا، ذلك هو «محمد بن المصحفي» الذي شمت في «محمد بن أبي عامر» حتى قال له وهو سائر في بعض حدائق الزهراء:

- هل أُعزِّي الخليفة أم أعزِّيك؟
- هو مصابنا جميعًا، رحمه الله.
- بل مصابك فيه كبير يا أبا عامر، فقد كان سبيلك إلى ما هو أبعد من الوزارة، فبه دخلت الزهراء واختلطتَ بالكبراء وتولَّيت الوزارة، وما كان لك أن تفعل لولا أم ولد الخليفة، فأرِنا الآن صنعتك.
- أجل، إن مُصابي فيه كبير، ولكنها الأقدار تفعل ما تشاء، فتضع في طريقك من يكون سببًا في صعودك، أو تضع في طريقك من يكون سببًا في شقائك.
- أحسنت يا كاتب الرِّقَاع.

قالها ثم ضحك ساخرًا وتحرَّك بعيدًا عن محمد.

وشاء الله ألَّا يمر الكثير من الوقت حتى كانت صُبْح قد حملت بصبي آخر وكأنه تعويض من الله عن فقدان الأول، وبعد تسعة أشهر بالتمام ولدت للحكم ثاني أولاده فأطلق عليه الحَكَم اسم «هشام» ودخل الشعراء ينشدون أشعارهم في هذا الصبي، حتى إن «جعفرًا المصحفي» قال:

اطَّلــع البــدر مــن حجابــه ... واطَّــرَدَ السَّــيفُ مــن قِرابِــهْ

وجاءنـــا وارِثُ المَعَالِـــي ... لِيُثبــت المُلــكَ فــي نِصَابِــهْ

بَشَّـــرنا سَـــيِّدُ البَرايَـــا ... بنعمـــة اللـــه فـــي كتابـــهْ

لَو كنتُ أعطي البشيرَ نفسي ... لَـم أَقـضِ حقًّـا لِمـا أتَـى بِـهْ

ولم تجد السيدة صُبْح من يتولَّى أملاك هشام غير فتى الأندلس محمد بن أبي عامر الذي صار لقب «فتى الدولة» رفيقه.

❀❀✻❀❀

الفصل الرابع

«كانت دولة الحَكَم الثاني دولة الآداب والحضارة، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء، وإنَّ الرواية العربية لتحبو الحَكَم بكثير من جميل الذِّكر، فهل نُغضي نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموي المستنير من الصفات الباهرة، لأنه كان مسلمًا ولم يكن نصرانيًّا؟ إنَّ ذلك يعني أننا نُنكر فضائل أمثال «أوغسطوس» و«تراجان» و«أدريان» و«ماركوس أوريليوس» لأن أولئك القياصرة العِظام لم يكونوا نصارى. إن السِّلم الذي وطَّده «أكتافيوس» في إسبانيا الرومانية، قد وطَّده «الحَكَم» في إسبانيا العربية، وقد قدَّم «الحَكَم» كما قدَّم «أكتافيوس» من قبل الأدلة على أن الرغبة في السِّلم لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر، ولكن لأنه كان يؤثِر إلهام القريض، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح، وإكليل الجامعات الحقيقي على إكليل الحروب الدموي».

المؤرخ الإسباني موديستو لافونتي
متحدِّثًا عن الحَكَم المستنصر

(1)

في إيوانه جلس الحَكَم وحوله الوزراء والقادة، ومنهم محمد بن أبي عامر، فتحدث الحَكَم وقال:

- هذا كتاب قد ورد إلينا من قصر «أبي دانس» فقد ظهر فيه أسطول المجوس ببحر الغرب بالقرب من هذا المكان، واضطرب أهل ذلك الساحل كله لذلك، وكانوا في ثمانية وعشرين مركبًا، وأنهم قد أضروا بها حتى وصلوا إلى بسيط «أشبونة» فخرج إليهم جنودنا، ودارت بينهم حرب، فاستُشهد فيها من المسلمين وقُتل فيها من الكافرين، وقد أمرتُ بخروج أسطول «إشبيلية» فاقتحموا عليهم «وادي شلب» وحطموا عددًا من مراكبهم، واستنفدوا من كان فيها من المسلمين، وقتلوا جملة من المشركين، وانهزموا إثر ذلك خاسرين.

الجميع: الحمد لله.

- لن تكون الأندلس لُقمة سائغة أو سهلة لهؤلاء الملاعين، لهذا فقد أمرتُ قائد الأسطول «عبد الرحمن بن رماحس» بالاستعداد الدائم لهم.

عبد الرحمن: هذا ما نفعله يا مولاي، فنحن لهم ولأخبارهم بالمرصاد إن هم عادوا.

الحَكَم: لا نريد ترويع الأندلسيين، لذا فلا يجب عليك أن تسمح لهم بولوج بلادنا يا ابن رماحس، وهذا القائد «غالب الناصري» يعينك بِفِرق من جيشه.

«غالب»: أنا طَوْعُ أمرك يا أمير المؤمنين.

الحَكَم: لولا حاجتنا لك يا «غالب» في مدينة سالم، ووقوفك في وجه نصارى الشمال، لتحركت بنفسك وهاجمت هؤلاء في عُقر ديارهم.

«غالب»: لا يشغلني أين سيقع سيفي ما دام تحت إمْرة أمير المؤمنين.

الحَكَم: أمَّا أنت يا «ابن رماحس» فلتعُد إلى الإشبونة، ولكن عليك أن تجعل سفنك بنفس هيئة سفن هؤلاء الملاعين حتى تغرَّهم إن هم عادوا.

هزَّ «ابن رماحس» رأسه ثم تقدَّم وقبَّل يد الخليفة ثم خرج.

الحَكَم: لقد أمرنا أيضًا -توسعةً على الناس وتخفيفًا عليهم- أن نبتني دارًا للصدقة، فهنا في الأندلس لا يجب أن يوجد من يتسوَّل طعامه، فمن ملك طعامه وإلا فهذه دار الصدقة تحت إدارة الحاجب جعفر.

الحاجب: على أنه لن يُصرَف من دار الصدقة إلا للمحتاجين غير القادرين على العمل فقط.

ابن أبي عامر: وهذا يا سيِّدي خير، إذ لا يجب أن تكون دار الصدقة مدعاة لعدم العمل والتواكل.

الحَكَم: لذا، فلن يأخذ منها إلا من عجز عن العمل وضاقت به السُّبل، وقد أمرنا أيضًا باتخاذ المؤدِّبين ليعلِّموا أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قُرطُبة، وسنُجري لهم المرتبات، ونعهد إليهم بالاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبًا، منها حول المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة.

❀❀✻❀❀

(2)

كان الخليفة غاضبًا على غير عادته حتى خَشي بطشه الجميع ولم يجرؤ أحدهم على الكلام، بل أنصتوا مطأطئين رؤوسهم وهو يقول: أيصل بأحدهم أن يسرق بيت مال المسلمين؟ كيف يحدث ذلك؟ أين رجال الشرطة الوسطى؟

قائد الشرطة الوسطى: لم نكن نتوقع أن يسرق أحدهم بيت مال المسلمين، وكيف يفعل ومقره مسجد قُرطُبة الكبير؟

الخليفة: أقلدناك قيادة الشرطة لتتعامل بالظنون والشكوك، ولكن مهمتك كانت حماية أموال الخاصة والعامة، فإذا بك تسيء من حيث تظن أنك تُحسن حتى سُرق في عهدي بيت المال، لذا، فقد قررنا عزلك عن ذلك المنصب، فاخرج لا أراك ثانية.

خرج صاحب الشرطة الوسطى وعند الباب سلَّم سلاحه للفتيان الصقالبة.

الحاجب: فمَن يكون مكانه يا سيِّدي؟

الخليفة: محمد بن أبي عامر، فوالله ما كلَّفناه بأمرٍ إلا ونهض به على خير وجه.

ابتهج محمد وقال: هذا والله تكليف لي وثقة من أمير المؤمنين لها في قلبي معانٍ كبيرة وكثيرة، ووالله لن أُخلِف ثقة أمير المؤمنين فيَّ وسأكون عند حُسن ظنك يا سيِّدي. ثم تقدَّم من الخليفة فقبَّل يده.

الحَكَم: اعلم أن الشرطة ما كانت إلا لحفظ الأموال والأعراض، فكن شديد الصوْلَة قليل الغفلة، فانهض يا محمد إلى ما كلَّفناك به واضرب على يد المارقين واللصوص حتى لا يُقال سُرق بيتٌ في عهد الحَكَم بن عبد الرحمن.

❀❀✻❀❀

(3)

كانت «صُبْح» تجلس على أريكة وهي في كامل زينتها حتى بدت كالبدر ليلة تمامه، وكان يقف أمامها «محمد بن أبي عامر» وهي تقول:

- كنت أظن أن تولِّيك الشرطة الوسطى سيجعلك تستعفي من تعهُّدك أملاك ولدي.

بهذه الكلمة التي كانت تحمل في طيَّاتها عتابًا شديدًا وحبًّا عميقًا تحدثت السيدة «صُبْح» إلى «محمد بن أبي عامر» الذي قال لها وقد أراد إيضاح ما

يدور في خَلده محاولًا استعطافها أكثر وأكثر، وأن يُظهر لها اهتمامه الشديد بها وبأحوالها:

- لا أتنازل عن تولِّي أملاك سيِّدي هشام ولو بالدنيا كلها، فحسبي من إدارة تلك الأملاك أن حُزت ثقة مولانا الخليفة، وعلى ثقتك يا سيِّدتي.
- أهذا كل ما تأمله؟ أن تنال ثقة الخليفة وثقة أم ولد الخليفة؟!
- ليس كل ما يُحاك في النفس نستطيع قوْله، وليس كل ما نريده نستطيع فِعله، فحسبنا من بعض الأمور أن نستشعرها، وهبْ أنني لم آتِ إلى هنا، فهل هذا يعني خروج الروح من المكان؟! لا، فالروح ترفرف في أماكن تحبها وتعشقها، وليس الوصال بالجسد هو الغاية، فالجسد فانٍ، وأمَّا الروح فباقية، والروح يا سيدتي هي التي تسمو بالإنسان ويسمو بها، أمَّا الجسد، فمصيره إلى التراب.
- أجل يا محمد، ليس كل ما نشعر به نستطيع قوله، وكذا ليس كل ما نريده نبوح به.
- هو كذلك يا سيدتي. ثم اقترب منها وقال: وليس تولِّي أملاك الأمير هشام هو ما يشغلني، ولكن ما يعود عليَّ مِن تولِّيها هو القصد والمقصود.
- وماذا يعود عليك منها؟
- أن آتي إلى هنا وأتحدث إليكِ وأراكِ، فوالله لم يسعد أحد بولادة هشام بعد الخليفة وبعدك غيري، كيف لا وقد فتحت لي أبواب اللقاء مرة أخرى بعد أن يئستُ منها بعد وفاة عبد الرحمن.
- وأنا كذلك يا محمد، فما كنت أدري كيف أعيش ولا أراك وأتحدث إليك، فكأنني قد مِت بموت عبد الرحمن ووُلِدت بولادة هشام.
- ما أسعدني بتلك الكلمات.
- أتعلم؟ على قدر سعادتي بأن هذا الشاب الذي أوليته رعايتي واهتمامي، قد تدرَّج في تلك المناصب الكبرى ووصل في فترة وجيزة إلى ما لم يصِله شاب من أواسط الناس من قبل، ولكن كنت دائمًا أخشى أن يكون هذا التدرُّج وتلك المناصب تمنعك من تولِّي أملاك هشام، ما يعني ألَّا

يكون لقاء بيننا أبدًا، رغم ذلك كنت دائمًا أبُثُّ في نفس الخليفة عنك ما يرتقي بك وما يرفعك عنده وأنت تستحق هذا، فكأني أقدِّم صالحك على غيره، وأسعد بسعادتك وبتقدُّمك في تلك المناصب والمنازل، فما يكون هذا عندك؟

- هذا والله هو الحب بعينه، أن ينكر الإنسان ذاته ونفسه من أجل من يحب ولسعادة من يحب.

❀❀*❀❀

(4)

فتى الأندلس

كان «الحَكَم بن عبد الرحمن» شغوفًا بعلم الحدثان كجدِّه «مسلمة بن عبد الملك» فدائمًا ما اعتقد أن هناك من سيسلب أميَّة ملكهم، والأغرب أنه يرى في «محمد بن أبي عامر» أكثر الصفات على ذلك، فقد كان يجد القائم على ذلك من الجزيرة الخضراء، أصفر الكفَّين به شجَّة، فيقول لخاصته: ألا ترون صُفرة كفيه؟

«المصحفي»: أرِح نفسك منه يا سيِّدي واقتله.

الحَكَم: لو كانت به شجَّة لكانت تكملة صفاته.

«المصحفي»: إن كنت تتوسم فيه أمرًا لا نريده فدع أمر قتله عليَّ يا سيِّدي.

«الحَكَم»: معاذ الله أن أقتل نفسًا بريئة بغير نفس، ولو كنت أتوسم فيه شرًّا لي ولبنِيَّ من بعدي، فما أنظره من علم الحدثان يظل غيبًا لا يعلمه إلا الله، فهل نقتل بالظِّنَّة يا جعفر؟! كما أن وجهه ليست به شجَّة، فهذا يعني عدم اكتمال الصفات فيه.

تنهَّد «جعفر» وقال: أردت أن أريح صدر أمير المؤمنين ولو قليلًا.

الحَكَم: إن كان هناك قضاءٌ فلا رادَّ لقضاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله... ثم صمت قليلًا وقال: والآن، لقد تاقت نفسي لرؤية الناس عن قرب، فلتأمر بتجهيز الموكب الخلافيِّ، أريد اليوم أن أرى قُرطُبة وأهلها.

«المصحفي»: أمرك سيِّدي.

وما هي إلا ساعة حتى تزيَّنت الزهراء بأجمل زينة، وركب الجند الصقالبة خيولهم المُطهَّمة الجميلة، ونُودي في قُرطُبة بأن الخليفة سيكون معهم اليوم ويراهم ويقضي حاجاتهم، فابتهج الناس وتزيَّنوا وخرجوا إلى الشوارع والطرقات لملاقاة الخليفة سيدهم وابن سيدهم، وكان خروج الأمراء والخلفاء من بني أمية إلى الناس أمرًا دائم الحدوث منذ زمن الداخل، وكان في هذا اليوم المشهود دائمًا ما يُهدي الأمير والخليفة أهل قُرطُبة ما يفرحون به ويسعدون، وربما وضع عنهم بعض الضرائب والمكوث.

وتحرَّك الموكب من الزهراء حيث جبل العروس والخليفة في رأس الموكب، وعن يمينه «المصحفي» وعن شماله صاحب الشرطة العليا، وخلفهم كبار رجال الدولة والحَرس الخليفي بزيِّه الجميل، وأمر الخليفة فنودي في الناس بأنه سيُلبِّي للجميع مطالبهم اليوم، فلا يمنع الحرَس عنه أحدًا، وتحرَّك الخليفة بجواده الأبيض، فمرَّ أولًا على الربض الغربي، ثم على الشرقي، ثم جميع أرباض قُرطُبة والناس يهتفون ويدعون له ولأبيه الناصر ولكل بني أُميَّة، والخليفة يوزِّع عليهم الهِبات والصِّلات، ثم دخل المسجد الجامع وكان قد انقطع عن الصلاة فيه بالصلاة في مسجد الزهراء الجامع، وصلَّى بالناس «منذر بن سعيد» وكان يرافق الخليفة، حتى إذا انقضت الصلاة، وكانت الشمس وقتها قد مالت للغروب، تحرَّك الموكب حتى وقف في الأثر على بقعة من الأرض.

سحب «الحَكَم» رسن جواده فوقف مكانه وشرد ببصره في تلك البقعة وقد توجَّس واغتمَّت روحه وذهبت ابتسامته، استمر ينظر في تلك البقعة ولا يرفع عينيه عنها، حتى لاحظ ذلك الجميع، ولكن لم يجرؤ أحدهم على الحديث معه، حتى تقدَّم منه الحاجب «المصحفي» وقال:

- ما الأمر يا سيِّدي؟

أخذ «الحَكَم» نفسًا عميقًا وقال بصوت حزين:

- هنا سيكون مقرُّه.

- مقر من؟

- ذلك الذي سيسلب ولدي مُلكَه، وقد كان أبي -رحمه الله- يتخوَّف من هذا المكان ويتوجَّس منه.

- لقد مضى الناصر وظلت دولة بني أُميَّة يا سيِّدي.

- أرجو أن تدوم الدولة ويكون حدثي خاطئًا.

ثم لوى رسن جوادِه وتحرَّك قليلًا، ثم توقَّف ونظر إلى «جعفر» وقال:

- اسبِق إلى أصحاب تلك البقعة من الأرض فابتعْها منهم، ثم اجعل على عمرانها «محمد بن أبي عامر» فما وضعناه في منصب إلا وقام به.

وقد كان الحَكَم يريد من ذلك السبْق إلى المكان والشروع في بنائه طمعًا في مزيَّة سعده، وألَّا يخرج الأمر عن يد ولده، وأنفق في ذلك مالًا عظيمًا، فكان من غريب الأمور أن «محمد بن أبي عامر» تولَّى النظر في شأنه مع من نظر فيه.

ولم يمر يومان حتى ابتاع الحاجب تلك البقعة ووكَّل بها «محمد بن أبي عامر» الذي خرج إليها مع بعض رجاله، فلمَّا وصل وجد عجوزًا مُسِنَّة تجلس تحت ظل شجرة بالقرب من بئر الماء، فاقترب منها وقال متعجبًا:

- ما يُقعدك هنا؟

نظرت العجوز إليه وهي عابسة وقالت بصوت ضعيف واهن:

- سمِعنا قديمًا أن مدينة تُبنى هنا، ويكون على هذه البئر نزول ملكها، فأردت أن أكون شاهدة على هذا البناء، فلعل هذا الملك يكرمني ويصلني.

أخذ «محمد» نفسًا عميقًا وجالَ ببصره في تلك البقعة، ثم اقترب من العجوز وأخرج من جيبه بضعة دنانير وقال: استعيني بهذا المال على معيشتك.

رفعت العجوز وجهها ونظرت إليه وهو مبتسم لها، ثم همَّت بتقبيل يده فلم يسمح لها بذلك، وراح يقول في نفسه وقد ارتفعت هِمَّته وزاد عزمه: يجب أن أكون أنا هذا الملك الذي سيسلب بني أُميَّة مُلكهم، ولِمَ لا تكون يا محمد وقد نظر الحَكَم في كفَّيك هاتين وشكَّ أنك المقصود من نبأ الحدْثان، ثم استعملك على تلك البقعة وهو يظن أنك تحفظها له ولبنيه من بعده؟!

❀❀✻❀❀

(5)

نهض الخليفة من كرسيه متكِئًا على عصاه وقال بصوت جهوري:

- اللعين، ما إن ظفر «بلكين بن زيري» بالمغرب حتى أظهر خيانته للمرة الثانية وبايع «المعز لدين الله» وكأنه لا عهد له ولا ذِمة، فهو مع من غلب. فعلها زمن أبي إذ بايع «جوهرًا الصقلي» فلمَّا ذهب جوهر إلى القاهرة عاد «الحسن بن قنون» إلى طاعة «الناصر» فلمَّا جاء «بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي» قائدًا لجيش «المعز العبيدي» انحاز «الحسن» إليه وأعلن له البيعة والطاعة.

«المصحفي»: ذلك لأن الرجل لا عهد له، وإنما هو مع من غلب، فإن غلبنا يا سيِّدي دانَ لنا، وإن لم يحدث دانَ للمنتصر.

الحَكَم: هذا قائدنا «محمد بن القاسم بن طملس»، وقد أمرنا أن يسير على رأس جيوشنا لاسترداد ما فقدنا من عدوة المغرب، يرافقه في ذلك قائد البحر «عبد الرحمن بن رماحس».

نهض القائدان «عبد الرحمن» و«محمد بن القاسم» فقدَّما التحية للحكم وقالا: لن نتوانى عن تنفيذ ما تأمر به يا سيِّدي.

الحَكَم: فاخرُجا إلى العدوة واستردَّا ما فقدناه منها.

❀❀✻❀❀

في داره بالرصافة جلس محمد وبالقرب منه جلست الذلفاء وهي تحمل ابنها الرضيع، بينما شُغل محمد بأفكاره، فظلَّ صامتًا لا يتحدث.

- ما الذي أهمَّ الوزير بن أبي عامر؟

اعتدل محمد في جِلسته وقال:

- إي والله، سيكون ابنك هذا أسعد مولود في الأندلس.

- ذلك لأن أباه هو «محمد بن أبي عامر»....

- لا، بل لأنه سيكون خليفة لأبيه الذي سيحكم الأندلس وتدِين له الرجال والبلاد.

- تتحدث اليوم حديث اليقين لا الحلم.

- أجل، إنه حديث اليقين يا ذلفاء، وإني والله لأرى نهاية المروانيين تتحقق على يديَّ هاتين، وأتذكَّر قول الخليفة وهو العالم بالحدْثان وهو ينظر إلى يديَّ هاتين ثم يقول للحاضرين: انظروا إلى صُفرة يديه، فها هو الخليفة نفسه يتوسَّم فيَّ ما لا يتوسَّمه في غيري.

- أخشى يا محمد أنه قد يدبر لك.

- لا يحتاج الخليفة إلى تدبير، فلو أراد قتلي لفعل.

- فكيف تقول إنه يرى فيك نهاية أسرته ويتركك؟ بل ويجعلك على أرفع المناصب؟

- إنه القدر يا ذلفاء، هو الذي يدفع الخليفة إلى توليتي أكبر المناصب، وهو أيضًا ما يدفعني إلى معالي الأمور، وهو أيضًا ما يجعل الخليفة يحتفظ بي رغم كل شيء، فلا هو يبعدني ويُنزل من قدري، ولا يقتلني فيستريح مني، فكأنه جُبل على ذلك، فيكلِّفني بالأمر تلو الأمر وكأن الدولة خلَت إلا من «محمد بن أبي عامر»!

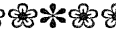

(6)

كانت الزهراء وقصورها حزينة، والجميع صامتون منتظرون كلام الخليفة الذي كان قد أرسل في طلب أمير جيش الثغور «أبي تمام غالب بن عبد الرحمن الناصري» كبير الموالي الذي ما إن دخل حتى قبَّل الأرض بين يدي «الحَكَم» فقال له الخليفة:

- لقد استفحل الخطر في العدوة وهُزم جيش «محمد بن القاسم» وقُتل واحتزَّ اللعين رأسه، حتى فرَّت فلول جيشنا إلى سبتة فاعتصمت بها.

ثم رفع يده اليُمنى وكانت بها رسالة، فاستطرد يقول: «وها هي رسائلهم تتوالى عليَّ تطلب المدد؛ فقد حاصرهم اللعين وقطع عنهم الإمدادات. ثم رفع يده اليسرى وكانت بها رسالة أيضًا فقال: وهذه رسالة الملعون «الحسن بن قنون» يطلب الصُّلح وبذل الطاعة وتبادل الرهائن، أرسلها إلى أمير البحر «عبد الرحمن بن رماحس» وهو محصور في سبتة، فكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو في طغيانه مستمر، وفي دينه مستبصر، ولكم في كل أيامه محارب؟ هذا هو الضلال، والمحال عين المحال، وسبب الخَبال، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره، وغير من أصر إصراره، وتمادى تماديه، إلى أن يحكم الله عليه، ويفتح فيه، وهذا والله صُلح الخبيث، لا نرضاه أبدًا، فدولتنا عزيزة كريمة قوية لا ترضى بمثل هذا، بل يقدِّم الطاعة وهو ذليل أو قتيل، ولقد كتبت إلى «ابن رماحس» ومن معه من القادة أوصيهم بالاستمرار في مجاهدة الخارج علينا، ومجاهدة من معه حتى يفتح الله عزَّ وجل فيه وفيهم. ثم نظر إلى «غالب» وقال: إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وادِّراع التحفُّظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبثُّ الجواسيس، والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار حتى لا يخفي الحسن -أهلكه الله- حركة، ولا يتوارى له مذهب».

«المصحفي»: وهذا والله نِعم القرار.

«الحَكَم»: لذا فَقُد جيشك يا أبا تمام وقاتِل الأدارسة واستأصِل شأفتهم، وطهِّر المغرب من كل القوى المناوئة لنا، فسِر يا «غالب» مسير من لا إذْن

له في الرجوع إلا حيًّا منصورًا، أو ميتًا معذورًا، وابسُط يدك في الإنفاق، فإن أردت نظَّمت للطريق بيننا قنطار مال.

نهض «غالب» واقفًا فأدى التحية للخليفة وخرج في قواته الجرَّارة من قُرطُبة، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة (أو القصر الصغير) وعلم الحسن بمقدِمه وعظيم أُهْبَته، فغادر مدينة البصرة الواقعة في الجنوب حيث كان يقيم، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة «حجر النسر» الواقعة شمالها، ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحَكَم، ونشب القتال بين الفريقين أيامًا، وبثَّ «غالب» في رؤساء البربر من غمارة وغيرهم من جند الحسن الأموال والهدايا، فانفصلوا عنه، واضطُر الحسن أن يمتنع بمن بقي معه في قلعة «حجر النسر» فطارده «غالب» وضرب الحصار حول القلعة.

وبعد نحو الشهر من مقدِم «غالب» إلى العدوة بعث «الحَكَم» ثِقته «محمد بن أبي عامر» إلى العدوة بأحمالٍ من المال والحُلي والخُلَع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن استمالتهم إلى جانب الخلافة، وأصدر في نفس الوقت مرسومَه بتعيين «ابن أبي عامر» قاضيًا لقُضاة العدوة، بجانب ما يتقلَّده من خطتَي الشرطة الوسطى والمواريث وقضاء إشبيلية. ووصلت إلى «غالب» من الأندلس بعد ذلك أمداد جديدة، بقيادة الوزير «يحيى بن محمد التجيبي» وإخوته، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل، ومعه جملة من المال، ونزل «يحيى» وجنده بطنجة، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى «غالب» وشدَّد «غالب» الحصار على «الحسن» وقطع سائر علائقه وموارده، وبثَّ قواته في سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة واستئصال شأفتهم، ونشبت بين جند الحَكَم وبينهم معارك عديدة، قُتل فيها الكثير منهم.

واستولى «غالب» على مدينة البصرة، وسلَّمها إليه أهلها بعد أن قتلوا نائب الحسن.

وأسفل قلعة النسور، وقف القائد «غالب» الناصري وكان بجواره «محمد بن أبي عامر» والوزير «يحيى بن محمد التجيبي» فتكلَّم «غالب» وهو يرفع سيفه وقال: أين المفر يا حسن؟ فوالله لو كنت في السحاب لصعدت إليك.

«الحسن» ساخرًا: لمَ تصعد؟ إن كان من أجل الأسرى لديَّ فأرِح نفسك. ثم أشار إلى أحد الحراس وقال: ألقِه إلى صاحبه.

فدفع الحارس أحد الأسرى فسقط قتيلًا على الأرض؛ فقد كانت القلعة مرتفعة جدًّا، ثم أمر «الحسن» بدفع أسير آخر فسقط من فورِه قتيلًا والحسن يُطلق ضحكاته بينما الغيظ قد تملَّك من «غالب» الناصري وهو لا يدري ماذا يفعل إلا أن قال: لن أبرح مكاني هذا أيها اللعين حتى تقع وقلعتك في يدي، وإن كنت تتحصَّن خلف هذه الجدران، فإن مؤونتك لن تبقيك داخلها حيًّا.

وما إن سمع «الحسن» ذلك الكلام حتى أخرج بعض الفواكه الطازجة وراح يأكل منها أمام أعين «غالب» ويقول: لن تفنى، فعندي دائمًا منها الجديد الطازج. ثم قهقه بصوت مرتفع.

نظر «محمد بن أبي عامر» إلى ما بيد الحسن وقال: يجب أن يكون هناك من يُمِده بالطعام والشراب، فهذه الفواكه طازجة، ولو كانت قديمة لفسدت.

«غالب»: صدقت يا محمد، يجب أن يكون هناك خائن بيننا.

محمد: أو أحد من رؤوس البربر يُمده بالطعام.

«غالب»: فماذا تُرى؟

محمد: كما أمر أمير المؤمنين، يجب علينا الإغداق على هؤلاء، ووقتها هم من سيسلِّمونه لنا، كما يجب ترتيب دوريات حول القلعة مع تشديد الحصار عليها، فإن كان الخائن أحدًا من الجند، عرفناه، وبذلك فإن الدوريات ستقطع أسباب الشكِّ لدينا، وتقطع كذلك أسباب الحياة عنه.

(7)

كان الفتى «فائق» والفتى «جؤذر» يتسامران حول مائدة مليئة بالفواكه والطعام، أمسك «جؤذر» بثمرة وقضم منها ثم قال:

- لا يصعد أحد مثل هذا الصعود سريعًا إلا ويُخشى منه.
- وما الذي تخافه ولم يحدث شيء بعد؟
- ماذا إن حدث شيء للخليفة حفظه الله؟ قطعًا سيؤول الأمر إلى الصبي «هشام» ومن ثم تحكم «صُبْح» به ويحكم «أبو عامر» بها وهو صاحب الشرطة والمواريث والمتولي أموال ولي العهد.
- أيعقل مثل هذا؟
- لقد التقت غايتهما مع ما يقال عنهما، ألا ترى تلك الهدايا العظيمة التي لا ينفك من يسمونه فتى الدولة عن تقديمها لها حتى سلَب بها عقلها وقلبها وصارت حديث الدنيا؟
- ولكن كل هذا لا يصل إلى الخليفة عنه شيء.
- ومن هذا الذي يستطيع إبلاغ شيء كهذا للخليفة وهو يتردد عليها لأنه المسؤول عن تدبير أملاك الصبي هشام؟
- مممم، هذا الذي كان منذ سنوات قليلة يكتب لنا الرِّقَاع أصبح صاحب الشرطة الوسطى وخطة المواريث ومتعهِّد أملاك ابن الخليفة، كل هذا يحدث لرجل من أوساط الناس في عدة سنوات!
- ليس هذا إلا بتزكية «صُبْح» له أمام مولانا الخليفة الذي يثق برأيها ويعمل به، وقد عرف «أبو عامر» تأثير النساء على الرجال فأحسن استغلال ذلك، لذا علينا أن نجتهد في التقرب إلى «صُبْح» من جهة، ومن أخرى أن ننتبه إذا وقع للخليفة حادث فنمنع أن يكون الصبي هو المرشَّح للخلافة.

وبينما «فائق» و«جؤذر» يتحدثان كان الخليفة الحَكَم يتحرَّك في متنزهات الزهراء وهو يتحدَّث إلى حاجبه «جعفر» ويقول:

- لقد استقرت أحوال المغرب أخيرًا، لم نرسل «غالبًا» في أمر إلا وقطعه، وقد كان الفتى «محمد بن أبي عامر» خير معين له.

- لا أحد يغني عن «غالب»، ولكن هل سيتركه مولاي بالمغرب؟

- لا، فغالب مكانه ثغور الأندلس، ومدينة سالم هي عُشُّه ودارُه حتى يكون قريبًا من العدو، أمَّا «محمد بن أبي عامر» فسيمكث بالمغرب قاضيًا عليها بعض الوقت، ثم يعود لتولِّي الشرطة العليا.

- الشرطة العليا يا سيِّدي؟!

وقف الحَكَم وقال:

- أجل، فقد رأيت ورأى الجميع ماذا فعل في كل منصب وضعناه فيه، لقد أحسن في دار السَّكَّة والخزانة، ثم في خطة المواريث، ثم في الشرطة الوسطى، حتى قمع أهل الشرور واللصوص وأعاد لقُرطُبة الأمن والأمان.

- وماذا عن جيش الحضرة يا سيِّدي وقد بدأ ينافس جيش الثغور؟

ربَّت «الحَكَم» كتفَ «جعفر» وقال:

- لا أحد كغالب الناصري، فهو كبير موالينا، وسأجعل جيش الحضرة يومًا يخضع لإمْرة «غالب»، فقد استأذنني محمد أن يُمد جيش الحضرة بالمال ليجدِّد نشاطه ويكون للأندلس جيشان قويَّان فأذِنت له، فأعاد للجيش شبابه.

- لكن أليس ذلك عبئًا على دار الخزانة يا سيِّدي؟

- لقد عوَّض ذلك محمد بتحصيله الأموال ممن كانوا يتهرَّبون من دفْع ما عليهم، فزاد من أموال دار الخزانة ولم ينقص.

- ثم تنهد «الحَكَم» وتابع سيْره ونظر إلى جبل العروس وكان أمامه من خلف أسوار الزهراء: أخشى أن يأتي ذلك اليوم الذي يتصارع فيه جيش الحضرة مع جيش الثغور.

- وكيف يكون ذلك وكلاهما جيش الخلافة يا سيِّدي؟

- هو شيء وقرَ في قلبي يا «جعفر» ولا أدري كيف يكون ذلك.
- إذن لنكتفِ بجيش الثغور ويعود جيش الحضرة كما هو، أو نجمع الجيشين تحت إمْرة «غالب».
- بل يظل الأمر كما هو عليه، فلن أُخلي قُرطُبة من الجند أبدًا، وهي حاضرة دولة بني أُميَّة.

❀❀✻❀❀

(8)

معركة حصن غرماج

في قشتالة، حيث المباني الحجرية المليئة بالحشائش، جلس «غرسيه فرناندز» ابن فرنان كونثالث ومعه وزيره «بيدرو» في مجلسه داخل القلعة فقال:

- لن أتوانى عن مهاجمة قُرطُبة مهما حدث.
- لكن الحرب بيننا وبينهم موضوعة منذ زمن، وقد عقدنا الصلح وجدَّدناه غير مرة مع خليفتهم في قُرطُبة، بل ربما لم تجِف بعد أحبار تلك العهود والمواثيق؟!
- تلك العهود نتخذها وقاية لنا، فإن ظهر لنا أفضل منها نقضناها وألقيناها خلف ظهورنا، لا عهود في السياسة، ولا عهد لأعدائنا، بل نتحيَّن الفرصة فنضربهم حيثما كانوا.
- لكن ما الجديد الذي يدعونا لنقض تلك العهود؟ فحتى حلفاؤنا من ليون وجليقية واستورياس وبنبلونة منشغلون بحروبهم الداخلية.
- ذلك لأنك غير مدرك لما يحدث هناك، فقد وصلتنا الأخبار بأن قائدهم الأعلى «غالب الناصري» قد عبر البحر إلى عدوة المغرب، ما يعني انشغاله وجيشه عنَّا، فهذه فرصتنا السانحة لغزوِهم وردِّ الصاع صاعين لهم، لذا فإني آمرك بحشد الجيش واقتحام حصن «دسَّة».

- لكن هذا الحصن قريب من مدينة سالم.
- وهذا ما أردتُه، فإن انهارت قُوى الحصن ولم ينجده أحد، تأكدنا من خلوِّ مدينة سالم وهي مقر جيوشهم من الجيش فاقتحمناها.
- نقتحم مدينة سالم!
- لمَ هذا الخوف؟ نعم سنقتحم مدينة سالم، بل وربما قُرطُبة قريبًا.
- لكن.....
- لا تختبر صبري يا «بيدرو» ولا تُرِني جُبنَك وخوفك، بل تحرَّك من فورك وأطِع سيدك.
- أمرك سيِّدي.
- وقبل أن تسير بجيشك إلى «دسَّة» أرسل إلى قُرطُبة رسالة وسفراء يحملون معهم مطالبنا بتجديد العهود والصلح.

رفع «بيدرو» حاجبه متعجِّبًا، فقال له «غرسيه»:

- إنها الحرب، والحرب خُدعَة.

❀❀✻❀❀

استمع الخليفة إلى رسل «غرسيه» في طلب السِّلم والمهادنة، فأجابهم إلى ما طلبوا، قائلًا لهم:

- أبلِغوا حاكم قشتالة أننا نوافق على تجديد السِّلم معه.

فردَّ عليه أحدهم وقال:

- هذا كرمٌ منك يا سيِّدي.
- يا جعفر، مُر لهم بكسوة وأطعِموهم، ثم اصرفوهم راشدين.
- أمرك يا أمير المؤمنين.

انصرف الرسل من أمام الخليفة وقُدِّمت لهم الأطعمة والأعلاف للخيل، ثم انصرفوا عائدين إلى «برغش».

وبينما كان الخليفة يتحدث مع رجاله حول ما يدور في الدولة من حروب، إذ دخل عليه الحاجب «المصحفي» يقول:

- هناك فارس يُلح في طلب الدخول عليك يا سيِّدي.

- أدخِله يا جعفر.

أشار جعفر إلى أحد الفِتيان الصقالبة فخرج ليعود وخلفه أحد الفرسان وقد بَدَت عليه كل علامات التعب والإرهاق، تقدَّم الفارس ووجهُه إلى الأرض وهو يقول: لقد أرسلني «مضاء بن عمريل بن تيملت الثغري» صاحب حصن «دسَّة» يا سيِّدي، إذ إن «غرسيه فرناندز» بعث قواته فأغارت على أراضي المسلمين واقتحمت الحصن، وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية، فخرج في أثرهم «زروال» و«مضاء» ولدا «عمريل» في أصحابهما، واستنقذوا الماشية، وقتلوا عددًا من النصارى، ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك، ووقعت بين الفريقين معركة قُتل فيها زروال.

- ماذا تقول؟!

طأطأ الفارس رأسه وقال:

- هذا ما حدث يا سيِّدي.

نهض الحَكَم واقفًا وبصوتٍ عالٍ قال:

- إنها والله الخُدعة، يرسلون إلينا الرسل لنطمئن لهم! ولكن سنريهم عاقبة خيانتهم وغدْرهم، أين صاحب الخيل؟

وقف «أفلح» صاحب الخيل فقال:

- أمرك يا أمير المؤمنين.

- اخرُج في سرية من رجالك فأحِط بالسفراء وعُد بهم إلى قُرطُبة وزُج بهم في السجن.

حيَّا «أفلح» أمير المؤمنين ثم خرج من فوره واستطاع القبض على السفراء والعودة بهم.

ثم أرسل الحَكَم عددًا من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس لحثِّ أهلها على ارتباط الخيل، والاستعداد لمؤازرة جيش الصائفة.

وصدق حِدس «الحَكَم» فلم تمر أشهر حتى هاجم جيش مشترك من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس، حصن «غرماج» الواقع على نهر «دويرة» على مقربة من مدينة «سالم» ونشَبَ بينه وبين حاميته الإسلامية قتالٌ عنيف، وشجَّع النصارى على انتهاك السِّلم المعقود بينهم وبين الخليفة، اعتقادهم بأن قوى الأندلس كلها ما تزال مشغولة بحروب العدوة، فانقلب النصارى إزاء بسالة الحامية الإسلامية إلى محاصرة الحصن، ووافتهم أمداد أخرى جاءت لتشُدَّ أزرهم.

وما كاد الحَكَم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده «غالب بن عبد الرحمن» في قوة مختارة غادرت قُرطُبة على عجَل، وكان «غالب» قد وصل من المغرب لتوِّه، وبعث الحَكَم في أثرها أحمالَ المال للإنفاق على الصائفة، واستمر حِصار النصارى لغرماج عِدة أشهر، وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جند «ليون» سيَّرتها الراهبة «ألبيرة» الوصيَّة على مُلك ليون، ناكثة بذلك عهدها في التهادُن والسِّلم.

هاجم النصارى الحصن وهم في أكثر من ستين ألفًا محاولين اقتحامه، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة النصارى وتبديد شمْلهم، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيرًا من جندهم وعتادهم، وطاردهم المسلمون، فقتلوا منهم جموعًا أخرى، وأحرزوا غنائم جمَّة، فبعث المسلمون إلى الوزير «غالب» وهو مقترب منهم لنصرتهم بنبأ هذا الظفر، فأنفذه من فوره إلى الخليفة، وسار إلى الحصن ونزل به، ثم خرج في قواته، فعاثَ حينًا في أراضي قشتالة، ونسف الزروع، وخرَّب القرى، فتقدَّمت قوة بعَث بها «غرسيه فرناندیز» صاحب قشتالة لمدافعة المسلمين، فهُزمت ورُدَّت إلى أعقابها.

(9)

كان «محمد بن أبي عامر» جالسًا في بيته أمام نافورة المياه وبجواره الذلفاء تخيط بعض الثياب فقالت:

- ما كنت أظنك تعود من المغرب بهذه السرعة؟
- أمَّا أنا فكنت أثق بالعودة.
- لقد أصبح الكلام عنك وعن السيدة أم هشام ملء قُرطُبة وضواحيها، فشككت أن يكون الخليفة قد علم فأمر بذهابك إلى المغرب على ألا تعود.
- لو تيقَّن من الأمر لقتلني، فالخليفة ليس بحاجة إلى إخفاء شيء والأمر بيده.
- مممم، لكن ألا ترى أن الحديث لو وصل إلى مسامع الخليفة فإنه ربما لم يقتلك حتى لا يثبت ما يُقال، فإنْ قتلك آمن الناس بتلك الأقاويل.
- ربما صدقتِ، ولكني على ثقة بأن الخليفة يثق بي، وما أرسلني إلى عدوة المغرب إلا للمساهمة في وأد الفتنة، ولا تنسي أنه كان قد أرسل قبلي الوزير وشيخ الموالي «غالب الناصري» فهل أرسله أيضًا لإبعاده؟

تنهدت «الذلفاء» وقالت:

- بل لأن «غالب» أعظم قواده.
- ولكن ماذا تقولين أنت في تلك الأقاويل المنتشرة؟
- أنا أعرف أخلاقك، وأعلم أنك تخاف حدود الله، وما أم هشام إلا وسيلتك لغاية بعيدة.
- وأنا أُشهد الله أني ما خُنت ولي نعمتي، وأَشهد أيضًا أن أم هشام امرأة طاهرة، ولكنها وجدت فيَّ ما لا يوجد في غيري، فأم هشام تسعى أن يكون ابنها خليفة فتحكم من خلاله، وهي تراني عضدها في هذا الأمر، فهي لا تثق بغيري.

ثم نهض من مكانه وقال: والآن سأذهب إلى دار الشرطة.

- في هذا الوقت؟ ألا تستريح قليلًا.

- لا يجب عليَّ التكاسل أو الراحة، فمن طلب معالي الأمور هانَ عليه في سبيلها كل شيء. تركت «الذلفاء» ما بيدها ثم احتضنت محمدًا قبل أن يخرج.

وفي دار الشرطة كان «عمرو» يتحدث إلى «محمد بن أبي عامر» ويقول:

- كنت في الشرطة الوسطى فلم تفعل شيئًا، وها أنت هنا وقد أصبحت صاحب الشرطة وثالث رجل في الدولة والمقرَّب من الخليفة ولم تفعل شيئًا، فأي فرقٍ بينك وبين هؤلاء يا أبا عامر؟

- لماذا لا تفهمني يا عمرو؟

- ما الذي لم أفهمه؟ كنت من قبل تعترض وتتحدث عن الظلم وعن دولة العدل، وكنت تتعذر بأن ليس لك من الأمر شيء، ولكن الآن، ما عذرك؟ أم أنك تريد أن تقول إن الصقالبة، وهم زينة الدولة، يفعلون ما يفعلون بأمر الخليفة؟ فأنت لا تريد إغضابه بالتأكيد.

- معاذ الله، فوالله ما رأيت رجلًا كأمير المؤمنين يخشى الله ويراقبه، ألم ترَ كيف فكر في استئصال شجرة العنب من كل الأندلس حتى يحارب الخمر؟ لولا أنهم أخبروه بأن الخمر قد يُصنع من غير العنب؟! فهل هذا فِعل رجل يرضى بالظلم؟

- فماذا يا محمد؟! فوالله لقد رأيت أحدهم اليوم وهو يمر في السوق فكانت الأرض تميل أينما وُجد، فقد ثقل عليها حمْله، فماذا عن الناس وقد أرهقهم بظلمه وضربهم بسوطه؟!

اقترب محمد من عمرو وأمسك ذراعيه وقال له:

- أعلم كل ما تجيش به نفسك، ولكن لا أريد أن أعاديهم وهُم مَن هُم في الزهراء.

- فما الفرق بينك إذن وبين غيرك يا محمد؟

ابتعد محمد عن عمرو وقال:

- الفرق أنني أنتظر الوقت المناسب لتصحيح الأوضاع، ولا أريد الآن أن أتَّخذ من الصقالبة أعداءً لي، الآن على الأقل، أمَّا إن جاء الوقت الذي أتحيَّنه فسأبطش بهم بطش عزيز منتقم، فانتظر إني معك من المنتظرين، والآن تجهَّز بقوة من رجال الشرطة، فسنخرج لضبط بعض الأمور الخارجة.

- كما تأمر.

وكانت الشمس قد مالت للغروب عندما تحرك صاحب الشرطة الوزير «محمد بن أبي عامر» بقوة من رجاله فهاجم محلات بيع الخمور حتى جمع الكثير منها في أكبر ميادين قُرطُبة، ثم أمر بإهراقها أمام العامة وهو يقول:

- هذا ما أراده أمير المؤمنين وأنا يدُه التي تنفِّذ.

ثم هاجم حوانيت المعازف فأغلقها، وكان الخليفة «الحَكَم» في الأساس يريد ذلك وأمر به مرارًا، واستغل محمد ذلك فوطَّد مكانته بين الناس حتى ظن الكثيرون منهم أن محمدًا إنما يفعل ذلك من نفسه لا عن أوامر الخليفة.

تقرَّب «أبو عامر» من الناس كثيرًا وتباسط معهم، وكان يسلِّم على الكبير والصغير، حتى شارك صاحبَيه القدامى عندما رأياه في السوق طعامهما، ثم لم يترك أحدًا في السوق كان يبخس الناس أشياءهم أو يبخس الميزان إلا ونهره وأقام على بعضهم الحدَّ، واحتبس البعض الآخر، فلمَّا تحدَّث له بعض الناس عن الصقالبة وظلمهم، ما زاد محمد أن قال: إنهم رجالُ أمير المؤمنين أعزَّه الله، ولا أظن أن من يفعل ذلك منهم يفعله بعِلم كبرائهم، ولكن سأوصل ذلك إلى الخليفة.

تقدَّم أحد الرجال وقال: أنت والله أفضل لنا من الحاجب ومن صاحب المدينة.

محمد: إنما أنا رجل الخليفة، وأما سيدنا الحاجب فمنشغل بكثرة أعماله -أعانه الله- وكل ما أفعل هو بتوجيه منه.

وما إن سمع «عمرو» ذلك حتى اقترب من محمد وقال:

- ماذا تقول يا أبا عامر؟

نظر محمد حوله وقال بصوت خافت غير مسموع:

- صَه، يجب أن ينخدع الحاجب ويرضى، فلا يغرَّنك هؤلاء، فمنهم من يتجسس علينا.

وبدأ بتلك الأعمال نجم «أبي عامر» في الصعود، فلهجت العامة بشُكْره والثناء عليه، أما الحاجب «المصحفي»، فما إن سمع ما قاله محمد إلا وسكنت نفسه قليلًا على الرغم من كراهيته له.

حاول محمد التقرُّب من كبار الفِتيان الصقالبة، رغم أنه كان يعلم جيدًا حقدهم عليه، ولكنه تملَّقهم ولم يُرد الاصطدام بهم وهم كثر في الزهراء، ورغم ذلك فقد كان كبار الفِتيان يعلمون أن صعوده بهذه الطريقة السريعة فيه تهديد لنفوذهم، وكانوا يعلمون أن تولِّي الصبي «هشام المؤيد» الحُكم في حال وفاة أبيه، فيه شر كبير لهم.

❀❀❀❀❀

(10)

وبين ليلةٍ وضحاها أُصيب الخليفة الحَكَم بمرض الفالج الذي أقعده في مجلسه في قصر الخلافة بالزهراء، واشتدَّ المرض حتى خُشِي عليه فنقلوه إلى سريره، وزاره كبار أطباء قُرطُبة الذين لم يتوانوا في تطبيبه حتى إذا فرغوا من عملهم دخلت عليه أم هشام «صُبْح» وهي تبكي، فقال لها:

- ما يبكيكِ يا صُبْح؟

- أخشى عليك يا سيِّدي، فمن لنا بعدك؟

- لا تخشَي شيئًا، فلن يستطيع أحد أن يمسَّك بسوء.

- ولكن، ابنك «هشام» ما زال صغيرًا لا يقدر على شيء.

صمت الحَكَم قليلًا وضاقت نفسه، ثم تذكَّر تلك الكلمات التي قالها له كبير العرَّافين: لا يزال مُلك بني أُميَّة في دوام ما ورثه الأبناء عن الآباء، فإن تبدَّل للإخوة أعرض وانقضى. فأغمض عينيه ثم قال:

- لن يتولَّى الأمر غير «هشام».
- لكن هل يرضي بذلك أبناء الناصر؟
- لن يجرؤ أحد على نقض ما سأُبرمه.
- أطال الله عمرك يا سيِّدي.
- اتركيني يا صُبْح ونادِي لي كبير الفتيان.

خرجت صُبْح ليدخل الفتى «فائق» وقد شبَّك يديه ووضعهما على بطنه، فقال له الحَكَم:

- إليَّ بالكاتب وبصاحب الشرطة العليا وبالمصحفي، أريدهم هنا على عَجَل.
- أمرك يا أمير المؤمنين.

خرج فائق فقال الحَكَم هامسًا:

- لن يضيع مُلك بني أُميَّة.

وما هي إلا ساعة حتى كان كبار الفتيان وصاحب الشرطة العليا والحاجب «المصحفي» حول سرير الحَكَم، وجميعهم يدعون له بالشفاء ويقبِّلون يده.

الحَكَم:

- اكتب أيها الكاتب، إني جعلت الأمر من بعدي لابني «هشام المؤيد بالله» فكونوا أول من يبايع.

تقدَّم الحاجب «المصحفي» ووضع يده على المصحف وقال: أعاهدك يا أمير المؤمنين أني أبايع الأمير هشام المؤيد بالله وليًّا للعهد وخليفة من بعدك أطال الله عمرك.

ثم تقدَّم «محمد بن أبي عامر» وباقي الحضور فبايعوا، وكان الفِتيان الصقالبة قد أضمروا عكس ما أظهروا.

الحَكَم: خُذ يا محمد هذا الكتاب وخُذ البيْعة من أمراء بني مروان وكل الوزراء والكبراء، فهذا عمل صاحب الشرطة العليا.

محمد: أمرك سيِّدي.

انتشر الخبر في كل قُرطُبة، ودُعي للأمير هشام في الخطبة كوليٍّ للعهد، وابتهجت «صُبْح» أيَّما بهجة، فقد علمت أنها الجارية التي ولدت سيدها، وأنها كما حكمت أيام الحَكم ستحكم كذلك زمن ابنها حينما يأتي.

أما الحاجب «المصحفي» فقد علم أنه سيحفظ مكانته حال تولِّي «هشام المؤيد» أمَّا إن تولَّى المُغيرة أو غيره من أبناء الناصر، فقطعًا سيفقد كل امتيازاته، فلكل رجل رجال، وكذلك محمد الذي وجد في تولِّي الصبي فرصة كبيرة لتحقيق مآربه.

ولمَّا اشتد المرض على «الحَكم» ذهب محمد إلى الحاجب «المصحفي» وقال له:

- سيِّدي الحاجب، لو أركبت ولي العهد في موكب وخرج إلى شوارع المدينة حتى يرى الناس هيبة موكِبه فيرتدع من تُسوِّل له نفسه الخروج أو العصيان لأمر الخليفة.

واستحسن الحاجب الرأي واستأذن الخليفة في فعله، فخرج «هشام المؤيد بالله» وحوله مجموعة من الجند وأمامه صاحب الشرطة العليا «محمد بن أبي عامر» و«المصحفي» فرأى الناس «هشامًا» ودعوا له وكان يومًا مشهودًا.

❀❀❀

(11)

اشتدَّت العِلَّة على «الحَكَم المستنصر» حتى عجز عن متابعة أمور الدولة، فكان يسيِّرها «المصحفي» ومساعده «محمد بن أبي عامر» حتى نصحه أطباؤه بالخروج من الزهراء لبرودة الطقس فيها، فعمل برأيهم ونزل إلى قصر قُرطُبة، وجلست صُبْح بجواره والدموع تملأ عينيها وهي تنظر إليه وهو نائم يغط في سُبات عميق، ثم نهضت واقتربت منه ووضعت يدها على جبهته وهي تفكر في هذا الرجل العظيم وقد جالت برأسها الأفكار؛ هل خانتْهُ أم لا عندما سمحت لمحمد بالدخول إلى قلبها؟ هل خانتْهُ عندما أخفت عنه حبها لمحمد؟ هل خانتْهُ عندما رأت غيره، بينما لم يرَ هو غيرها أبدًا فرفعها وجعلها سيدة الأندلس كلها بعد أن كانت جارية تُباع وتُشترى؟ استمرت في ذلك حتى

صغرت في عين نفسها، وهي ترى هذا الرجل العظيم الذي أحبَّها وشاركها حياة عظيمة، ما كان لها أن تحياها بغيره، حتى أضحت أم ولي العهد، آه يا صُبْح، كيف لك أن تفعلي؟ ولكنه أمر القلب ولا رادَّ لأمره، والشاب على كل حال لم يقترف شيئًا، وإنما هو القلب وهذا لا حكم لنا عليه، فكانت «صُبْح» بهذه الكلمات تحاول أن تعزِّي نفسها وترفع اللوم الشديد الذي وقر في قلبها.

وبعد لحظات أفاق الحَكَم من نومته فوجد صُبْح بجواره والدموع تترقرق في عينيها فقال لها هامسًا وقد أجهده المرض:

- صُبْح، لماذا تبكين؟
- كيف لا أبكي يا سيِّدي وقد رفعتني من بين الجواري وجعلتني سيدة الأندلس كلها، ثم غمرتني بحبِّك وعطفك حتى تعجبت أن يكون الخليفة بهذا القلب الرقيق؟!
- لقد أحببتُك يا صُبْح هذا الحب الذي لم تحظَ امرأة بمثله، أما السعادة والحياة فلم أعرفها سوى داخل عينيك، وقلبي لم ينبض إلا عند رؤياك.
- لقد أعجزت لساني عن الرد يا سيِّدي، فكيف تقول ذلك لجاريتك.
- بل أنت سيدة قلبي يا صُبْح.

قبَّلت صُبْح يده وقالت:

- وأنا أحببتك يا سيدي هذا الحب الذي لم تحب مثله امرأة رجلًا.

❀❀✻❀❀

(12)

جلس «محمد بن أبي عامر» في داره وقد اكتسى وجهه بحزن كبير، حتى إنه لم يتحرك ولم يتنبَّه لوجود «الذلفاء» بجانبه وهي تنظر إليه وترجو أن يتحدث إليها كما كل يوم، ولكن دون جدوى، فما كان منها إلا أن قالت:

- ما الذي شغل عقل وقلب الوزير أبي عامر حتى التزم الصمت؟

اعتدل محمد في جِلسته وقال:

- إنه مرض الخليفة يا ذلفاء.

- ما كنت أظن أنك تحزن عليه كل هذا الحزن وهو بعدُ مريض، ولكنه حيٌّ يرزق.
- لا أظنه ينجو من هذا المرض اللعين، فقد عرفت الموت في وجهه.
- وإن كان، فهذا قضاء الله.
- أجل، هذا قضاء الله ولا رادَّ لقضائه، ولكن كيف لا نحزن على رجل مثل الحَكَم؟ انظري إلى قُرطُبة كيف فعل فيها، وإلى كل الأندلس، لقد عملت له فوجدته أعدل الناس وأرحمهم، فكان والله يُنفِذ الكتب إلى القواد والعمال بأقطار مملكته بإنكار ما اتصل به من أنَّ بعضهم يسفك الدماء بلا عهد ولا مشورة، وأن ذلك عظيم عنده، وتبرأ إلى الله ممن أقدموا عليه، كما أجرى الماء إلى سقايات الجامع والميضأتين اللتين مع جانبيه؛ شرقية وغربية، ماء عذبًا جلبه من عين بجبل قُرطُبة، خرق له الأرض وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء، مُحكمَة الهندسة، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس. حتى قال محمد بن شخيص في قصيدة له:

وقدْ خَرَقت بُطُونَ الأرضِ عن نُطَفٍ	من أعذَبِ الماءِ نحوَ البَيْت تُجْريها
طُهْرُ الجُسومِ إذا زالت طهارتُها	رَيُّ القُلوب إذا حَرَّتْ صَوَادِيها
قَرَنْتَ فَخرًا بِأجْرٍ قَلَّ مَا اقتَرنَا	في أمَّةٍ أنتَ راعِيها وحامِيها

وابتنى بغربيِّ الجامع دار الصدقة، وأيضًا اتخاذه المؤدِّبين يعلِّمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قُرطُبة، وأجرى لهم المرتبات، وعهد إليهم بالاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم، فمن يا ذلفاء مثل الخليفة وأمير المؤمنين الحَكَم؟ وكيف للأندلس كلها ألَّا تحزن وتدعو لرجل كالحَكَم؟

(13)

كان «فائق» و«جؤذر» لا يفارقان الخليفة ليلًا أو نهارًا، وقد دأبا على خدمته، فلمَّا انقطع الخليفة عن الناس كانا هما الموكَّليْن برعايته، وفي غرفته الكبيرة، كان الحَكَم على سريره وقد غطَّ في نومٍ عميق، بينما «فائق» و«جؤذر» قد جلسا في ناحية الغرفة حتى لا يزعجا الخليفة، بينما أعينهما تراقب حركته، وكان «فائق» كثير القلق، فقال هامسًا:

- انظر إليه، إنه لا يتحرك.

- لأنه نائم.

- لكن ألا يتقلَّب النائم، ألا يعطس أو نسمع حتى أنفاسه؟

- ربما التعب، وأنت تعلم الفالج وقسوته.

- سأنهض لأراه وأطمئن عليه.

وبخطوات غير مسموعة تحرَّك «فائق» حتى وقف على رأس الخليفة ونظر إلى صدره فوجده لا يتحرك، فهمس قائلًا:

- مولاي أمير المؤمنين.

لم ينطق الحَكَم أو يتحرك، وبذهول وخوف فتح «فائق» عينه بقوة، ثم نظر إلى «جؤذر» وقال:

- لقد مات!

- ماذا تقول؟

نهض «جؤذر» ووقف بجوار فائق وأمسك بيد الخليفة، ولكن كانت الروح قد فارقت الجسد، فوضع غطاءً أبيض على وجه الخليفة وقال:

- ماذا نصنع الآن؟

- سنكتم الأمر حتى نتدبر أمرنا، لذا فلتخرج إلى باقي الفِتيان فلا يقتربن أحد من سرير الخليفة ولا حتى أم ولده.

- حسنًا.

تحرَّك «فائق» وأعطى أوامره للفتيان الذين أحكموا سيطرتهم على أبواب القصر، ثم عاد إلى «جؤذر» الذي قال:

- يجب صرف الخلافة إلى «المغيرة بن عبد الرحمن» فهذا خير من يتولى الأمر، كما يجب تنحية هذا الفتى «هشام» الذي إن حكم سيحكم «محمد بن أبي عامر» من خلفه، ولن يكون لنا من الأمر شيء، بل ربما يبطش بنا، وقد علم أننا دبَّرنا له سالفًا.
- لكن لن يتم لنا هذا الأمر إلا بقتْل جعفر «المصحفي».
- ونستفتح أمرنا بسفك دم شيخ دولة مولانا الحَكَم؟!
- هو والله ما أقوله لك.
- لا لا، لن نفعل قبل أن نعرف رأيه، فمن يدري، فلعله ينزل على رأينا.
- تذكَّر أني نصحتك ونصحت لنفسي.
- اذهب الآن وأحضر «المصحفي» ولا تخبره بأمر حتى يكون بيننا.
- كما تحب.

تحرَّك «فائق» بينما ظل «جؤذر» واقفًا ينظر إلى سرير الحَكَم، وما هي إلا دقائق وحضر «المصحفي» على عجَل، فقال لهما: ما الأمر؟

جؤذر: ننعي إليك سيدنا أمير المؤمنين.

تبدَّل وجه «المصحفي» واكتسى حزنًا وقال: منذ متى؟

فائق: منذ أقل من ساعة.

«المصحفي»: رحمه الله، فلن يأتي الزمان بمثله.

ثم اغرورقت عيناه بالدمع.

جؤذر: والآن يا سيِّدي، ما رأيك في صرف الأمر إلى «المغيرة بن عبد الرحمن»؟

«المصحفي»: وننحِّي الأمير هشامًا؟!

فائق: تعلم يا سيِّدي أنه ما زال صبيًّا ولن يقدر على هذا الأمر، وسنشترط على «المغيرة» أن يجعله ولي عهده.

صمت «المصحفي» قليلًا وهو ينظر إلى وجهيهما فعرف أنه مقتول إن خالفهما، فما كان منه إلا أن قال: هذا والله أسدى رأي، وإني أوافق عليه،

والأمر أمركما، وأنا وغيري فيه تَبع لكما، فاعزما على ما أردتما واستعينا بمشورة المشيخة فهو أنفى للخلاف، وأنا أسير إلى الباب فأضبطه بنفسي، وأَنفِذا أمركما إليَّ بما شئتما.

كان «المصحفي» يخشى من الفَتيَين أن يبطشا به وهو بينهما، فأراد أن يداريهما حتى يرى أمره، أما الفَتيَان فقد استحسنا رأي «المصحفي» وانخدعا له واطمأنا فلم يتحرَّكا، وانتظرا تصرُّف «المصحفي» الذي ما إن خرج من أمامهما حتى جمع رجاله وحاشيته وجنده ونعى إليهم «الحَكَم» وعرَّفهم مذهب الفَتيَين في صرف الأمر إلى «المغيرة» قائلًا:

- إن أبقينا على ابن مولانا كانت الدولة لنا، وإن بدَّلنا استُبدِل بنا، فوالله لئن انتقلت إلى «المغيرة» ليطلبن شفاء أحقاده.

«محمد بن أبي عامر»: نِعم الرأي يا سيِّدي الحاجب، وأنت كبيرنا ونحن لك تَبَع.

«المصحفي»: إذن يجب قتل المغيرة قبل أن تشرق الشمس، وقبل أن يصله خبر وفاة «الحَكَم» وبهذا نُبطل تدبير الصقالبة فلا يكون أمامهم إلا التسليم لما أراده مولانا -رحمه الله- فمَن لهذه المهمة؟

صمت الجميع وجبُنوا ونظر بعضهم إلى بعض، وهنا بادر محمد بن أبي عامر قائلًا: يا قوم، إني أخاف فساد أمركم ونحن تَبَع لهذا الرئيس «وأشار إلى «المصحفي» فينبغي ألا نختلف، وأنا أتحمَّل ذلك عنكم إن أنفذني إليه، فخفِّفوا عليكم.

«المصحفي»: وأنت يا محمد أحق بتولِّي كِبَره لخاصتك بالخليفة هشام ومحلِّك من الدولة.

محمد: وأنا لها يا سيِّدي.

«المصحفي»: إذن خذ من الجند ما يكفيك ونفِّذ مهمتك.

أومأ محمد وخرج من المجلس مع طائفة من الجند صوب دار «المغيرة» لقتله، فألفى المغيرة مطمئنًّا لا خبر عنده، بل وتعجَّب «المغيرة» قائلًا:

- ما الأمر الذي دعا صاحب الشرطة العليا إلى زيارتنا في هذا الوقت من الليل؟

- جئتُ أنعي إليك يا سيِّدي مولانا أمير المؤمنين الحَكَم.

ما إن سمع المغيرة الخبر حتى جزِع وحزِن لموت أخيه، ثم بكى، بينما تابع محمد كلامه قائلًا:

- وقد جلس ابنه هشام في الخلافة.

مسح المغيرة دموعه قائلًا:

- السمع والطاعة.. السمع والطاعة، رحم الله أخي.

شعر محمد أن المغيرة صادق في جزعِه وطاعته وبيْعتِه، فتردد في تنفيذ الأمر بقتله، ثم خرج من الدار وأرسل إلى «المصحفي» بحالة وصورة المغيرة.

فردَّ عليه «المصحفي» بقوله: غررتنا بنفسك، اقضِ عليه وإلا وجَّهتُ غيرك يقتله.

ما إن قرأ محمد تلك الكلمات حتى اختنق بها، ولكنه لم يستطع التراجع فيظن به أهل الدولة الخَوار والخوف وينصرف الأمر عنه فصفَّق في رجاله فاقتحموا دار المغيرة وقتلوه خنقًا أمام زوجته وأولاده ودفنوه في مجلسه.

ودخل الحاجب «المصحفي» على الفَتيَين الصقلبيين، فقال لهما وهو يُظهر الحزن والألم:

- مات المغيرة، لقد قتل نفسه.

قال ذلك وهو ينظر إلى أعين الفَتيين اللذيْن أُسقط في أيديهما وتملَّكهما السَّخط والرَّوع للحظات، ثم بادرا إلى الحاجب وتقدَّما منه وتظاهرا بالرضا والاستبشار قائِليْن:

- لتكُن إرادة الله وعِزٌّ لمولانا أمير المؤمنين هشام أيَّده الله، ونحن يا سيِّدي نعتذر لك عما بَدَر منَّا من سوء فَهم وتخطيط، فلا أحقَّ من الأمر إلا صاحبه، ونحن مواليه وغِلمانه نقوم في خدمته كما كنا نقوم بخدمة الحَكَم رحمه الله.

الفصل الخامس

«بُويع هشام الملقَّب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى، وأدركت الجَنَى، وبلغ طوْرُها، وانتهى دورُها، فكانت كمَامة ثم زهرة بسَّامة، ثم ثمرة بهيَّة، ثم فاكهة شهيَّة، وكان بكرسيِّ العامرية مجْلاها، ثم تلاها ما تلاها، وأرخص الخطوط من أعلاها، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه، والمصْر قد عظمت مزاياه ومزاينه، والملك تعوَّذ بالله، أن لا يصيبه عائنُه الذي يعاينه، والمباني قد بلغت السماء سموًّا، وزاحمت الكواكب علوًّا، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصي الاهتمام، وفرغت بناتها من لَبِنات التمام، والآثار الصالحة قد تخلَّدت، والمآثر الواضحة قد تعددت، والأذهان في بسْطة الإسلام قد تبلَّدَت، ورسم الخلاف قد امَّحَى، والدَّولة المروانية قد برَكت وسط المرعى، والدعوة قد انتشرت في المغرب الأقصى».

ابن الخطيب

ارتدَت قُرطُبة وكلُّ الأندلس البياض حزنًا على الخليفة الراحل الذي كانوا يسمون أيامه بأيام العروس، لطيبها، واستقرار الأمر فيها، وسواد العدل والأمان، واندحار النصارى، وجلس الصبي الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره في كرسيٍّ جلس عليه الناصر والحَكَم من قبل، فلم يبلغ منتهاه، ووقف بجوار الخليفة فِتيان أبيه، وتقدَّم الحاجب «المصحفي» منه فقبَّل يده ودعا له وبايعه على السمع والطاعة في المغنم والمغرَم، ثم تلاه صاحب الحشَم والشرطة العليا «محمد بن أبي عامر» فبايع، ثم بايع الأعمام من أبناء الناصر والأقارب من أبناء الخلفاء السابقين والوزراء والكبراء. وتولَّى أخذ البيعة له الحاجب «جعفر» و«محمد بن أبي عامر» ولم يعترض أحد على توليته، وهكذا تمَّت البيعة لهشام المؤيد، بين يوم وليلة، وقضى على كل معارضة، وتوارى الأعمام وبنو العم، واجتمعت مقاليد السلطة في أيدي رجُلين، هما الحاجب وصاحب الشرطة العليا، واستمر أخذ البيعة أيامًا، وكُتب بها إلى الأقطار، فلم يردَّها أحد.

وما إن فرغ الناس من مبايعة الخليفة الجديد حتى قال قائلهم: كيف يبدأ العهد الجديد بإراقة دم أبناء الخلفاء؟ وأيُّ خليفة؟ إنه ابن الناصر، ذلك الرجل الذي كان له في قلوب كل الأندلسيين حب عظيم. وبدأ العامة يتحدثون فيما بينهم يتَّهمون ويحكمون.

فقال أحدهم: لم يقتله سوى «محمد بن أبي عامر» هذا الذي خرج منا وصار منهم.

وقال آخر: لم يقتله بيده، وإنما نفَّذ ما أُمِر به وهو صاحب الشرطة العليا.

الأول: فما الفرق بينه وبينهم إن كان يأتمر بهم ويرى رأيهم؟

آخرون: أجل، إنه «محمد بن أبي عامر» هو من قتل وأراق الدماء.

وانتشرت تلك الأقاويل في قُرطُبة حتى وصلت إلى مسامع صاحب الشرطة العليا، وكان يجلس في إيوانه، فدخل عليه «عمرو» وقال:

- لقد صار مقتل المغيرة هو شغل القرطبيين الشاغل، يقولون ابن سيدنا ويلومون من قتله.
- وهل علموا من قتله؟ ألم نقُل لهم ونشيع فيهم أنه قتل نفسه.
- الحقيقة لا يمكن إخفاؤها يا أبا عامر.
- ولكن يتهمونني وينسون «المصحفي»، فوالله لقد حاولت أن أحقن دمه، ولكن «المصحفي» أبى إلا أن أقتله.
- هذا حديث الخاصة يا أبا عامر، أما حديث العامة فهم يعلمون أنك القاتل.

وقف محمد وقال:

- يجب إيصال الحقيقة لهم.
- كيف ذلك؟
- بُث فيهم من يقول لهم إن «المصحفي» هو من أمر بذلك، أخبرهم بأن أبا عامر واحد منهم، وأنه رفض ذلك وحاول مع «المصحفي»، ولكن «المصحفي» رفض وتجبَّر، عندها يحقدون على «المصحفي» وينسون ما حدث مني، والعامة يا عمرو تتقلَّب ذاكرتهم بتقلُّب المواقف، فينسون القديم ويتذكرون الحديث، أحداث يَجُبُّ بعضها بعضًا، فأشغلهم عني بغيري وعوِّل على تلك الصحبة القديمة فتواصل معهم.

(1)

انقسم أهل القصر إلى معسكرين؛ معسكر الصقالبة ويتزعَّمه «فائق» و«جؤذر» ومعسكر الأحرار ويتزعمه الحاجب «جعفر» و«محمد بن أبي عامر» وكان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء ستار، تلك هي «صُبْح» البشكنسية حظيَّة «الحَكَم» وأم ولده «هشام» الخليفة الصبي، وكانت قد مُنحت الوصاية على ولدها، واكتسبت بذلك صفة شرعية في الاشتراك في الحُكم وتدبير الشئون، وكان بين الرجلين تباين يَفيد منه «ابن أبي عامر» فقد كان الحاجب «جعفر» على ما يُبديه من التواضع والبِشر والترفُّق بالناس، قليل الجُود، مؤثِرًا لجمع المال، وكان ابن أبي عامر على نقيضه في ذلك، فكان واسع البذْل والجُود، حريصًا على اصطناع الرجال، وكانت داره الفخمة بضاحية الرصافة، مقصد الناس من كل صوب، ومائدته مُعدَّة دائمًا، وكان بذلك كله يخلق جوًّا من الحب والإعجاب، ويجتذب الصحْب والأنصار بسِحر خِلاله، ووافر بذْله، ومروءته، وبراعة وسائله وأساليبه، وكان «ابن أبي عامر» منذ أن تولَّى أموال «عبد الرحمن» ثم أخيه «هشام» قد عرف لصُبْح قدرها، وكان يعلم مدى تأثيرها على الحَكم وفِعل النساء على الرجال، و«صُبْح» امرأة جميلة، وكانت علائق الحب قد نمت بينها وبين محمد، ولكن ورغم موت الحَكم لم يفكر محمد في الزواج بها؛ ذلك لأنها أم الخليفة فلا يصح له ذلك، حتى قالت له بعد وفاة «الحَكم» وكانت تجلس وسط حدائق الزهراء بين وصيفاتها:

- أحببتك يا محمد ذلك الحب العظيم وكنت لا أملك من أمري شيئًا، فلمَّا مات «الحَكَم» وتحررت بعض الشيء لم يحدث ما أريد ولن يحدث؛ فذلك السلطان يا محمد نحكم به ويحكمنا.
- لكني دائمًا ما سأكون تحت نظرك وفي خدمة الخليفة ابنك هشام، ومهما حدث فستظلين تلك المرأة الجميلة التي سلبت لُبِّي وعقلي وكانت بجانبي في كل أمر حتى وصلت إلى ما أنا فيه الآن.
- حتى إن كان حبًّا بلا أمل؟

- بلا أمل وكل الأمل؛ ولكنه ذلك الحب الذي يُنعش الروح ويُطلقها من محبسها لتهيم أبد الدهر، أوَإن الحب غايته لقيا الأبدان؟! إن أسمى غاياته لقيا الأرواح، وإلا فما حال رجل أحب امرأة وتزوجها، ولكنها لم تحبه؟ وكذا حال المرأة إن أحبت وتزوجت منْ لم يحبها، فتحقق لها اجتماع الجسد ولم يتحقق اجتماع وتلاقي الأرواح.

تنهدت «صُبْح» آخذة نفسًا عميقًا وقالت:

- يكفيني منك ذلك.
- والآن، وقد حدث ما حدث وأصبحتِ السلطانة والوصيَّة على الخليفة، فلن أدخل هنا كمتعهد لأموال الخليفة، ولكن أدخل للسلطانة الوصية على الخليفة، ما يعني كثرة وجودي هنا وحديثي معك.
- وماذا عن «هشام»؟ أخشى أن ينتبه لما يحدث فيتغير قلبه علينا وهو الخليفة، وإن كان صغيرًا فلن يظل صغيرًا أبد الدهر.
- لا أريد لشيء أن يمنعني ذلك الحب وهذا القرب، وقد رأيت أن نشغله باللهو واللعب مع الخِصيان والجواري، وبذلك يبتعد عن أمور الحُكم ويتركنا وهو بعد صبي لا رأي له.

وافق ما يقوله محمد هوًى في نفس «صُبْح» فوافقته على ما قال، فهي الحريصة على تولية ولدها لتحكم باسمه، فإن انشغل باللهو واللعب تحققت غايتها في إنفاذ كلمتها، حتى إذا كبر لم يجد إلا الاستماع لوالدته.

أما محمد، فقد كان طبيعيًّا كذلك أن يؤازر صاحبته المحسِنة إليه، ليستمر بواسطتها محتفظًا بسلطانه ونفوذه، بل ويزيد، أما الحاجب «جعفر» فقد كان له مثل ذلك الباعث في تولية هشام، إذ كان يخشى من تولية المغيرة وأوليائه الصقالبة على نفسه وعلى سلطانه، وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين هؤلاء الثلاثة، الذين قُدِّر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية، ولكن هذا التحالف الذي أملته الضرورة المؤقتة، لم يكن طبيعيًّا، ولا سيما بين الحاجب «جعفر» ومنافِسه القوي «محمد بن أبي عامر».

وكانت العلائق بين «صُبْح» و«ابن أبي عامر» تزداد كل يوم توثيقًا، ولا سيما منذ وفاة «الحَكَم» وكان «ابن أبي عامر» يرى في تلك المرأة التي تجتمع في يدها السلطة الشرعية بوصايتها على ولدها الطفل، أداة صالحة هيِّنة يستطيع أن يُخضِعها لإرادته، ويسخِّرها لمعاونته على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى. وكانت «صُبْح» من جانبها تُغدق كل عطفها وثقتها على هذا الرجل القوي الذي سحرها بخِلاله وقوة نفسه وباهر كفاياته، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذي يشغله ولدها الفتى، فلم تمضِ أيام قلائل على تولية هشام حتى عيَّن حاجب أبيه «جعفر المصحفي» حاجبًا له، ورقَّى في نفس الوقت «ابن أبي عامر» من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة، وجعله معاونًا للمصحفي في تدبير دولته، وبذلك أشرك «ابن أبي عامر» في تولِّي السلطة المباشرة مع «المصحفي»، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار، سوى الحاجب «جعفر» فقد كان يرى في هذا التعيين انتقاصًا لسلطته ونُكرانًا لجميلِه بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهرًا، وكان يرى في «ابن أبي عامر» بالأخص منافسًا يخشى بأسه، ويرتاب في نيَّاته وأطماعه.

❀❀✻❀❀

(2)

لم ينم محمد ليلته تلك، بل قضاها في التفكير في استغلال ما يحدث، فحدَّد خصومه ورأى أن أول من يجب التخلُّص منهم هم الصقالبة، ذلك لقربهم من الخليفة ولنقمة العامة عليهم، فأراد أن يتقرَّب من العامة بالبطش بهم، وأن يخلعهم عن الخليفة فلا يحمونه، وكأنه أراد أن يبعد عن الخليفة أي حماية ممكنة غيره، وما إن أقبل الصباح حتى ارتدى ثيابه وذهب إلى الزهراء والتقى صُبْح وقال لها:

- الصقالبة ما زالوا منذ أمد يتحدَّثون عنَّا وعن علاقتنا، ولا أظنهم يسكتون أبدًا حتى يثيروا العامة علينا، وهم كُثر بالزهراء إذ يصل عددهم أكثر من ألف، فهم قوة يجب عمل حساب لها.

- فماذا ترى؟

- أرى وجوب إبعادهم أو تطويعهم، وإن كنت أرى أن كبراءهم لن يُفلح معهم ذلك وقد كانوا يريدون «المغيرة».

- أتقصد «فائقًا» و«جؤذرًا»؟

- أجل، فقد أرادا صرف الخلافة عن سيِّدي هشام، فلما أُسقط في أيديهما رضِيا بما فعلنا، ولكن لا أستبعد أبدًا تدبيرهما للخليفة، ومن يدري، فلعلَّهما يتوصلان لأحد من بني أُميَّة فيجعلانه مكان الخليفة والقصر في أيديهما، بل والخليفة نفسه تحت سلطانهما وإن كان هو السلطان.

صمتت «صُبْح» وعبس وجهها ورأت أن حديث محمد هو الحق والصدق، ثم نظرت إلى «محمد» وكان يترقَّب حديثها، فقالت:

- لقد أوليْناك ثِقتنا يا محمد، فلتفعل ما هو خير للخليفة ولنا.

- إذن، هذا كتاب قد أعددته للخليفة ولا ينقصه سوى توقيع مولانا عليه وخاتمه، وأنا أرجو أن تساعديني في ذلك.

- لن آلو جهدًا، وكيف أفعل وأنا أعلم أنك إنما تحافظ على الخليفة والخلافة.

ثم تناولت الكتاب من «محمد» ونهضت ودخلت على «هشام» وكان جالسًا وحيدًا، فجلست بجواره، ثم دخل خلفها «محمد» وقال:

- مولاي، أريد توقيعك على هذا الأمر بإغلاق باب الحديد المخصص للصقالبة، وذلك لإجبارهم على الدخول من باب السُّدة.

- ولِمَ تفعل ذلك؟

- حتى يكونوا تحت أعيننا فلا يدخل عليهم أحد إلا عرفناه.

نظرت «صُبْح» إلى ولدها وقالت:

- إنَّ «أبا عامر» يريد صالح الخلافة ويريد القضاء على أعدائك، فأعِنه بتوقيعك يا ولدي.

ثم فتحت الكتاب أمام «هشام» الذي وقَّعه دون أن يقرأ المكتوب فيه، وخرج محمد من أمام الخليفة الصبي إلى إيوانه بالزهراء وجلس على كرسيه وهو يقرأ أمر الخليفة الذي لم يكتبه الخليفة، وفكر قليلًا وقال في نفسه: «يجب استخدام الحيلة قبل أن أنفِّذ هذا الكتاب؛ حتى لا يثوروا».

وفي تلك الأثناء حضر ابن عمه ومساعده «عمرو» الذي لاحظ صمته فقال له:

- ما الذي أهمك يا صاحب الشرطة العليا؟

لم يرد محمد على صاحبه، ولكنه قال له:

- أرسِل من يستدعي الفتى «سكر».

- سأستدعيه بنفسي.

خرج «عمرو» من إيوان صاحب الشرطة ليعود ومعه الفتى «سكر» الذي قال:

- استدعيتني يا «أبا عامر».

- اجلس يا «سكر».

- العفو يا سيِّدي.

- عزمت عليك فافعل.

جلس الفتى «سكر» وهو مترقِّب، بينما جلس «عمرو» على كرسي آخر، وجلس محمد أمامهم فنظر إلى «سكر» وقال:

- أنتم جماعة الفِتيان زينة الدولة، وفيكم الخِصيان يختلطون بنساء القصر وجواريه، ومنكم الفحولة يقومون على الخدمة، وهم أقرب الناس إلى الخليفة، تخالطونه وتحدِّثونه ويستمع منكم، وأنتم بعد ذلك دِرعه وخَدمه، ولكن.. لكني نظرت في الفِتيان فوجدتك متأخرًا ووجدت المتقدمين هم من لا يستحقون ذلك، فلماذا يتقدَّم «فائق» و«جؤذر» على أمثالك؟

وبين نظرات «سكر» وذكاء وحُسن تدبير «أبي عامر» بدأ «سكر» يشعر بذلك الظلم الواقع عليه، فاستطرد «أبو عامر» يقول:

- لكن لكل شيء أول.

- أنا طوع أمرك يا سيِّدي.

- نريد أن نجعلك كبير الصقالبة هنا، فنحن نعرف لك حقك وقدرك، وهذا أمير المؤمنين هشام المؤيد -حفظه الله- قد أولاني أمركم، وقد فكَّرت فلم أجد غيرك أستعين به وأقدِّمه فتأتمِر بأمري، لا تأخذ أمرًا إلا منِّي، ولا تنفِّذ أمرًا إلا لي.

ثم مدَّ يده إلى صندوق من المال فأخذ منه ودفع إلى «سكر» وقال:

- استعن بهذا المال على جذْبِ أصحابك من الخِصيان والفحولة، إلا من بغى منهم ولم يستمع النصح، فهؤلاء لا أريدهم.

- هذا شرف عظيم لي يا «أبا عامر».

- فلتكُن على قدر ما كُلِّفت به.

- سترى مني ما يسُرك.

- لكن دع أمر «فائق» و«جؤذر» لي لا تقترب منهما ولا تحدثهما، واجعل حديثك مع خاصتك من الصقالبة سرًّا لا يعرفانه حتى لا يُفسِدا عليك أمرك، والآن، امضِ راشدًا.

خرج الفتى «سكر» فنظر «عمرو» إلى «محمد» وقال:

- الآن يا محمد.

وقف محمد وتحرَّك صوب الباب، ثم نظر إلى الصقالبة العاملين في الزهراء وقال:

- لقد صبرت وصبَّرت العامة كثيرًا، وقد حان وقت الوفاء.

قال ذلك ثم خرج من إيوان صاحب الشرطة ودخل على «المصحفي» وكان يقلِّب في أوراق أمامه فنظر إليه وقال:

- سيِّدي الحاجب.

- ما الأمر يا أبا عامر؟
- الصقالبة يا سيِّدي ما زالوا يتحدثون ويمكرون، فهم لم ينسوا ما فعلناه بهم وقتْلنا مرشَّحهم للخلافة.
- أعلم ذلك، ولكن ما الحيلة وهم كُثر، وفي الزهراء موطن قوتهم.
- يجب التخلص منهم قبل أن يفعلوا، فمن يدري لمن يدبرون ومع من يتواصلون.
- وكيف ذلك؟
- دعهم لي فأنا كفيل بهم، فقط أعِنِّي «ببني برزال» واجعلهم تحت أمري.
- «بنو برزال»؟!
- أجل، فهم قوة لا يُستهان بها، وتحت يد سيدنا الحاجب ما يغنيه عنهم.
- مممم، لا بأس إن كنت بذلك ستتخلص من الصقالبة وتكفينا شرَّهم.

ابتسم محمد وخرج من أمام «المصحفي» وقد بلغ غايته، ولم يكن «المصحفي» يعلم أن محمدًا إنما يوطِّد لنفسه ويبني جيشًا ورجالًا كانوا اليوم معه ومع الخليفة ليبطش بعد ذلك بمن خالفه.

ولم يمر يومان إلا وكان «أبو عامر» قد أعطى أوامره بإغلاق باب الحديد المخصَّص لدخول وخروج الصقالبة، فلما علِم «فائق» و«جؤذر» بذلك جُنَّ جنونهما، فذهبا إلى محمد وهما يحملان غضبهما بين أيديهما وفي أعينهما وقالا له:

- باب الحديد هو الباب المخصَّص لنا منذ الناصر -رحمه الله- فكيف لك أن تغلقه.
- إنه أمر الخليفة وعليكم أن تعملوا به.

ثم دفع لهما بكتاب هشام المؤيد فقرآه وخرجا وهما يُضمِران الشر.

ولم يمضِ سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتى «جؤذر»، وشعر الصقالبة بأن نجمهم قد أفل، وسلطانهم قد انهار، فسرى بينهم التذمر، واجتمع المتمردون حول فتًى منهم شديد البأس من الفحولة، هو الفتى

«دري»، فتفاهم الحاجب وابن أبي عامر على إزالته، فدُعِي إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نُسبت إليه وإلى عُمَّال من رعيته في بياسة؛ ولمَّا قدِم ورأى كثرة الجند شعر بالشر، فأراد العودة، فمنعه ابن أبي عامر، فهجم عليه وأراد أن يبطش به، فصاح ابن أبي عامر بالجند، فهرع إليه «بنو برزال» وانهالوا عليه ضربًا، ثم حُمل إلى داره وقُتل في نفس المساء. ورأى «ابن أبي عامر» الفرصة سانحة لسحق الصقالبة، فأمرهم وباقي زعمائهم بالتزام دورهم، ففرَّق بذلك شمْلهم. ثم جدَّ في مطاردتهم واستصفاء أموالهم، وفشى فيهم القتل والنفي، حتى هلك الكثير منهم، وأُبعد الفتى «فائق» في النهاية إلى «ميورقة» فمات هناك، وانهار بذلك سلطان الصقالبة، وأمِن الحاجب وزميله ابن أبي عامر شرَّهم، وتقلَّد الحاجب «جعفر» أمر القصر والحَرم بدلًا منهم، وسعدت قُرطُبة كلها بهلاك الصقالبة.

❀❀✻❀❀

(3)

تلبَّدت السماء بالغيوم وخرج «محمد بي أبي عامر» في صاحبَيه إلى نواحي قُرطُبة، حتى إذا حلَّ بهذا المكان نظر إلى النخيل وقال: تُرى، أيُّهن نخلة الداخل؟ تلك النخلة التي جلبها من المغرب وكان يقول لها:

يَـا نَخْـلُ أَنْـتِ غَرِيبَـةٌ مِثْلِـي
فِـي الْغَـرْبِ نَائِيَـةٌ عَـنِ الأَصْلِ

فَابْكِـي وَهَـلْ تَبْكِـي مُكَيَّسَـةٌ
عَجْمَـاءُ لَـمْ تُطْبَـعْ عَلَـى خَيْلِ

لَـوْ أَنَّهَـا تَبْكِـي إِذًا لَبَكَـتْ
مَـاءَ الْفُـرَاتِ وَمَنْبِـتَ النَّخْـلِ

لَكِنَّهَـا ذَهِلَـتْ وَأَذْهَلَنِـي
بُغْضِي بَنِـي الْعَبَّاسِ عَـنْ أَهْلِي

عمرو: لا بد أنها تلك. «وأشار إلى أطولهن».

محمد: وأنا أظنها كذلك، انظروا، ألا يصلح هذا المكان لإقامة مدينة ملكية جديدة.

ابن المارعزي: أوَيحتاج مولانا هشام لمدينة أخرى غير الزهراء؟!

محمد: أما هشام، فلن يكون بحاجة إلى مدينة غير الزهراء.

وبين تعجُّب «ابن المارعزي» وصمْت «عمرو» ابتسم محمد الذي لم يُرِد أن يُفصح أكثر من ذلك، ثم تحرَّك الجميع حتى دخلوا الزهراء، وقد كان محمد ما يزال يعلم أن مفاتيح الخلافة ووصوله إلى أعلى سُدَّتها في يد «صُبْح» فتابع تقرُّبه منها وحاول أن يُنحِّي الحاجب «المصحفي» ويبعده عن الخليفة قدر الإمكان، وخصوصًا أن الخليفة لم يكن يجلس في إيوان حكمه، بل كانت جلساته بين الفتيان والجواري وأدوات اللهو، فقد كان «المصحفي» هو الخصم التالي بعد الصقالبة.

وفي حدائق الزهراء، وتحت إحدى اشجار البرتقال كانت «صُبْح» تجلس وأمامها منضدة كبيرة بها الشراب والطعام، وحولها بعض الجواري يقُمن على خدمتها، وعلى بُعد منها يلهو هشام ويلعب.

نظر محمد إلى هشام، ثم ارتدَّ ببصره صوب «صُبْح» وقال:

- لقد بَدَا لي رأي وأردت أن أشاروكِ فيه قبل عرضه على الخليفة.
- ما هو؟
- لقد زادت شكوى الناس من ضريبة الزيتون، فلو أمر مولاي «هشام» بإسقاطها كان ذلك مما يُحمد له ويُقرِّبه من العامة أكثر.
- نِعم الرأي يا محمد.
- إذن فلنكتب الكتاب ويوقِّعه الخليفة يا سيدتي.
- سيِّدتُك! فمتى تقولها يا محمد دون أي ألقاب «صُبْح»، أم تريدني أن أقول لك يا أبا عامر.
- لكن....

- أريد سماعها يا محمد.

- صُبْح.

- ما أجمل تلك الحروف منك يا محمد.

- بل الأجمل منها هو هذا الوجه وتلك الحروف التي تصنع اسمك.

وما كاد «محمد» ينهي تلك الكلمة حتى أقبل «هشام» وجلس بجوار أمه التي قالت: لقد رأى وزيرك «أبو عامر» أن تُسقط عن العامة ضريبة الزيتون، وبها تتقرب من الناس ويحبُّونك.

محمد: كما أرى يا سيِّدي أن تخرج إليهم في موكب عظيم وتُسقطها بنفسك وأنت بينهم، فيحمدوا الله على نعمته ويشكروا الخليفة، وبهذا يتوطد سلطان مولانا هشام.

لم يكن هشام يملك الرفض أو القبول، فوافق على ما قدَّموه له، وهكذا وكما وطدَّت له عند «الحَكم» آزرته أمام هشام الصبي، ولم تكن هذه المؤازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم الذي تضطرم به جوانح «صُبْح» نحو ذلك الرجل القوي، ولكنها كانت أيضًا ترجع إلى ثقة «صُبْح» في مقدرته وبراعته، وفي كونه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحمي مُلك ولدها الفتى، وأن يوطِّد الأمن والسلام في المملكة.

وقد كان ابن أبي عامر في الواقع هو السيد المطلق، وكانت «صُبْح» تفوِّض إليه كل سلطة وكل أمر، فكان يدير الشئون كلها بمهارة، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء، ولم يمْضِ الكثير من الوقت حتى خرج مرسوم الخليفة بتعيين «أبي عامر» مندوبًا للحجابة بحكم دخوله على الخاصة، فكان محمد بذلك يتنقل ما بين الحاجب والخليفة، فكان الخليفة لا يلتقي سواه.

(4)

تكاتفت السحب المظلمة فحجبت الشمس، حتى خُيِّل أنه الليل وأن الغروب قد حلَّ، وما هي إلا لحظات حتى ألقت السحب بأمطارها شديدة غزيرة على غير عادتها في هذا الوقت من العام، ووسط أصوات المطر ورائحته الجميلة، كان هناك فارس يمتطي صهوة جواده ويضرب بفرسه في طرقات «برغش» عاصمة قشتالة وهو لا يعبأ بشدة المطر ولا بالمياه التي أغرقت ثيابه، حتى إذا اقترب من قلعة «برغش» نزل عن صهوة جواده متسارعة أنفاسه، يتصبب عرقًا رغم برودة الجو.

دخل الفارس فورًا إلى القلعة ففُتحت له أبوابها، فخلع خوذته وتقدَّم صوب «غرسيه فرناندز» وقال: أجل سيِّدي، لقد تأكدت بنفسي.

نهض «غرسيه» من على كرسيِّه فرحًا وقال:

- صبيٌّ يحكم قُرطُبة؟
- أجل.
- هذا يعني وقوع فتنة لا محالة وتصارع على العرش، فلم يحكم صبي من قبل إلا وطمع في مُلكه رجال أقوياء كان يعُدهم رجاله.
- كنت أظن أنهم سيتَّعِظون مما حدث لنا عند وفاة سانشو وتصارع الكونتات على الحُكم، ولكنه حُب الولد وسيطرة النساء.
- أما أنا، فقد عرفت «الحَكم» حكيمًا ورجلًا عظيمًا، وما كنت أظن أنه سينزلق ببلاده في تلك الهوَّة، نعم جميعنا يحب الولد، ولكن كان له في أسلافه خير قدوة لو أراد.
- أنا لست مثلك يا سيِّدي ولا أعلم ماذا تقصد.

أخذ «غرسيه» نفسًا عميقًا وعاد إلى كرسيه قبل أن يقول:

- لقد عكفت على قراءة تاريخ هؤلاء فوجدت فيهم العجب العُجاب.

رفع «جون» القشتالي حاجبه مستفهمًا، فأردف «غرسيه» يقول:

- لم تكن تلك السلالة الحاكمة في قُرطُبة يحكمها حب الولد قدر مصلحة بلادهم، فهذا أميرهم المسمَّى «عبد الرحمن الأول» نصَّب ابنه «هشامًا» وليًّا لعهده، وكان هناك من هو أكبر منه، وهو المدعو «سليمان» وأيضًا أميرهم «عبد الله بن محمد» هذا الذي تجاوز أبناءه ورشَّح حفيده «عبد الرحمن» الناصر لخلافته، ومن قبله «المنذر» الذي رشَّح أخاه «عبد الله» فكيف يأتي الحَكم المستنصر بما لم يفعله أحد من قبله؟ والله لتكوننَّ فتنة عظيمة لها ما بعدها، وسيكون هشام هذا هو بداية انسحاق المسلمين من الأندلس، أجل يا «جون»، فعندما تعلو نار الفتنة في دولة، فهي لا تخبو إلا بعد زوال تلك الدولة أو تقطُّعها ولو بعد حين.
- إذن فلنعم ما صنع الرجل، وقد صدقت يا سيِّدي، فلقد عرفت أن بوادر تلك الفتنة قد بدأت، وأن وزراء الحَكم صار يضرِب بعضهم بعضًا.
- وهذه فرصتنا، أن نستغل انشغالهم بتقسيم هذه المملكة العظيمة ونقتطع منها ما نستطيع.

❀❀✻❀❀

(5)

دبَّ هرج في أحياء قُرطُبة مع توالي الأخبار بهجوم القشتاليين على ثغور الأندلس، فشعر أهل الأندلس بفقدان الطمأنينة التي سادتهم منذ قرون وخصوصًا زمنَي الناصر والحَكم، وجلس الناس يتساءلون أين جيش الخلافة مما يحدث حتى حاصر القشتاليون قلعة «رباح» ثم عبثوا في أنحاء قُرطُبة نفسها، وبدأ الناس يُلقون باللوم على الخليفة الصغير وعلى حاجبه «المصحفي»، وتطايرت تلك الأخبار ووصلت إلى «غالب الناصري» الذي لم يتحرك من مدينة سالم وقرر الاعتصام بها، فقد كان «غالب» يريد استغلال الموقف في إحراج مدبِّر الدولة «الحاجب «المصحفي» إذ كان يعلم بخوَاره وضعف رأيه وتردُّده، فضلًا عن عدم معرفة «المصحفي» بأمور الحرب فقد

كان الجميع يعلمون أن «المصحفي» لم يصل للحجابة بنباهته، ولكن بصداقةٍ بينه وبين «الحَكم المستنصر».

لم يتحرك «المصحفي» بالفعل ولم يفعل شيئًا لحفظ هيبة الأندلس وخليفتها، وهنا شعر «محمد بن أبي عامر» أن الفرصة قد سنحت له، فدخل على أمِّ الخليفة وكانت دائمًا بوابته لنيْل ما يريد، فتحدث إليها قائلًا:

- قلعة «رباح» محاصرة، والقشتاليون يعربدون في أحواز قُرطُبة، فقد أحسن هؤلاء استغلال الموقف جيدًا، فدفعوا غاراتهم جنوبًا ووصلوا إلى القرب من العاصمة ذاتها.

وقفت «صُبْح» وهي متحيرة لا تدري ماذا تفعل، ثم قالت:

- و«المصحفي»، ماذا فعل؟

- للأسف، لم يُبدِ أيَّ همة في حفظ هيبة الدولة، بل اكتفى بإلقاء اللوم على «غالب الناصري»، ثم أمر من في قلعة رباح بالدفاع عنها، ولكن أي دفاع وهم محاصرون؟! فوالله لو لم ننجدها لضاعت هيبة الخلافة والدولة.

شعرت «صُبْح» بثِقل المهمة المُلقاة على عاتقها، وأنها وابنها قد أصبحا في موقف لا يحسدان عليه، فقالت وكأنها تبحث عمن يخفف عنها ويرشدها:

- فما العمل إذن؟

- يجب أن يتحرك جيش الحضرة لمعاقبة هؤلاء الذين ظنوا أن وفاة «الحَكم» فرصة سانحة لهم للعدوان علينا، يجب أن يعلموا أن عهد «هشام المؤيد» هو امتداد طبيعي لعهود الناصر والحكم -رحمهما الله- لهذا فإني أريد الخروج على رأس هذا الجيش، إذ لا قيمة لجيش والسيوف في غِمْدِها.

- وتخرج بنفسك يا محمد؟!

- وهل تشُكِّين في قدرتي على قيادة الجيش؟!

- لا أشك أبدًا، ولكني أخشى عليك.

- لا تخشَي عليَّ، فأنا لست بالغِر، وتذكَّري أن مصيري ومصيرك ومصير الخلافة كلها مرهون بدحْر هؤلاء.

- إذن عُد إلينا سالمًا غانمًا.

نظر «محمد» إلى «صُبْح» نظرات حب ووُدٍّ وبادلته تلك النظرات مع بعض الخِشية عليه.

وما إن استدار إلا وقد مُلئت روحه نشوة عظيمة وشعر أنه أخيرًا قد تسلَّم قيادة هذا الجيش الذي كان يُعده لمثل هذا اليوم، وقد كان يعلم أن الجيش هو عصب كل سلطة وأن لا سلطة بلا جيش.

دخل «محمد» دار الحجابة وكان فيها «المصحفي» وابنه وابن أخيه «عثمان» وبعض وجوه القوم، فتقدَّم «محمد» وقال:

- قد حدث ما تعلمون من هجوم النصارى على الثغور حتى شارفوا على أحواز قُرطُبة.

«المصحفي»: لم يحدث ذلك إلا لأن «غالب الناصري» جَبُن عن لقائهم وقصَّر في الدفاع عن الحدود والثغور.

محمد: مهما يكن فقد حقَّ علينا تأديبهم، وقد جهَّزنا جيش الحضرة لمثل هذا الأمر.

«المصحفي»: لكن جيش الحضرة غير متمرِّس في قتال العدو.

محمد: وإلى متى يظل هكذا؟ يجب الآن أن يشترك هذا الجيش في الدفاع عن الثغور.

«المصحفي»: فمن يقوده؟

محمد: أنا، ولكن أريد لهذه الهمة مائة ألف دينار ذهبي.

نظر «عثمان» إلى «محمد» وقال: مائة ألف! إنه مال كثير.

همْهَم الجلوس ونظر بعضهم إلى بعض وقالوا مِثل قول «عثمان».

نظر «محمد» إلى «عثمان» وقال: خُذ ضعفها وامضِ ويَحسُن غناؤك.

نظر «المصحفي» إلى ابن أخيه فكأن محمدًا قد ألقمه حجرًا فتنهَّد «المصحفي» وقال لمحمد: لك ما طلبت من مال يا أبا عامر.

ابتسم «محمد» ابتسامة يغيظ بها عثمان ثم خرج من دار الحجابة، فنظر «عثمان» إلى عمه وقال: كيف له أن يأخذ كل هذا المال، والله إنه مال كثير.

«المصحفي»: قد قالها لك، فهل تأخذ ضِعفها وتغنِي غناءه.

عثمان: لا عِلم لي بأمور الحرب.

احتدَّ «المصحفي» وقال: فاصمت ولا تُشمته بنا، فوالله إني لأعلم أن هذا المال كثير، ولكن لا حيلة لي، ومن يدري، فلعله لا يرجع إلينا، فقد والله ثقُل عليَّ وجوده هنا في قُرطُبة.

ارتدى «محمد» ثياب الحرب فبدَا جميلًا فيها وكأنه وُلد محاربًا، وخرج من «قُرطُبة» وسار شمالًا إلى أراضي «قشتالة» ثم عطف غربًا حتى أحواز «شلمنقة» وحاصر حصن «الحامة» «Los Banos» (الحمامات)، في جنوب بلدة «بخار» في السفح الغربي لجبال «جريدوس» ثم استولى على الحصن وربضِه، وهرب القشتاليون المحاصرون لقلعة رباح، فقفل راجعًا إلى قُرطُبة مثقلًا بالأسرى والغنائم، وذلك لثلاثة وخمسين يومًا من خروجه إلى الغزو.

وكان لهذا الظفر الحربي الأول الذي حُقِّق على يد «ابن أبي عامر» أكبر الأثر في نفوس الجند، ونفوس الشعوب قاطبة، فقد رأى الجند فيه قائدهم المظفَّر، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه، ورأى فيه الشعب حامي المملكة والمدافع عنها، وكانت لهذه البداية نتائج بعيدة المدى، ولم يترك محمد إبَّان عودته إلى قُرطُبة وسيلة لجذب الجند والعامة إلا وفعلها حتى إنه كان ينثر عليهم المال والذهب.

وما إن وصل إلى قُرطُبة حتى ذهب إلى الزهراء ودخل على الخليفة الصغير فوجده جالسًا بجوار السيدة «صُبْح» فتقدَّم وسلَّم على الخليفة وأمه، فقال له «هشام»:

- حمدًا لله على سلامتك يا أبا عامر.

وبين نظرات خفية متبادلة بين صُبْح ومحمد ردَّ محمد قائلًا:

- لقد أحرزنا نصرًا عظيمًا يُنسب لدولتكم يا مولاي.
- هل التقيت بحاجبنا قبل دخولك علينا؟
- ما أردت أن يعرف أحدٌ الخبر قبلك يا سيِّدي.
- ولكنه حاجبُنا يا أبا عامر.. حاجبُنا.
- كنت أحرصَ على إدخال السرور على قلب مولانا بما فعلنا في خِلافته ودولته، فنسيت إخبار «جعفر».
- بل أراك تريد إبعاد «جعفر» من أي شيء، ولكن لا بأس ما دامت أمي السلطانة راضية بذلك.

استشعر محمد ما قد يدور برأس الخليفة الصغير وشعر بحِدة ذكائه، كما استشعرت «صُبْح» ذلك، فوضعت يدها على فخذ ابنها وقالت:

- لم يفعل «المصحفي» شيئًا حيال هجوم القشتاليين على ثغورنا يا ولدي، ولا يحق لأحد أن يمنع خبرًا من الوصول إليك، وهذا وزيرك ومتعهدك منذ وُلدت لم يُمنع يومًا عنك.
- صدقتِ يا سلطانة.

ووسط صمت «صُبْح» ونظرات «هشام» قرر محمد الاستئذان والرجوع إلى بيته، غير أن «هشامًا» نهض من مكانه وتحرَّك بعيدًا عنهم، فنظرت «صُبْح» إلى محمد وقالت:

- ما أجملك في ثياب الحرب!
- ما كنت لأصل بيتي قبل أن أطمئن عليك وأُطمئنك، ولكن ألا تلاحظين نظرات الخليفة إلينا؟ حتى خُيِّل إليَّ أنه يعرف كل شيء.
- لا أعرف بم يفكر، ولكن يجب شغله بعض الشيء.
- أجل، وهذا ما أردته وحدَّثتُك فيه من قبل، يجب أن ينصرف إلى سِنِّه فيخالط الغِلمان والجواري فيتسنَّى لنا ما نريد، وهو على كل حال لا يصلح للحُكم الآن، وإن كان الخليفة وأنتِ السلطانة تحملين عنه ما لن يقدر عليه من أمور الحُكم وأنا أساعدك فيه.

- هو كذلك يا محمد.

هزَّ محمد رأسه ثم أدار جسده ونظر إلى الخليفة الصغير وهو يتحرَّك في الزهراء، ثم قال في نفسه: صبيٌّ حاد الذكاء، لو تُرك هكذا فلن يكون لك من الأمر شيء يا محمد، ولن تبلغ مبتغاك، يجب لهذا الذكاء أن ينطفئ وهذا التفكير أن يتبدَّل.

❀❀✻❀❀

(6)

ما إن أشرقت شمس النهار حتى تحرَّك «أبو عامر» صوب الزهراء، وكان يعلم أنه كي يصل إلى غايته يجب عليه التخلص من خصومه ومن أشخاص قد يمنعونه غايته، وكان «المصحفي» هو ذاك الشخص بعد الصقالبة، فكأن محمدًا استعان بـ«المصحفي» للتخلص من الصقالبة، ثم انقلب على «المصحفي»، وكان عداء خفي بين الحاجب «المصحفي» وبين «غالب الناصري»، فلما تُوفي «الحَكَم» ظهر هذا العداء على العلن، حتى قال «المصحفي» لرجاله وكبار الدولة إن «غالبًا» عجز عن حفظ الثغور وحمايتها، وإنه قصَّر في الدفاع عن الأندلس، وما زال يقلل من «غالب» أمام رجال الدولة، فأراد محمد أن يستغل هذا الأمر في التقرُّب إلى «غالب» والتقليل من قدر «المصحفي». فدخل على «صُبْح» وكانت هي الأقوى في السُّلطة، إذ كانت المتحكِّمة الأولى في ابنها، وقرارات ابنها تُضفي الشرعية على أي قرار يحدث، فكان «أبو عامر» أو «المصحفي» أو «غالب» أو غيرهم بحاجة دائمة إلى توقيع الخليفة ورأيه، وإن كان رأيه صوريًّا، لذا فما إن دخل على «صُبْح» وجلس أمامها حتى قال:

- ما زال «الناصري» منذ زمن يعيب على «المصحفي» تولِّيه الحجابة ويرى أنه غير مستحق لما هو فيه، وإنما هي صداقته القديمة للحكم رحمه الله، ويرى نفسه أحق بمنزلة الحِجابة لطول بلائه ومكانته بين الموالي، وقد ازدادت نقمته عليه حينما اتهمه بالتقصير في الدفاع

عن الثغور حتى وصفه لخاصته بالعجز وكِبَر السن وعجْزِه عن ردِّ النصارى.

- نعم، أعلم ذلك، ولكن ماذا نصنع؟

- لقد كان «غالب» يرجو أن يُدعى لتدبير شئون الدولة بعد وفاة الخليفة الراحل، وهو والله قدير بذلك، وأنا لا أُنكر فضل «غالب» ولا ينكره إلا جاحد، وقد رأيته وصحابته في عدوة المغرب، فرأيت حب الجند له وحُسن تدبيره، لذا أرى وجوب تطييب خاطره، وهو وإن كبر فما زال رجلًا قويًّا لا تأتمر الجيوش إلا بأمره.

- وماذا نفعل؟

- لن يضر «المصحفي» أن يخرج كتابٌ من أمير المؤمنين برفع «غالب» إلى خطة ذي الوزارتين، فهو مجرد لقب، ولكنه سيكون تكريمًا لهذا الرجل العظيم، وبأن يُندب لقيادة جيش الثغور، وأن يكون «محمد بن أبي عامر» لقيادة جيش الحضرة.

- ما زلت تريد قيادة الجيش؟

- من أجل حِفظ مُلك الخليفة، فأنا فداء له، ولو كنت أعلم رجلًا سيكون أحرص مني عليه لقدَّمته.

ثم أخرج من بين طيات ثيابه كتابًا وقال:

- تفضَّلي، هذا مرسوم بكل ما قدَّمته.

- وقد أعددته؟!

- ولمَ التأخُّر؟ ولو لم تقتنعي لأخفيته فكأنه لم يكن.

- سأحمله إلى الخليفة ليوقِّعه.

- وماذا عن خاتم الخليفة، لماذا نشغله كل الوقت بتوقيع هذا والبحث في هذا ونحن خدَمه ونعمل لدولته؟ لماذا نشغَله بما لا يقدر عليه الآن؟! فإن كبر رددنا إليه كل شيء وأنتِ بعدُ الوصية عليه ومدبِّرة أموره.

- سأعمل على أن يعطيك خاتمه.

- سيِّدتي، وليأذن لي مولاي بقيادة جيش الحضرة والخروج إلى الشمال لتأديب النصارى مرة أخرى، فهم لم يرتدِعوا بعد.

- و«غالب»؟

- سألتقيه ونعمل معًا.

- كما تشاء يا محمد، ولكن اعلم أني أخشى عليك خشيتي على نفسي، فلا تُهلك نفسك فنهْلك جميعًا.

- أنا فداء للأندلس.

نهضت «صُبْح» ودخلت على ابنها وحدث ما أراد «أبو عامر» وبعد أيام قليلة خرج من قُرطُبة على رأس جيش الحضرة إلى غزوته الثانية، وذلك في يوم عيد الفطر، فالتقى بغالب وجيشه في محلة «مجريط» على طريق وادي الحجارة، واخترق الجيشان معًا أراضي قشتالة القديمة، واستولى المسلمون على حصن «مولة» وأصابوا كثيرًا من الغنائم والسَّبايا.

وفي مدينة سالم أعد «غالب» مائدة فاخرة لقادة الجيشين، وما إن أتمَّا طعامهما حتى قال «غالب»:

- لقد علِمت ما فعلته من أجلى يا «أبا عامر».

- أنا لم أفعل شيئًا، فهو والله حقك وتلك مكانتك بين الناس، فأنت شيخ الموالي وقائد جيش الثغور وبطل الأندلس.

- لو سمعك «المصحفي» تقول ذلك! فهو يرى نفسه شيخ الموالي دوني.

- ولكن الموالي لا يحبونه ويقدمونك.

- أعلم ذلك، ولكن ماذا فعل «جعفر» هذا حتى يكون في أعلى مناصب الدولة؟!

- كما قُلت آنفًا يا سيِّدي، صُحبته للحكم رحمه الله.

- ولكن إن حدث ذلك إبَّان حُكم «الحَكم» فلم يستمر الآن.

- لن يستمر يا سيِّدي، أعدك بذلك، فقط أعنِّي على ذلك وضع يدك في يدي.

مدَّ «غالب» يده إلى محمد فتصافحا، فقال محمد:

- لا أنزع يدي حتى تنزِع.

- وأنا لا أنزع يا «أبا عامر» حتى أعينك على ما تريد، واعلم أنه سيظهر بهذا الفتح اسم عظيم وذِكر جليل يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدِثه من قصة، فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلَّدها دونه، وسوف نُشيع أنك صاحب هذا النصر فيعلو بذلك قدرك ويرتفع صِيتك عند الناس وعند الخليفة حتى إذا أردت أمرًا أنجزته.

- لكنك يا سيِّدي صاحب هذا النصر.

- وأنا أنزل عنه لك.

❀❀✻❀❀

(7)

كان محمد يتناول طعامه وحوله ابناه «عبد الله» و«عبد الملك» وزوجته «الذلفاء» التي لاحظت شروده، حتى إنه كان يمسك اللقمة فلا يضعها في فمه، فقالت له:

- ما بك يا محمد؟

وضع محمد اللقمة من يده وقال:

- لا شيء.

- هذا تقوله لغيري، أما أنا، فأعلم أحوال زوجي جيدًا.

وقف محمد وأشار للصبيَّين أن يُكمِلا طعامهما، ثم خرج إلى حديقة داره فجلس فيها، وأتت الذلفاء فجلست بجواره، ونظرت إليه وقالت له:

- هل هو أمر أُمِّ الخليفة؟

- بل أمر الخليفة نفسه.

- هذا الصبي يشغلك وأنت من أنت؟
- بلى، يشغلني، فهو وإن كان صبيًّا، ولكنه يظل الخليفة، ولقد نظرت إليه فوجدته شديد الذكاء والفِطنة سريع البديهة، ولو كبر على هذا فلن يكون لي نصيب من المُلك معه.
- فماذا ترى؟
- لا أعلم، ولكن يجب ألا يشب على ما هو عليه الآن.
- إذن اخلِط الأمور عليه.
- كيف ذلك؟
- خذه تارة إلى اللهو والطرب والمعازف، وتارة ذكِّره بالحلال والحرام، وسلِّط عليه المشعوذين يوهمونه بالتعلُّق بالأشياء والتبرُّك بما لا يجوز التبرُّك به.
- تعنين أن أفسد عقله.
- أجل، وإلا فلن تصل إلى غايتك.

استرخى محمد على كرسيه ونظر إلى السماء ونجومها وقد وجد في كلام الذلفاء الحل والغاية، وما إن حلَّ الصباح حتى ذهب إلى «صُبْح» وقال لها:

- يجب أن نحرص على أن يبقى الخليفة تحت تصرُّفنا، فلا يتوصَّل إليه إلا من نعرفه ونأذن له، ولو كان حاجبه «المصحفي» نفسه.
- حتى «المصحفي»؟ فكيف يكون حاجبه ويُحجب عنه.
- ما حاجة «المصحفي» في الحديث مع الخليفة وأنا مندوبُه له وصِلة الوصْل بينهما إلا... إلا إن كان «المصحفي» يريد ما لا نريد، وهشام ما زال صبيًّا وإن كان الخليفة، فأخشى ما أخشاه أن ينبئه أحد بما بيننا فيوغرون صدره علينا وهو الخليفة، أو يوقِّع على مرسوم لا نعلمه فيبور تدبيرنا ويفسَد أمرنا ونحن لا نعمل إلا لأجله، ولكن المتربصين كُثر والحسَّاد أكثر.
- نحجبه.

- إلى أن يشب ويكبر ويتولى أمر الخلافة بنفسه، وعندها سيعلم أننا ما أردنا إلا خيره.
- تعلم ثقتي بك يا محمد.
- وتعلمين حِرصي على الخلافة والخليفة.
- ولكن ألن يغيِّر ذلك من قلب «المصحفي»؟!
- لا يشغلنا أمره ما دُمنا نعمل لصالح الخليفة، أما «المصحفي» فهو رجل قصير النظر لا يشغله من الدنيا إلا نفسه وماله وولده، ووالله لقد كنت أريد تأخير بعض الأمور عنك وعن الخليفة، ولكن ربما حان الوقت لإخبارك وإعلام الخليفة بكل أمر، فـ«المصحفي» قد جعل ابنه على المدينة، فشاعت فيها السرقة والمجون والخمور، وهذه الأمور كلها كان الحَكَم -رحمه الله- لا يريدها ولا يرضاها، وحتى أنا كصاحب الشرطة العليا لا يحق لي التدخل ما دام صاحب المدينة له رأي آخر فضلًا عن انتشار الرشوة وتعامله بها حتى جمع مالًا وفيرًا.
- هذه أمور لا يجب السكوت عنها.
- أجل، ولولا «المصحفي» ما فعل صاحب المدينة كل تلك الأفعال وهو غير مؤهَّل لأن يكون صاحبها، ولولا أنه ابن الحاجب ما استحقَّ أن يكون في هذا الموضع، فإن رأيتِ فلنخلعه عن المدينة.
- فمن يكون مكانه؟
- أنا.
- تكون على المدينة، وقيادة جيش الحضرة، والشرطة العليا، ومدبِّر أمر الخليفة، وصاحب الحشم! ماذا تركت لغيرك يا أبا عامر؟
- لقد وكَّل لي الخليفة الحَكَم أمورًا عِدة، واختبرني في مواقع عديدة، فما خيبت ظنه، كما أني لن أخيِّب ظنك أو ظن المؤيَّد حفظه الله.

وما إن وقَّع الخليفة على المرسوم حتى ارتدى «محمد بن أبي عامر» ثيابًا جديدة وتحرَّك ومعه صاحباه «عمرو» و«ابن المارعزي» وبعض من الحرس

صوب دار صاحب المدينة، ودخل الدار، فوجد «محمد بن المصحفي» يجلس مع أصحابه يتسامرون، فنظر إليهم وقال:

- لمَ أنتم هنا؟

انقطع الضحك ونظر «ابن المصحفي» إلى أبي عامر وقال:

- ما هذا يا «أبا عامر»؟

أمسك «محمد» طرْف ردائه وقال:

- هذا زِي صاحب المدينة، ألا تعرفه؟

ووسط ذهول «محمد بن المصحفي» تقدَّم «أبو عامر» فجلس على كرسي صاحب المدينة، ثم أعطى لعمرو بن عبد الله كتاب أمير المؤمنين وقال:

- اقرأ يا عمرو.

بدأ «عمرو» في قراءة الكتاب وفيه عزْل ابن «المصحفي» عن دار المدينة وتولية «محمد بن أبي عامر» مكانه، وما إن سمع «ابن المصحفي» ذلك حتى صاح قائلًا:

- فعلتها يا «أبا عامر» تستغل غيبة الحاجب لتفعل ما تفعل؟!

- بل فعلها أبوك يوم أن جعلك على المدينة وأنت لا تصلح لها، والآن هل لك من حاجة نقضيها؟

- لن يمر هذا الأمر هكذا.

- افعل ما يحلو لك.

لم يجد «ابن المصحفي» أمامه إلا أن ينصرف، فنظر «أبو عامر» إلى ابن عمه «عمرو» وقال:

- هل تذكر يا «عمرو»؟

- أذكر ماذا؟

- تلك الليلة التي تمنيت فيها أن تكون صاحب المدينة.

- نعم، أذكر ولا أنسى.

- فأنت صاحبها من اليوم، فأبو عامر لا ينسى أبدًا، وهذا وقت الوفاء بالعهد، فامضِ في طريقك، في انتهاج الحزم والشِّدة، في ضبط الأمور ومطاردة أهل البغي والعدوان، لا أريد لأهل قُرطُبة أن يقولوا استبدلنا فاسدًا بفاسد، فأنت عامريٌّ ومحسوب عليَّ.

❀❀✻❀❀

(8)

في بيت «المصحفي»

كان «المصحفي» يجلس حاسر الرأس وهو يفكر في أمره ومعه ابنه محمد وابن أخيه عثمان الذي قال:

عثمان: لكم حذَّرتكم منه، إنه ثعلب مكير، لقد استغل صِلته بأم الخليفة وفعل ما فعل، ووالله لن ينتهي حتى يحكم بنفسه، وأين الخليفة من أفعال هذا الرجل؟ فوالله لقد صار السلطان مع السلطان.

الحاجب: وما فائدة الكلام الآن وقد فعل ما فعل؟

محمد: يجب أن يكون هناك حلٌّ؟

عثمان: وأيُّ حلٍّ وقد أضحى المتحكم في الخليفة والخلافة، وقد أقصى كبار الدولة عن الحاجب.

«المصحفي»: ربما ما زال هناك بعض الأمل والعمل، فإن كان «أبو عامر» قد غلبنا بحُسن تدبيره، فيجب علينا أن ندبِّر اليوم، وإن فشلنا في التوصل إلى الخليفة فلن نعجز عن التوصل لغالب الناصري، فما زال هذا الرجل له مكانة كبيرة عند أهل الأندلس، وهو المتحكم في جيش الثغور وأقوى رجل في الدولة.

محمد: ولكن يا أبي، بينك وبين «غالب» الكثير من التباغض.

عثمان: وقد أحسنَ العامري استغلال ذلك فتقرَّب منه.

«المصحفي»: لقد علمت أن لغالب ابنة جميلة، فلو قمنا بخطبتها لك يا محمد فسيعجز هذا الثعلب عن إمالته وقد أضحيت صِهره، فنجتمع مع «غالب» عليه فنُهلكه.

عثمان: أحسنت يا عمَّاه، وإن كنت أرجو لو أن تنبَّهنا له من قبل.

❀❀✻❀❀

أشرقت الشمس بردائها الذهبي من خلف جبال مدينة سالم لتبدِّد بعضًا من برودة الجو لتستيقظ معها تلك الفتاة الجميلة وحيدة أبيها، فتنهض من سريرها متكاسلة بعض الشيء وتذهب إلى المرآة تنظر إلى جمالها الفتَّان قبل أن ترتدي ثيابًا غير ثياب النوم، ثم تنفض عن نفسها هذا الكسل الجميل وتقرر الهبوط إلى الأسفل كما اعتادت كل يوم وهي لا تفكر في أي شيء، فهي تعلم أن أباها قد خرج منذ الفجر ليطالع قواته المرابطة في الثغور، فهو وإن كان كهلًا، إلا أن جسده وقوته لا ينبئان عن ذلك، ولكن «أسماء» فوجئت تلك المرة بوجود أبيها ينتظر استيقاظها، فبادرت إليه متعجِّبة وهي تقول:

- أبتِ، أنت هنا؟

- لم أُرِد إيقاظك مبكرًا، فقررت الانتظار وقد طال يا بنيتي.

- لو كنت أعلم لبكَّرتُ إليك.

- لا بأس، والآن، هل تعدِّين لنا طعام الإفطار؟

ابتسمت الفتاة وقالت: حبًّا يا أبي وكرامة.

ثم تحركت وخلفها بعض الجواري لتُعِد إفطارًا شهيًّا للقائد العظيم الذي قَلَّما يأكل بعيدًا عن جنوده، لتعود وهي تحمل بعض الأطباق يساعدها الجواري الحِسان.

جلست أسماء أمام أبيها، وبدأ الاثنان في تناول الطعام، وتجاذبا أطراف الحديث، فقال «غالب»:

- لقد أتاني من يخطبك.

- لكن يا أبتِ تعلم عزوفي عن هذا الأمر منذ ما حدث.
- هذا الأمر لا عزوفَ عنه يا بُنيتي، فهو شرع الله وسنته في خلقه.
- لقد أخذتُ نصيبي واكتفيت.
- ولكني لن أطمئن عليك، وقد بلغت من العمر أرذله، فماذا لو مات أبوك؟
- نفْسِي فداء لك يا أبي، كيف تقول ذلك؟
- لكل أجَلٍ كتاب يا حبيبتي، والحياة تجارب، ولو أن الطلاق كان آخر الدنيا ما تزوجت مطلقة، ولكن الله سنَّ الطلاق لكي يعطينا الفرصة لنُكمل حياتنا مع من يناسبنا ونهنأ معه أو لنصحِّح خطأ ارتكبناه..... نعم أعلم أن تجربتك مع «ابن حدير» لم تكن ناجحة، ولكن هذا لا يعني الفشل، ولكن يعني أنكما لم تكونا مناسبيْن لبعضكما.
- وما يضمن أن القادم لن يكون كسابقه؟
- هذه عِلمها عند الله، ولو أخذنا بسوء الظن ما فعلنا شيئًا، ولكن نستخير الله ثم نتوكَّل عليه، ومن يدري، فلعل القادم يكون خيرًا وعوضًا لك عن السابق.

صمتت الفتاة ولم تتكلم فتابع «غالب» يقول:

- ألا تحبين أن تعلمي من هو العريس المنتظر؟
- الأمر إليك يا أبتِ، فإن قبلت الأمر فسيختار لي أبي.
- لكنَّا أُمِرنا أن نأخذ برأيكنَّ، وفي النهاية هي حياتك.

تنهدت أسماء فقال أبوها:

- إنه محمد بن «جعفر المصحفي».
- ابن الحاجب؟!
- أجل.
- ولكن كيف حدث هذا؟ كيف فكَّر «المصحفي» في ذلك مع كل ما بينكما من خلاف؟
- لقد علم «المصحفي» أخيرًا قدري فأراد التقرُّب مني، فما رأيك؟

- كما قُلت يا أبي، الأمر إليك، وأنا أوافق على ما ترضاه لي.
- إذن يفعل الله ما يشاء، على أني لن أسارع بالرد عليه فيظن بي ما لا أريد.

❀❀✻❀❀

(9)

كان السكون يهمين على قُرطُبة، فقد جنَّ الليل وكاد أن ينتصف، ولكن بيت الوزير أبي عامر كان لا ينام، فقد طرق عليه الباب طارق، وكان هذا الطارق هو أحد جواسيسه الذين فرَّقهم في كل أنحاء الأندلس.

دخل الجاسوس وظل منتظرًا حتى نهض محمد من سريره وخرج له وقال:

- ما الأمر؟
- لقد أرسل «المصحفي» يخطب ابنة «غالب» الناصري لابنه محمد.
- هذا ما لم يكن في الحُسبان، انصرف أنت الآن وكن يقظًا لأي جديد.

انصرف الجاسوس وجلس «أبو عامر» في مكانه وقد اغتمَّ وظهرت عليه علامات الحزن، فاقتربت منه الذلفاء وكانت حركته قد أيقظتها، وقالت:

- ما الذي حدث يا أبا عامر؟
- لقد أرسل «المصحفي» يخطب ابنة «غالب» الناصري، وهذا والله لو حدث ليكونن فيه ما لا أريد، سيتصافى الرجلان ويتقرَّبان ويفسد تدبيري كله، فلا أخلع هذا إلا لأعادي ذاك، بل... لن أستطيع وسيفسد كل ما أريد.

ثم جلس وقد وضع يديه على وجهه بينا التزمت الذلفاء الصمت بضع دقائق قبل أن تقول:

- ماذا لو أن هناك حلًّا يُفسد تدبير «المصحفي»؟

- أيُّ حلٍّ يا «ذلفاء»؟
- اخطب أسماء، أليس هذا اسمها؟
- أجل.
- اطلبها لنفسك.
- أنتِ تقولين ذلك؟
- أجل يا محمد، فأنا شريكتك في الغاية التي تسعى إليها، وأنا لستُ تلك المرأة التي تخشى على نفسها عندك، فأنا أعلم يقينًا قدري لديك، ولكم هو شاق عليَّ أن أقول لك ذلك، ولكن إن كانت الغاية كبيرة فيجب أن تكون التضحية أكبر وأعظم، لا أستطيع أن أقف مكتوفة الأيدي وأنا أشاهد هدفك ينهار وقد قاربت على الوصول إليه.
- ألا تغارين عليَّ يا «ذلفاء»؟
- وهل مثل «أبي عامر» لا يُغار عليه؟ فأنت سيد الرجال يا محمد، ولقد تسرَّيت من قبل بأم ولدك عبد الله وصبرت، لأني كنت أعلم أن الغاية هي الولد، والآن أصبر لعلمي بغايتك وقدرها.
- لكن تلك جارية وهذه حرَّة.
- وإن كان، فستظل المرأة امرأة، جارية كانت أو حُرَّة.
- لكن إن قبِلتِ بذلك، فما الذي يجعل «غالبًا» يقبل خِطبتي ويرفض الحاجب؟
- أن تتوسط أم الخليفة والخليفة في تلك الخِطبة، عندها لن يستطيع «غالب» أن يرد لهما أمرًا، وأيضًا يكون ذلك سببًا في رفضه لابن «المصحفي»، ولكن عليك أن تجد وسيلة لتقوم «صُبْح» البشكنسية بهذا!

أغمض محمد عينيه وكان يعلم ما تشير إليه الذلفاء، فلم يُرد أن يجادلها فيه، ولكن ما إن أقبل الصباح حتى ارتدى ثيابه وخرج إلى الزهراء، ولم يعرُج على مكتب الحاجب كما كان يفعل من قبل، بل دخل على أم الخليفة م ِ اشرة،

وكان وقتها قد جعل أغلب الحرس الصقلبي من خاصته ينقلون إليه كل ما يحدث في الزهراء.

ما إن رأته حتى ابتسمت له فبادلها نفس الابتسامة وجلس أمامها، لكن على غير عادته لم يبادر بالحديث، بل ثقُل عليه الأمر، فالتزم الصمت قليلًا وكان قد قضى الليل في ترتيب تلك الكلمات التي يريد قولها، فلمَّا كان بين يديها أشفق عليها من القول وثِقله، ثم قام فصبَّ بعض الشراب له ولها، وارتشف منه وهي تنظر إليه وكانت كالبدر ليلة التمام، فقالت له لمَّا طال صمته:

- ما بك يا محمد؟
- لا شيء.
- بل هناك ما تخفيه عني.
- إن أردتِ فنعم.
- لم أعتدك تُخفي عني أمرًا.

ترك محمد الكوب من يده ونظر إليها وقال:

- لقد أرسل «المصحفي» إلى «غالب» يخطب ابنته، ولئن تمَّ هذا الأمر ليجتمعُنَّ علينا كما ستجتمع عليهم الموالي، وهم عصب الدولة منذ الداخل، فإن أرادوا الخروج على الخليفة ومعهم جيش الثغور لن يقاومهم أحد، بل إن رأوا أن يخلعوا الخليفة ويُولُّوها لأحد أبناء الناصر فلن نستطيع منعهم وقد صارت الشوكة معهم والكلمة كلمتهم ومن يملك القوة يملك الدولة.
- لقد ألقيتَ عليَّ قولًا ثقيلًا يا محمد.
- والأدهى من ذلك ما يقوله عثمان ابن أخي «المصحفي» الذي ما زال يرجف بنا عند العامة ويقول شغفها حبًّا وشغفته حبًّا، فلو اجتمع «الناصري» مع «المصحفي» فلا أظن إلا أن يتربص «المصحفي» بنا ويشفي غليله مني وأنا من نزعت ابنه من ولاية المدينة وما كان خافيًا في الصدور قد صار على العلن.

- أوَقال ذلك عثمان؟
- أجل، وتواصَل مع الصقالبة الذين شرَّدناهم يريد أن يتقوَّى بهم ويتقوَّوا به.
- فما العمل يا أبا عامر؟
- أن نفسد ما بينهما فلا يجتمعان، وقد شاورت نفسي في الأمر وعلمت أن «غالبًا» لن يصرف ابن «المصحفي» ليزوِّج ابنته بأقل منه، ومَنْ في الأندلس كلها يعدِل ابن «المصحفي» إلا.....
- إلا أنت، أليس كذلك؟
- تعلمين أني ما رأيتها قط، وما كنت لأفكر في الأمر، ولكنها الضرورة التي تُلح علينا الآن، فإمَّا هذا الزواج، وإمَّا الدولة، وقد اخترت الدولة ومصلحة الخليفة على كل ما سواه.

ثم رنَا ببصره بعيدًا وهو يُظهر الحزن والألم، ثم ارتدَّ صوبَها وقال:

- أعلم أن هذا الأمر شاقٌّ عليكِ، ولكن مشقته عليَّ أعظم وأكبر، فأنا بالنهاية بشر وأرى نفسي أتقرَّب ممن لا أحب وأترك من أحب، ولكن عزائي في هذا هو الحفاظ على مُلك المؤيد -حفظه الله- وهو ابنُك وقُرَّة عينك.

صمتت «صُبْح» وظهر الحزن عليها فلم تدرِ ما تقول واغرورقت عيناها بالدمع قبل أن تنطق:

- إن كان كما تقول ووجب وقوع الأمر، فلا تخرجنَّ العروس إلا من الزهراء، تقدُم إلينا فنجهِّزها بما يليق بها، ويشهد الخليفة وأمه العرس فتنقطع الألسنة التي تلوك ما بيننا، كيف وقد زوَّجتُك بيدي؟!
- هذا والله نِعم الرأي.

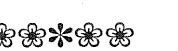

(10)

كانت أسماء تخيط بعض الثياب عندما دخل عليها أبوها «غالب» الناصري وهو يمسك بكتاب في يده، فجلس بجوارها ولم يتحدَّث، فنظرت إليه أسماء وقالت:

- ماذا أهمَّ القائد «غالبًا الناصريَّ» حتى ظهر عليه.
- ليس همًّا يا بنيتي، ولكنها الحيرة، هل تذكَّروا الآن مَن هو «غالب» الناصري حتى سارعوا في مصاهرتي وخطْب وُدِّي وكانوا منذ فترة وجيزة لا يُلقون لنا اهتمامًا.
- أتقصد ابن «المصحفي»؟
- ابن «المصحفي» و«ابن أبي عامر».
- ابن أبي عامر؟ أليس هذا الذي خرج معك في الصائفة منذ فترة؟
- أجل هو، وقد أرسل لنا الخليفة وأمه يخطبانك له.

لم تتحدث أسماء فتابع أبوها الكلام قائلًا:

- الآن عليك أن تختاري، فبين يديك أكبر رجال الدولة.

ثم نهض من مكانه وأمسك بكوبٍ من الماء فارتشف منه قليلًا وأكمل يقول:

- الآن صار مصير الأندلس كلها بين يديك، فلا توجد في الأندلس كلها امرأة أقوى منك، إذ بموافقتك يرتفع رجالٌ وينخفض رجال.
- أما ابن «المصحفي» فقد نظرت في أمره فلم أجد فيه شيئًا إلا كونه ابن «المصحفي»، فهو إن تزوجته يرتفع بي ويرتفع أبوه، أما أبو عامر، فهو رجل ارتفع بنفسه، وإن تزوَّجته ارتفع بي وارتفعت به، هذا ولا يمكننا ردُّ طلب الخليفة، فهو وليُّنا جميعًا.
- ما سألتك إلا وأنا أعلم بالإجابة، وقد أحسنت الردَّ فعلى بركة الله.

أُقيمت الزينات بالزهراء وكان حفلًا عظيمًا حضره كل الوزراء والكبراء إلا «المصحفي»، فإنه تعلَّل بمرضه، وأُحضرت «أسماء» إلى العاصمة في موكب فخم، وكانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهنَّ ثقافةً وسحرًا، وزُفَّت إلى «ابن أبي عامر» في حفلٍ كان مضرب الأمثال في البذخ والبهاء، وقد نُظِّم الاحتفال في قصر الخليفة، وبإشراف أمِّه «صُبْح» وأغدقت «صُبْح» على العروس أروع الهدايا والتحف، وكان زواجًا سعيدًا موفَّقًا لبث مدى الحياة، وقلَّد الخليفة «غالبًا» خطة الحِجابة إلى جانب «جعفر» فكانت ضربة جديدة للحاجب، ولكن «جعفر» لم يسعه إلا الإذعان والسكوت، وقد أضحى يشعر شعورًا قويًّا بالخطر المحدق به، وبأنه لم يبقَ له من الحِجابة سوى الاسم، ولم ينخدع بما كان يبديه نحوه «ابن أبي عامر» من التلطُّف والمُصانعة، وهو يقبض دونه على كل شيء في القصر والدولة.

❀❀*❀❀

(11)

نكبة «المصحفي»

خلا ديوان «المصحفي» من الوزراء والعامة على السواء وأصبح يسير وحده في الزهراء بعد أن كان الكثيرون يتحركون لإرضائه، فاغتمَّ لذلك كثيرًا وشعر بالنهاية، فترك الديوان الخالي وذهب إلى بيته وقد شعر بسوء المنقلَب، فلماذا يجلس في الزهراء ولا عمل له ولا يمكنه أن يتقرَّب من الخليفة أو يجالسه؟

هكذا شعر «المصحفي»، فداهمه الهم والحزن. جلس حوله ابنه محمد وابن أخيه عثمان وهم يلومون أنفسهم على ما فات، وكيف سمحوا لكاتب الرِّقَاع أن يفعل بهم ما فعل، ولم يتذكَّر «المصحفي» قتله للمغيرة دون جريرة، أو تقديمه هشامًا وهو غير كفء للخلافة إلا أن يحافظ على امتيازاته، فكأنه إنما كان يعمل للعامري لا لنفسه، ويوطِّد للعامري دون أولاده، ولكن

لا ينفع الندم. وهكذا كان حديث جعفر مع نفسه، أما ابنه، فكان لا يفكر في شيء إلا في هذا المجد والعز الضائع، ولكن عثمان كان له رأي آخر، إذ قال:

- لن نجلس نندب حظنا يا عماه ونترك كل شيء لهذا الثعلب.
- فماذا تريدنا أن نفعل، هل نذهب إلى الخليفة فنقول له لمَ رفعت هذا وفعلت ذلك؟
- لا، ولكن الجميع يعلمون أن الخليفة لا يحكم، وإنما هي أمه وهذا الثعلب الذي تمكَّن منها فبطش بنا.
- وماذا ينفع هذا الآن؟
- ما زال هناك ما يجب أن نفعله، يمكن أن نتواصل مع «بني أُميَّة» ومع الصقالبة الناقمين عليه وهم كُثر فنطعن في خلافة «هشام» ونردها إلى شيوخ «بني أُميَّة» فيحفظوا لنا صنيعنا فيهم.
- لا تورِد نفسك المهالك يا ابن أخي.
- وأين المهالك مما نحن فيه الآن؟ فوالله لن يتركنا هذا إن تمكَّن منَّا وهو فاعل إن صمتنا عنه.

لم يتحدث جعفر وكذا ابنه محمد، فخرج عثمان وتوصل إلى الصقالبة الناقمين على هشام المؤيد بالله وبعض الموالي الرافضين لوجوده في سُدَّة الخلافة لصغر سنه وبعض من بني أُميَّة الذين كانوا يرون أنهم أُبعدوا عن الأمر، وأخذ يؤلِّبهم على العامري وهو يقول: هذا والله رجلٌ دخيل على الزهراء، فلا هو من الموالي ولا من الصقالبة ولا من بني أُميَّة حتى يدخل على حرم الخليفة ويختلط بهم، فكيف لكاتب الرِّقَاع هذا أن يصير إلى ما صار إليه لولا أم الخليفة وشغفها به؟! لقد صار حديثهم ملء السمع والبصر، يدخل عليها فيمكث عندها الساعة والساعتين ولا ندري أي حاجة له في البقاء معها وهي في هذا سنده وعضده ومن ارتفع بها، رحم الله الخليفة الحَكَم.

وكان الفتى «جؤذر» من الموجودين في هذا الجمع الكبير، فتحدث وقال: لم تقل جديدًا يا عثمان، فقد رأينا ورأت كل قُرطُبة تلك الهدايا التي اختلسها

إبَّان عملة في دار السَّكَّة، وقد علمنا أن «الحَكَم» لم يقدِّمه إلا برأي «صُبْح» أم الخليفة هشام.

عثمان: لقد بلغ السيلُ الزُّبَى، ويوشك كاتب الرِّقَاع أن يتولى الحُكم، يقولون خليفة صبي وهو متعهده وصاحب دولته، فكأنه هو الحاكم لا الخليفة الصبي، وهل يقضي الخليفة الصبي بما لا ترضى أمه؟ لا والله.

بعض الموالي: فكيف السبيل وقد تمكَّن من الأمر؟

جؤذر: أنا عندي الحل لهذا؟!

❀❀✻❀❀

(12)

فقد «المصحفي» كل أمل في استعادة مكانته الذاهبة في الزهراء، فمكث في بيته يترقَّب، ولكنه ترقُّب من ينتظر الموت، فكان في البيت كمن في السجن؛ لا يضحك ولا يخالط أهل بيته، بل ظل حبيس غرفته، ولم يمر يومان على تلك الحال حتى كان حرس قصر الخليفة أمام بابه يقولون له: أمير المؤمنين يُلح في طلبك.

ارتاع «المصحفي» وتوجَّس خِيفة، فنظر إليه ابنه نظرات ذات معنى، ثم قال «المصحفي» للحرس: انتظروني أودِّع أهلي.

محمد: ماذا تقول يا أبتِ؟

«المصحفي»: نعم يا بُنيَّ، إنها النهاية، أم تظن أن الخليفة قد استدعاني ليرد لي مكانتي؟! لقد فعلها أبو عامر.

ثم دخل «المصحفي» إلى أهله وقال: لستم ترونني بعدها حيًّا، فقد أتى وقت إجابة الدعوة وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة.

بكت زوجته وبناته وقالوا: كيف تقول ذلك؟

«المصحفي»: ذلك أني أسرفتُ على أحدهم وقد سُجن بعهد الناصر، وما أطلقته إلا برؤيا، إذ جاء لي من قال: أطلق فلانًا، فقد أُجيبت فيك دعوته،

فأطلقته وأحضرته، ثم سألته فقال: دعوت على من شارك في أمري أن يميته الله في أضيق السجون، فعلمت أنها قد أُجيبت وندمت بحيث لا تُغني الندامة، فأطلقت الرجل.

انتحبت زوجته وبناته واحتضنوا الحاجب بقوة وتركوه وهو يغالب دموعه وينظر في البيت نظرات وداع، ثم انطلق ومعه محمد ابنه، فدخل الزهراء، ولكنَّ الحرس منعوه عن إيوان أمير المؤمنين وأدخلوه على محمد بن أبي عامر، فما إن رأى «المصحفي» أبا عامر إلا وقال:

- بلغني أن أمير المؤمنين....

وقبل أن يُكمِلها نهض محمد وقال:

- يطلبك نعم، وهذا كتابه.

ثم نهض بنفسه وأعطى «المصحفي» كتاب أمير المؤمنين وعليه خاتمه وتوقيعه، فما إن قرأ «المصحفي» الكتاب حتى قال أبو عامر:

- خذوه وابنه إلى سجن المطبق في الزهراء.

- وما هي جريرتنا؟

- أموال اختلستموها ورِشًى كثيرة سينظر فيها القضاء.

أشار «المصحفي» إلى القضاة الجالسين حول «أبي عامر» وقال:

- هؤلاء يقضون في أمري؟

- أجل.

- إنهم قضاتي الذين كانوا ينتظرونني في دهليز داري.

- بل قضاة أمير المؤمنين. والآن خذوه إلى المطبق حتى يمتثل للقضاء.

ولم يخرج «المصحفي» وابنه إلى السجن حتى أُحضر عثمان ابن أخي «المصحفي»، وكان عثمان يمقت «أبا عامر» ولا يداريه، فما إن دخل عليه حتى قال «أبو عامر»:

- «عثمان المصحفي» ابن أخ الحاجب «المصحفي» ذو اللسان السليط.

- ليت لساني سليطًا بحيث يقطع، لكنت قطعتك يا كاتب الرِّقَاع، لا تظن أنك مهما علوت أني سأداريك أو أنافقك أو أتودد إليك، فمهما ارتفعت ستظل كاتب رِقاع لا قيمة لك.

استشاط محمد غضبًا فلطم عثمان على وجهه وقال:

- ستعلم غدًا جزاء كلماتك تلك وجزاء من يخرج على الخليفة ويدبر له.

ثم ابتعد عنه وأتبع يقول:

- لقد نَمَا إلينا وتحقَّقنا أنك تدبر للخليفة، الخليفة الذي بايعته مرتين؛ الأولى زمن أبيه الحَكَم -رحمه الله- والثانية بعد تولِّيه، فما جزاء من يخرج على صاحب الأمر؟

- اقضِ ما أنت قاضٍ فوالله لا أتوسل إليك ولا أرجو من أمثالك شيئًا.

- خذوه من أمامي، وليُطبَّق عليه حكم الخارج على الإمام.

أخذ الحرس عثمان بينما نظر «عمرو» إلى «محمد» وقال:

- أتقتله؟

- وهل للخارج على الإمام إلا القتل؟

- أخشى يا «أبا عامر» أن يصير القتل وسيلتك وطريقتك، فلا يخالفنَّك أحد إلا وقتلته، تقول: لقد أُحل لي دمه إذ خرج على الدولة، فتجعل رأيك هو الدولة، والأصل أن تكون هناك شورى وقضاء هو من يحكم ويقرر، بالأمس «المغيرة» واليوم «عثمان» ولا ندري من يكون التالي والتالي في سلسلة إن بدأت لن تنقطع.

- صدقت، إنها الشورى والقضاء.

- لا يا «أبا عامر» فكل القضاة إنما يعملون برأيك، فهم قُضاتك لا قضاة الدولة.

- والله لا أنتقم من أحد إلا ويكون قد أقام الحُجة على نفسه.

- لقد تغيَّرت منذ قتلت «المغيرة» وكان أول دمٍ يسيل على يديك، فقد أظهرت وقتها الضجر والحزن عليه وحمَّلت «المصحفي» دمه، أمَّا الآن، فلا أراك تهتز لدمٍ يُراق.
- إنها الدولة يا عمرو.. الدولة، والطامعون فيها كُثر، وقد كثُر أعدائي، فلئن لم أبطش بهم فلن تقوم لي ولا للدولة قائمة.

❀❀✻❀❀

الفصل السادس

الحاجب المنصور

أبنِي أُميَّة أين أقمارُ الدُّجَى ... مِنكُم وأين نُجُومُها والكوكبُ؟

غابتْ أسُودٌ مِنكمُ عن غابِها ... فلِذاك حازَ المُلك هذا الثعلبُ

(1)

الصعود إلى القمة

كانت الزهراء قد تزيَّنت ودُقَّت الطبول، وجلس الخليفة الفتى الصبي في مجلس الناصر والحَكم من بعده، وحضر الوزراء والكبراء يقبِّلون يد الخليفة الفتى، بينما أمه تراقب من خلف الستائر ما يحدث، وحضر كبير الفتيان «الفتى سكر» وهو يحمل لِباس الحاجب، بينما «محمد بن أبي عامر» واقف أمام الخليفة، وتحرَّك الفِتيان وألبسوا «محمدًا» لِباس الحاجب وقلَّدوه خاتَمه، ثم قال كبيرهم:

- أعز الله الخليفة هشام بن الحَكم المؤيد لدين الله، وأعز صاحب دولته وحاجبه «محمد بن أبي عامر».

ثم مدَّ الخليفة يده لمحمد فقبَّلها، فكان ذلك إيذانًا بتولِّيه الحِجابة، وهكذا تولَّى «محمد بن أبي عامر» أعلى منصب في الدولة بعد الخليفة، وصار مدبِّر الدولة، وصاحب الشرطة، وصاحب المدينة، وصاحب الحِسبة، وكان صعوده إلى هذه الدرجة ذا سرعة مدهشة، فقد لجأ في تحقيقها إلى أذكى الوسائل وأشدِّها، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه أن يسحق كل عقبة، وأن يروِّع كل منافسٍ ومناوئ، إذ تجرَّد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطَّهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه، حتى استأصل شأفتهم، ومزَّق جموعهم.

ولم يكن مهلِك «المصحفي» بعد سحْق الصقالبة سوى حلقة جديدة في سلسلة المطاردة الشاملة التي نظَّمها ابن أبي عامر لاستئصال شأفة خصومه

ومنافسيه، ذلك أنه جدَّ في نفس الوقت، في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أُميَّة أو غيرهم من زعماء القبائل، حتى سحَق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة، ومزَّقهم في البلاد شرَّ ممزَّق، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش.

ولما خلا الجو لابن أبي عامر من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة، اهتم بتنظيم الجيش، فأنشأ صفوفًا جديدة من المرتزقة من زناتة وصنهاجة وغيرهما من قبائل البربر، ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة ونافار، وبذل لهم الأجور السخيَّة، واجتذب قلوبهم بعدْلِه ورِفقه وجُودِه، كما غيَّر أنظمة الجيش القديمة، فقدَّم رجال البربر، وأخَّر زعماء العرب، وأقصاهم عن مناصبهم، وفرَّق جند القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة، وكانوا من قبل ينتظمون في صفٍّ واحد وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوِحدة القبيلة، لأن العصبية كانت في قبائلهم حتى أيام الناصر ما تزال فتيَّة قوية، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية، وإضعاف هيبتها، وجاء ابن أبي عامر فألفى الميدان ممهَّدًا لخططه، فلم تلقَ سياسته الجديدة كبير معارضة.

❀❀❀❀❀

(2)

جلس محمد في دار الحجابة بالزهراء وقد شعر أنه قد صار بالقرب من الذروة، فاجتهد التفكير فيها، واختلى بنفسه بعد أن أفرغ دار الحجابة من خُدَّامِها، وراح ينظر في الزهراء والحرس الخلافي قبل أن يقول في نفسه: لقد أصبحت الحاجب ولا أحد فوقك إلا الخليفة الصبي، أجل، الخليفة الصبي الذي لا يملك من أمره شيئًا، ولكن الصغير يكبر، والكبير يموت، فماذا يا محمد لو كبر هشام فنزع منك ما كسبته بيدك؟ أو قصده أحد من أعمامه فحرَّضوه عليك؟ لا يا محمد، لن يُنزلك أحد من عُشِّ النسر وقد صعدته بعملك وقوَّتك، لقد أصبحت وأنت على الذروة. ثم عاد إلى كرسيه ودقَّق في بعض الكتب قبل

أن يخرج وحوله حرسه، فتحرك خارجًا من الزهراء إلى ذلك المكان الفسيح بقُرطُبة، فجلس فيه وقد حضر إليه عمرو ابن عمه ووزيره، فقال:

- يجب أن أغادر الزهراء، فلا بقاء لي فيها وقد صِرتُ إلى ما صرتُ إليه.
- ماذا تعني يا «أبا عامر»؟ وهل لحاجب الخليفة أن يبتعد عنه؟
- أنا لستُ الحاجب على الحقيقة يا «عمرو» ولكني صرت مدبِّر الدولة، أو تحسب أن ذلك الصبي يدبر أمره؟ لا والله، بل أنا من يدبره له.
- وإن كان كما قُلت فكيف لك أن تبتعد عن الزهراء وهي موطن الحِل والعقْد؟
- لن تكون كذلك إن أنا غادرتها.
- لم أفهم.
- كانت قُرطُبة هي موطن الحِل والعَقْد حتى ابتنى الناصر -رحمه الله- الزهراء وانتقل إليها، فصارت منذ ذلك الوقت موطن الحِل والعَقد، وأنا سأبتني لنفسي مدينة ملَكيَّة جديدة تُنسب إليَّ ولا أنتسب إليها، فمهما مكثت في الزهراء سيذكر الناس مُلك الناصر، أما إن انحرفت عنها فسأمحو من ذاكرة الناس تلك المدينة العظيمة، وقد اخترت لها اسمها، ستكون الزاهرة، نعم، الزاهرة التي ستزدهر وتزدهر معها الأندلس، ولا أُخفي عليك يا عمرو، فقد صار لي في الزهراء أعداء كُثر، فمن يدري، فلعل أحدهم يحاول اغتيالي وأنا بعد أرجو أن يخمَد ذِكر الخليفة الصبيِّ، فإن خرجتِ الكتب من الزاهرة نَسي الناس الزهراء ومن فيها.
- لكن كما قُلت لك من قبل سيكبر هشام يومًا ويتولَّى الأمر بنفسه.
- لن يحدث.
- كيف؟
- لا تسألني، ولكن لن أنزل أبدًا من عُشِّ النسر وقد ظهرت عليه.

ثم وقف محمد وتحرَّك في تلك الحديقة والحرس واقفون على بُعد أمتار منه يحرسونه، تنهَّد محمد وقال:

- أين ابن المارعزي؟
- لا أدري.
- أرسِل في طلبه.
- هنا، أقصد يأتي هنا.
- أجل يا عمرو، ولتُرسِل أيضًا إلى موسى.
- لكن لقد انقطعت أخبار موسى منذ زمن، أقصد لا أدري أين هو.
- ولكني أعلم مكانه، فأرسل إليه في ضاحية قُرطُبة الغربية في خان أبي عثمان.
- لكن كيف عرفت مكانه؟
- أنسيت أني صاحب الشرطة؟
- لا، لم أنسَ.
- إذن افعل ما طلبته منك.

ولم يمضِ وقت كثير حتى كانوا جميعًا حوله وقد غمرتهم السعادة، ما عدا موسى الذي ابتلع ريقه بصعوبة كبيرة، فنظر إليهم محمد وقال:

- هل تتذكَّرون هذا المكان؟
- أجل، نتذكر ولا ننسى.

أخرج محمد من قميصه عدة كتب، فقال لابن عمه عمرو:

- هذا كتاب صاحب المدينة.

ثم وزَّع الكتب على أصحابه كما تمنَّوا، ثم قال: هل وجدتم ما وعدتكم به حقًّا إن شاء الله؟

قالوا جميعًا: نعم. بينما توارى موسى، فقال له محمد:

- أما أنت يا موسى، فوفاء حقك ليس هنا، ولكن في دار القضاء؛ فأنا لا أنسى يا موسى، لا أنسى.

موسى: ولكني ابن عمك.

محمد: وما كنت لأقبل الشفاعة فيك وأنت ابن عمي، وقد بلغني ما صنعت وجاءني الخبر.

ثم صاح بالحرس وقال: خذوه فاحلقوا شعره واضربوه مئة سوط، وأركِبوه على حمار، واجعلوا وجهه للخلف، ونادوا في الناس: هذا فِعل أبي عامر بابن عمه، فكيف يكون فِعله في غيره؟!

❀❀*❀❀

(3)

كان «محمد بن أبي عامر» نائمًا في داره عندما دخل عليه أحد الصقالبة من فِتيانه وهو يقول: أدرِك الخليفة يا سيِّدي، فقد كاد «جؤذر» أن يقتله.

نهض محمد وهو مضطرب النفس قلق، وفي دقائق معدودة كان أمام الخليفة، فما إن رآه بخير حتى هدأت نفسه واطمأنَّ باله، فنظر إلى الحرس الصقلبي وقال بصوت مرتفع ينُم عن غضب رهيب:

- من سمح له بالدخول على الخليفة؟

الحرس: لقد طلب منَّا ذلك فرفعنا الأمر إلى الخليفة فوافق عرفانًا بما كان لجؤذر من خدمة سابقة في القصر، فلما اختلى بالخليفة باغته بخنجر، ولولا أن قبضنا عليه لكان ما كان.

محمد: كل من ساهم في دخول «جؤذر» إلى هنا ستتم معاقبته.

ثم نظر إلى «صُبْح» التي كانت تجلس محتضنة ابنها، وقال: اطمئني، فلن أترك هذا الأمر يمر في سلام، ولأقبضنَّ على شركائه في هذه المؤامرة، الآن علمتِ لماذا يجب حجب الخليفة عن أعين الناس؟ فهؤلاء بنو أُميَّة أعمامه وأهله يريدون بواره وقتله ونزعه عن الحُكم.

ثم تحرك على عجل إلى دار الحِجابة فدخل عليه عمرو وقال:

- لقد تأكد الخبر، وقد اجتمع بعض من العلماء والفقهاء والوزراء حول الأمير «عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر» وأرادوا مبايعته خليفة للمسلمين، فقال لهم «جؤذر»: أنا أكفيكم هشامًا.

هبَّ محمد واقفًا وقال:

- إن بقاء الخليفة هو بقاءٌ لي يا عمرو، وإن مبايعة غيره تعني نهايتنا جميعًا- نحن بني عامر. وضحك ساخرًا وقال: بنو أُميَّة! ما زالوا يحلمون بالعودة، وهل يعود ميت؟ ولكن سنرى من ينتصر بالنهاية، لقد تآمروا على تنحيته وتولية غيره مكانه، ولكنهم لا يعلمون أن مُدبِّر الخلافة وحاجب الدولة هو «محمد بن أبي عامر» لا ينام عنهم، مُر الحرس فليُحضِروا لي كل من شارك في هذه الفتنة.

وخرج من دار الحجابة وعاد إلى أم الخليفة فقال لها:

- هذا كتاب أريد توقيع الخليفة عليه بقتل كل من شارك في هذه المؤامرة لتنصيب عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر خليفة مكانه.

أخذت «صُبْح» الكتاب من محمد ودخلت على ابنها، وما هي إلا لحظات حتى خرجت وأعطته الكتاب ممهورًا بخاتم الخليفة، فأخذه محمد وتحرَّك من فورِه وترك «صُبْح» في قلقها وتحوَّل إلى دار الحِجابة، وما هو إلا وقت قصير حتى جاء الحرس وهم يحملون المتآمرين على الخليفة، فنظر إليهم محمد وقال: «عبد الملك ابن القاضي منذر بن سعيد»... والله لقد رفع «الناصر» رحمه الله أباك وأتم «الحَكم» ما صنع الناصر، وكان «المنذر» حريًّا بذلك جديرًا به، حتى أتيت أنت تتنكَّر لهم وتريد خلع حفيد الناصر وابن الحَكم عن سُدَّة الحُكم، لقد ضللت الطريق ولم تعرف صاحبك فيه، ولقد راهنت على الجواد الخاسر.

أمَّا أنت يا «عبد الله» فالتعيس من اتَّعَظ بنفسِه وقد كان لك في عمِّك المغيرة خير واعظ لك أن ترتدع.

عبد الله: أتقتُلني وأنا ابن عم الخليفة؟

زمجر الحاجب وقال: وأقتل كل من خرج عليه ولو كان كلَّ بني أُميَّة.

عبد الله: اقضِ ما أنت قاضٍ، فلن أتوسل -وأنا حفيد الخلفاء- واحدًا مثلك وقد علِمناك وخبرناك دعيًّا تتذرع بحماية الخليفة وأنت أول الواثبين عليه.

أدار الحاجب ظهره لعبد الله وقال: اقتلوهما وأعلِموا الناس بخبرهما، وليكن قتلهم زاجرًا لكل من تُسوِّل له نفسه الخروج على مولانا أمير المؤمنين المؤيد لدين الله، أما «جؤذر» فاصلبوه على باب السُّدَّة ليكون عِبرة لمن يعتبر.

❀❀✻❀❀

(4)

في أسواق قُرطُبة العامرة، حيث رغد العيش وانخفاض ثمن السِّلع، كان الناس يسيرون وسط الشوارع والميادين المُبلَّطة وهم كالنجوم، فلا ترى فيهم مشرَّدًا أو متسولًا، أو ذا ثياب مُتَّسِخة، ولا تجد في كل شوارع وأزِقَّة قُرطُبة إلا الورود والرياحين، فقد اعتاد أهل الأندلس على تنميق بيوتهم وتزيين شوارعهم بالزروع والأشجار، وانتشر البرتقال والليمون في كل زُقاق وشارع، حتى مسجد قُرطُبة، كان مغروسًا فناؤه بأشجار البرتقال التي يأكل منها الجميع، فقد كان الطعام والشراب وفيرًا والحصاد كثيرًا والأسواق عامرة بالبضائع ومن يشتريها، كان ذلك منذ الناصر واستمر زمن ابنه الحَكم.

وعلى باب دكَّانه جلس «مروان القمَّاش» وهو يرتدي أجمل ثيابه وينظر إلى المارَّة هنا وهناك وقد كبرت دكانه وزاد العاملون فيها، وبينما هو كذلك إذ اقترب منه «زيدون الخبَّاز» وخلفه بعض غِلمانه يحملون بعض صحائف الطعام، فوضعوها أمام مروان..

«مروان»: ما كل هذا؟

- طعام الغداء يا رجل.

- إنه كثير.

شمَّر «زيدون» عن يديه وقال:

- كُلْ يا رجل، فمن يدري من يطاعمنا اليوم من الناس؟ أم تريد أن آتي بطعام لنا فقط فإن مرَّ علينا ضيف لا يجد ما يأكله.

شمَّر «مروان» وأخذ الاثنان يأكلان، حتى إذا انتهيا قدِم عليهما بعض أصحابهما، فقال أحدهم من أهل السوق: أما زِلتما تظنَّان أن الحاجب «محمد بن أبي عامر» صديق لكما؟

«مروان»: أجل، وكلما مرَّ يخصني بتحية ولا يمنعني من التقرب إليه والسلام عليه.

الرجل: أما سمعتم ما يقال عنه وعن أم الخليفة، ثم أنشد يقول:

اقْتَرَبَ الوَعْدُ وحانَ الهلاك... وكلُّ ما تحذرُه قد أتاك

خليفة يلعب في مكتب... وأمه حبلى وقاضٍ.....

زمجر «مروان» وقال: اصمت قطع الله لسانك، ليس «أبو عامر» من يُقال عنه ذلك وقد رأيناه وعرفناه.

الرجل: هذا ليس كلامي، ولكنه كلام وحديث كل أهل قُرطُبة.

«زيدون»: هذا والله كلام لا دليل عليه، فهو كلام مغرِض للنيْل من رجُلٍ كالحاجب لم نعرف عنه إلا خيرًا.

❀❀*❀❀

(5)

أضحى «ابن أبي عامر» بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه، ووضع يده على الجيش، وحده سيد الميدان، وصاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع، ولم يكن الخليفة «هشام المؤيد» بعد ذلك سوى أداة ليِّنة في يد المتغلِّب القوي يوجهها كيف يشاء.

على أن «ابن أبي عامر» لم يقنع بما حقَّقه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية، وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ في الافتئات على شيء من رسوم الخلافة الشرعية، فإنه اتجه إلى أن يتَّشِح بحُلل المُلك في صورةٍ من صورِه، فتكون له ثوبًا خلَّابًا يتوّج سلطانه الفعلي بمظاهر العظمة والأُبَّهة الملكيَّة.

ولهذا فقد شرع في بناء الزاهرة، وكان له من الأسباب القوية ما يدعو إلى التحوُّط من أخطار التآمر والغِيلة، وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود في قصر الزهراء، ومما قد يُضمره بعض الحاقدين المتربِّصين، وهذا ما نقله إلى ابن عمه ورفيقه «عمرو بن عبد الله العامري» ورأى أن يتَّخذ له مركزًا مستقلًّا للإدارة والحُكم، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة.

وبينما العمل يجري في الزاهرة إذ قال «عمرو»:

- أليس هذا هو نفسه المكان الذي وقف فيه الحَكم يومًا وتحدث بحديث الحدْثان أن ملكًا من غير أهل المُلك ينزعُ مُلك بني أُميَّة ويُنشئ هنا مدينة ملَكية جديدة؟

شعر «محمد» بغرابة وتعجب شديدين، وقال وهو ينظر إلى يده:

- إي والله، لقد قال ذلك، بل وجعلني أتولى أمر تلك البقعة حينها، وما دار بخلدي أن يأتي ذلك اليوم وأنشئ هنا مدينة ملَكية، كيف مرَّ ذلك من ذاكرتي؟ بل إنه قال أيضًا وهو ينظر في يدي إنه يرى في تلك الأيدي بعض العلامات، وأراد يومًا أن يبطش بي لولا أن دينه منعه من ذلك.

- ومنعه أيضًا عدم وجود تلك الشَّجَّة في وجهك.

وضع محمد يده على خدِّه وقال:

- وأيضًا هذه، فلا أدري كيف تَصدُق النبوءة وتكون ناقصة؟ أم أني لست المقصود بها؟!

- من يدري؟

- أجل، من يدري؟!

قال ذلك ونهض من مكانه فتحرَّك «عمرو» خلفه وقال:

- إلى أين؟

- أبحث عن تلك العجوز التي رأيتها منذ سنين.

- تبحث بنفسك؟

- حتى لا ترتاع لبحث الجُند عنها.

- لا بد أنها ماتت، ألم تقل إنها عجوز.

- قلبي يحدِّثني أنها ما زالت حيَّة، انظر، هذه هي.

اقترب محمد من السيدة العجوز وكانت تجلس في ظل شجرة وهي ترتدي ثيابًا سوداء وقد غُشي بصرها، فقال لها:

- لمَ أنتِ هنا يا خالة؟

- من أنت؟

- أنا «محمد بن أبي عامر»

- لم أسألك عن اسمك، ولكن صفتك.

- أنا الحاجب محمد بن أبي عامر.

- وماذا يفعل الحاجب هنا؟

- انظري هناك؟

- لقد ذهب بصري يا بُنيَّ، فماذا هناك؟

- أنا أبني مدينة ملَكيَّة هنا، وقد سمعتك منذ سنين تتحدثين عن تلك المدينة، وقد تذكَّرت ذلك فأردت أن أراكِ وأقضي حاجتك.

- ليست لي حاجة يا بُني فقد ذهب العمر.

- سأبني لكِ دارًا في الزاهرة تكون من أجمل دُورها.

- بارك الله فيك يا ولدي.

- هل أنا المقصود من خبر الحدْثان يا خالة؟

- اقترِب مني.

اقترب منها «محمد» فوضعت يديها على خدَّيه، ثم ارتدَّت للخلف وقالت:

- لا أدري، ولكن الملك سيكون به شجَّة في وجهه.

نظر «عمرو» إلى «محمد» وقال له: دعك منها، فهي عجوز قد خَرِفَت.

العجوز: ما خَرِفْتُ وما كذَبْتُ يومًا.

محمد: لا عليك يا خالة.

ثم نادى في حرسِه وقال لهم: اعتنوا بها واجعلوا عليها من يخدمها حتى نبني لها دارًا تليق بها.

وما كادت الزاهرة تُنشأ حتى انتقل الحاجب إليها ومعه كل دواوين الحُكم، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفية، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخلافة، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعي، وأنشأ «ابن أبي عامر» في نفس الوقت حول القصر الخليفي سورًا وخندقًا، وأحكم غلق أبوابه، ووكَّل به من يمنع دخول أي شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه، وأطلق عيونه على هشام وحاشيته، وأشاع أنه قد فوَّض إليه النظر في سائر شئون المملكة لكي يتفرغ لشئون العبادة، وهكذا أُهمل شأن الخليفة الفتى، وقُطعت سائر علائقه مع الخارج، ولبث محجوبًا في أعماق قصره، يغمره الخمول والنسيان.

❀❀✻❀❀

(6)

صُبْح والحاجب

كانت صُبْح كثيرة الحركة لا تجلس في مكان واحد، وقد بَدَا عليها الضجر والاضطراب، حتى إنها لم تأكل أو تشرب شيئًا، بل ظلَّت تتحرك من مكان لآخر في القصر وهي تحدِّث نفسها وتنظر إلى الأبواب بين الفينة والأخرى، حتى إذا قدِم الحاجب لم تنتظره كعادتها، بل تحركت صوبه وقالت:

- أبطأت علينا يا «أبا عامر»؟
- إنها شئون المُلك وتدبير الدولة.
- شئون المُلك أم أسماء؟
- لا يشغلني أحد عن أمور الدولة ولو كانت كل النساء.
- إنه مُلك ابني على كل حال.

- وأنا القائم بدولته والأمين عليها، فإن أنا قصَّرت نُسِب التقصير إليه، وإن أحسنت نُسِب الإحسان إليه.

- وأين أنا من تدبيرها؟ أين أنا من كل ذلك؟ ألم نكن ثلاثة في هذا الأمر؟ أم استأثرت به وحدك الآن؟

- نعم، كنا ثلاثة، وما زلنا، فكل أمر يصدر إنما يصدر بأمر الخليفة.

- تقصد خاتمه الذي معك؟

- وما الضير في ذلك، فهل نستأذنه وهو لم يزل صبيًّا بعد؟

- وماذا عن تلك الأخبار التي تقول إنك تبني مدينة ملَكية جديدة يا «أبا عامر»؟

- أجل، إذ كيف نضمن حياة الخليفة إذ دخل عليه هذا وذاك وهو ما زال صغيرًا؟ وأيضًا ذبُّ التهمة ورفع الرِّيبة، فما زال أهل قُرطُبة يُرجفون بنا ويقولون شغفها حبًّا وشغفته حبًّا.

- حتى بعد زواجك من «أسماء»؟

- أجل، فالمرجفون كُثر والحاسدون كُثر، وهم لن يتوانوا في اتهامي بكل قبيح يريدون بواري.

- إذن، تُفرِغ الزهراء من رجالها ووزرائها، وتأتي يا «أبا عامر» بما لم يفعله أحد من قبلك، فالحاجب يكون على باب الخليفة وليس في مدينة وحده.

- حماية الخليفة أفضل وأهم مما سواها، ولو خلت الزهراء كما تقولين فهو إلى حين.

- وكيف يتمرَّس ابني على الحُكم؟

- لن تنقصه الحكمة وأنت معه، وحينما يحين الوقت سأكون دومًا بجانبه.

قال ذلك ثم ابتسم لها واستأذن، خرج من الزهراء وقد عرف أن «صُبْح» لن تلبث على ما كانت عليه، وكان قد أخذ قراراه بحجْب الخليفة بالكُلِّية، فجمع رجاله وفتيانه وقال لهم:

لا يدخل أحد على الخليفة إلا بإذني، ولو كان معه كتاب من الخليفة نفسه، وليكُن معه أحد منكم نسمع ونعرف ما يقول للخليفة، وبعد أن ينتهي من لقاء الخليفة لا ينصرف حتى يدخل عليَّ.

❀❀*❀❀

جنَّ الليل، واستوحشت الزهراء، وخرجت «صُبْح» إلى حدائقها فوجدتها خاوية إلا من الفِتيان الصقالبة صنيعة «أبي عامر» ومن الجواري، والخليفة هشام جالس يقرأ القرآن بصوت خفيض، نظرت إليه «صُبْح» من بعيد، وتردَّد بصرها بين الزهراء الخالية وبينه، وتذكَّرت مجلس «الحكَم» و«ابن أبي عامر» وهو يتودد منها والجميع من حولها يتمنون رضاها، فما الذي تغيَّر وتبدَّل؟

لقد كنتِ يا «صُبْح» بموقفك وتصرُّفك مع «أبي عامر» أكبر مُعين لوصوله إلى ما هو عليه الآن حتى حجَر على ابنك وعطَّل الخلافة، لقد كان حبك المضطرم لذلك الرجل الذي مَلك عليك كل مشاعرك وعقلك، يدفعك دائمًا إلى مؤازرته والإذعان لرأيه، وكان إعجابك الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتك به، ويُعميك دائمًا عن إدراك الغاية الخطرة التي يسعى إلى تحقيقها، هل تآمرتِ بولدك لصالح من أحببتِ يا «صُبْح»؟ هل ضحَّيتِ بحقوقه وحقوق أسرته من أجل ذلك الحب الذي لن تطالي منه شيئًا، فصارت علاقتك به فضيحة قصر ذائعة شَهَّر بها مجتمع قُرطُبة، وتناولها بلاذع التعليق والهجو؟!

آه يا صُبْح! لقد ظلمتِ من رفعك وظلمتِ ولده، ولكن ماذا يُفيد الندم الآن؟ وها هو ولدك الخليفة قد صار ملكًا بلا مُلك يحجُره حاجبه فلا يأتمر الخليفة إلا بأمره.... لكن لم ينتهِ الوقت بعد.

وبين كلام عقلها وقلبها أكملت تقول: آه يا محمد! لو أنك ما حجَرت على هشام؟! ثم أغمضت عينيها ووضعت يدها على صدرها وأتْبعت تخاطب نفسها وهي تقول: قد تصرَّم ذلك الحب القديم الذي شغفني بابن أبي عامر دهرًا، والآن، وبعد أن علمت أنه ثعلب ماكر لم يحبني بقدر ما أراد التسلُّق على

ظهري، واستخدمني لأغراضه، فقد أضحى ذلك الحب هو البُغض كله، وكيف لا أبغض من سلب ولدي مُلكه، وسلبني كل نفوذٍ وسُلطة؟!

❀❀✻❀❀

(7)

جلس «ابن أبي عامر» على كرسي العرش محاكاة لهذا الذي يجلس عليه الخليفة في الزهراء، والتفَّ الوزراء والكبراء من حوله كلٌّ يقبِّل يده ويبارك له مدينته الجديدة، وقد أضحى محمد هو الملك الحقيقي على العموم، ووضعت الموائد وعليها أشهى الطعام والشراب، فأكل الجميع ومحمد يشاركهم ذلك ويقول لهم: تبسَّطوا تبسَّطوا، فهذا يوم سيكون له ما بعده.

وبينما هو مزهوٌّ بما فعل وما تم له، إذ بأحد الصقالبة يدخل عليه ويقترب من أذنه ويقول:

- سيِّدي، بالباب أحد المنجِّمين، وهو يريد الدخول عليك.
- الآن؟
- أجل يا سيِّدي.

نظر «عمرو» إليه وكان يجلس بالقرب منه فقال له:

- وهل تخشى المنجمين يا أبا عامر؟
- قطعًا لا، بل ولا أعترف بهم، وقد كذَب المنجمون ولو صدقوا، ثم نظر إلى الفتى الصقلبي وقال: أدخِله نسمع ما يريد، فلربما لديه حاجة نقضيها له في هذا اليوم العظيم.

خرج الفتى ليعود بعد قليل وخلفه شيخ قد جاوز الثمانين من عمره وقد انحنى ظهره، فهو يتكئ على عصا يمسك بها بكلتا يديه ويتحرك حركة ثقيلة بطيئة، وما إن دخل بهيئته حتى تعلَّقت به الأعين، فبعض الحضور تعجَّب من سماح الحاجب لمثل هذا الكهل بالدخول، وبعضهم كان يعرف أنه كبير المنجِّمين، وخصوصًا وأنه كان دائم التردد على الخليفة الحَكَم.

اقترب المنجِّم من كرسي الحاجب فقال له الثاني:

- ألست أنت من زارني من قبل؟

- أجل، أنا هو، عندما رُزِقت بعبد الملك.

تذكَّر محمد ما كان، فابتسم للرجل وقال له:

- هل لك من حاجة نقضيها؟

- وما حاجة رجل في مثل سني يا ولدي؟

- إذن فلتجلس تطاعمنا، فهذا يوم يطعم فيه الجميع في الزاهرة.

- الزاهرة؟!

- أجل، لقد أسميتها الزاهرة حتى تزدهر وترعرع وتبسط سلطانها على كل شبه الجزيرة والعدوة.

- ولكنها لن تعمِّر طويلًا وستفنى، ولن تكون زاهرة ولن تزدهر.

ضجَّ الحضور من كلام كبير المنجِّمين ونظر بعضهم إلى بعض، ورمق «المنصور» كبير المنجِّمين بعينه وقال:

- ألا تدرك يا شيخ أنه لا كهَانة في الإسلام؟ وأنه قد كذب المنجِّمون؟ وأن العمل بالتنجيم هو حرام ولا يجوز؟!

- أنا لا أعمل بالسحر، ولكنها علامات أراها أمام عيني فلا أستطيع كتمانها.

نهض محمد من كرسيه فنهض الجميع، ثم قال محمد بصوتٍ عالٍ:

- بل تعمل بالكهانة والتنجيم، وهذا لن يكون في دولتي. ثم قال للحرَس: خذوه فاقتلوه، وليعلم الجميع أن لا سِحر ولا عرَّافين ولا مشعوذين في كل الأندلس.

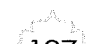

(8)

اقتربت «صُبْح» من ولدها وكان يجلس وحيدًا في أحد أركان الزهراء فقالت له:

- سيِّدي الخليفة، لماذا تجلس وحدك؟
- خليفة؟!
- أجل، أنت الخليفة، وأنت من يجب أن تحكم بنفسك.
- وأبو عامر؟
- ما هو إلا مدبِّر مُلكِك وحاجبك.
- ما كان هذا رأيك من قبل، فأين كلامك القديم عنه؟
- لا أقدِّم أحدًا على ولدي، فقد عرفنا حقَّه عندما رأيناه يحفظ مُلكَك، أمَّا إن كان يريد الاستيلاء على مُلكِك فلا كان.
- ها، وماذا عليَّ أن أصنع الآن وليس لي من الأمر شيء؟
- يجب أن تتحرك وتتولَّى الأمر بنفسك.
- لم يكن هذا قولك من قبل.
- يجب أن أعترف بخطئي يا ولدي، فقد أخطأت في تقدير الرجل، والآن يجب عليك أن تسترد مُلكك.
- أخطأتِ؟ ولكن ماذا يفيد الندم وقد أضحيت ولا شأن لي ولا كلمة؟ اتركيني يا أمي ودعيني وما أنا فيه فقد اعتدته.
- إن كنت ترى ذلك فأنا لن أسكت.
- وماذا ستصنعين؟ هل ستأمرينه بترك الحِجابة وردِّ الأمر إليَّ، أم ستأمرين الجيش والشرطة بالقبض عليه؟
- لا تستهِن بي يا ولدي، فما زال لديَّ الكثير لأفعله، ولأنشرن بين العامة أنه يحجُر على الخليفة ويمنعه حقه.
- اصنعي ما تحبين، ولكن لا شأن لي.

❀❀*❀❀

جلس محمد في داره وقد شغله كلام المنجِّم فبَدَا مهمومًا بعض الشيء، فاقتربت منه زوجته أسماء، وكان يجلس عندها، فقالت له:

- ما الذي شغل صاحب الدولة حتى ألزمه الصمت؟

- لا شيء يا أسماء.

- وتُخفي عني؟ إني حديثة عهد بك، ولكني أفهم، إنك لست على خير، فهل هو أمر الخليفة؟

نظر إليها الحاجب وقال:

- بل هذا المنجِّم الذي أفسد عليَّ ليلتي وفرحتي.

ثم نهض من مكانه وتحرَّك صوب باب القصر الذي كان يعجُّ بالحرس والخدَم فقال:

- كيف لهذا الصرح أن ينهار، ولهذا البناء أن ينهدم، ولهذا الحرس أن يُغلب؟

- أوَتؤمن حقًّا بالمنجِّمين يا محمد؟

- لا أومن بهم، ولكن كيف لهذا الكهل أن يقول ذلك ما لم يكن له به علم وهو يعلم أن ذلك سيُغضبني ويودي بحياته؟ يجب أن يكون صادقًا.

- لكنك صنعت قدرك بنفسك، فلمَ لا تتدبر الأمر؟

- ماذا تعنين؟

- إن كان هناك من يريد خراب الزاهرة فقطعًا سيكون هذا من بني أُميَّة.

- أو ربما الخليفة الذي هو أصغر سِنًّا، فهل ينهض بدولته من بعدي فيُفسد ما بنيتُ ويقضي على العامريين؟

- هل هو جدير بذلك؟ أقصد أنه لم يتدرب على الحُكم وقد حجرت عليه.

- لكن له عقلًا كعقل الرجال، وقد تحدثت إليه غير مرة مذ كنت أتكفَّله وأرعاه، بل وبعد أن اعتلى كرسي الخلافة، فوجدته يحاججني بقوة عقله.

- إن كان الخليفة قد درس على يد أعظم العلماء في الأندلس، فهو ما زال صبيًّا.
- يا أسماء إن ذكاءه ورجاحة عقله، فهذا ليس قوْلي وحدي، بل هو أيضًا قوْل «أبي بكر الزبيدي» الذي علَّمه الحساب والعربية، حتى قال عنه: إنه لم يجالس في مثل سنِّه من هو أذكى منه.
- ألا تشغله باللهو والطرب؟
- أتعلمين أنه يقول عن آلات الطرب إنها آلات الشيطان؟

صمتت أسماء وقد وقعت في حيرة، بينما تذكر مشورة «الذلفاء» وقد شعر أنه حان الوقت لتنفيذها.

وهكذا استوى الأمر في رأس الحاجب، فخلخل من عقل هشام وسلَّط عليه من يُفسد عقله، حتى إنه اهتم بالآثار، فكان يشتري آثار الأوَّلين بكنوزه، فاشترى ألواحًا نُسِبت إلى سفينة نوح، وقرونًا منسوبة إلى كبش إسحاق، وحوافر منسوبة إلى حمار عُزير، وخِفافًا منسوبة إلى ناقة صالح، وغيرها. وبذلك نجح المنصور في جعْل شخصية هشام ضعيفة مهزوزة غير متوازنة، يميل إلى اللهو والمجون فترات، ويتجه إلى العبادة والتبتُّل فترات أخرى، وكذا حجب عن هشام كل من يمكن أن يشجِّعه على المطالبة بحقِّه ونكَّل بكل من حاول الوصول إليه، سواء من بني أُميَّة أو غيرهم، بل وفرض رقابة على هشام نفسه داخل قصره، وكانت الرقابة تتكثَّف في أوقات خروج «المنصور» للغزو، وبلغ من شِدة رقابة «المنصور» له أن منعه من الخروج إلا إلى متنزهات بني أُميَّة، وفي حال خروجه كان «المنصور» يأمر بإخلاء الطرقات وإخراجه مع عدد من الجواري وإلباسه بُرنُسًا حتى لا يتعرف عليه الناس، وبذلك قطع كل علاقة بين الخليفة وبين العامة.

❀❀❀❀❀

(9)

كان «غالب الناصري» يجلس في قصره في مدينة سالم وقد التزم السكون والصمت، ثم رنَا ببصره صوبَ الدرج فتخيَّل أسماء وهي تهبط عليه، فأغمض عينيه وقال: لقد أوحشتني وأصبح القصر قبرًا دونها.

ثم نهض من مكانه وخرج من القصر فخفَّ إليه بعض رجاله وحرسه، فقال لهم:

- أَعِدُّوا الموكب للسفر.
- إلى أين يا سيِّدي؟
- إلى قُرطُبة، ندخل على الخليفة ونزور ابنتنا أسماء.

وفي المساء خرج الموكب من مدينة سالم يتقدَّمه «غالب الناصري» وحوله كوكبة من رجاله وخدَمِه، واستمر الموكب في السير حتى شارف على قُرطُبة، فتقدَّم أحد رجال «غالب» منه وقال:

- سيِّدي، هل نعرج على الزهراء أم الزاهرة؟
- لا يتقدَّم أحد على الخليفة، ولو كان زوج ابنتي، فلنؤدِّ حق الخليفة أولًا ثم يأتي من بعده من يأتي.
- أمرك سيِّدي.

وبينما كان موكب «غالب» يقترب من قُرطُبة، كان هناك من جاء بالخبر إلى الحاجب الذي ترقَّب وصول صهره، فتقدَّم «غالب» إلى أسوار الزهراء وهو متعجب مما يرى؛ سور إضافي وخندق كبير، وقد سُدَّت جميع أبواب المدينة سوى باب السُّدَّة، فلمَّا مرَّ من السور لم يمنعه أحد، ودخل الزهراء وهو ينظر يمينًا وشمالًا، أين الحرس؟ وأين الوزراء؟ وأين السادة والكبراء؟ وأين الولاة يتقدمون من كرسي الخلافة يقبِّلون يد الخليفة، والسفراء يأتون من كل البلاد يقدِّمون فروض الطاعة؟ لماذا كل هذه الوحْشَة وما هذا السكون؟ هل خلت الزهراء من الرجال وما بقي فيها إلا الصقالبة والجواري والنساء؟ استمر

يحدِّث نفسه حتى وجد أخيرًا من يرحب به، وكانت هي السيدة صُبْح التي قالت له:

- أهلًا بصاحب الوزارتين وقائد جيش الثغور.

- أهلًا ومرحبًا بك سيدتي.

نظرت صُبْح يمينًا ويسارًا وقالت:

- رأيتك تنظر إلى أرباض الزهراء متعجِّبًا.

- ومن الذي لا يتعجب وقد صارت الزهراء إلى ما صارت إليه؟

- ذلك أن صهرك قد أفرغها من رجالها وسكَّانها.

- علمت أنه ابتنى مدينة جديدة، ولكن لم أكن أعلم أنه أفرغ الزهراء من رجالها، وكنت أظن أنه فعل ذلك بأمر الخليفة.

تحركت صُبْح حتى جلست في مكان وسط حدائق الزهراء وجلس «غالب» أمامها، فقالت:

- لم يأمر الخليفة بذلك، حتى إنه حجَر عليه ومنعه مُلكه، وأشاع في الناس عكس ذلك.

- أوَقد فعل ذلك؟

- بل وأكثر من ذلك، عندما منع الخليفة من الخروج إلا بإذنه، ثم جعل عليه الجواسيس والعيون. ثم رنت ببصرها صوب أحد الغِلمان الصقالبة الذي كان يحاول التجسس عليهما، ففهم «غالب» كل شيء.

- لقد بلغ هذا الفتى الذي كنت أظنه يومًا خير صديق لي ما لم يبلغه أحد قبله، لقد عطَّل الخلافة والخليفة.

- لقد استعان بالمصحفي أولًا على الصقالبة، ثم استعان بك على «المصحفي» حتى خلت له الأندلس كلها، ولم يعد هناك من يردعه.

- وبنو أُميَّة؟

- لا حول لهم ولا قوة، وقد سلبهم أسباب القوة كما سلب الخليفة أسبابها، خليفة بلا مُلك وحاجب يملك ويتحكَّم في كل شيء.

- سيكون لي معه شأن آخر، والآن، أين الخليفة يا سيدتي؟

- هو ذا يجلس مع الجواري كما أراد أبو عامر.

وقف «غالب» وتحرَّك صوب هشام وتقدَّم منه وقبَّل يده، فقال له هشام:

- كيف حال ذي الوزارتين؟

- بخير ما دام مولاي الخليفة بخير.

- أنا بخير، ألا تنظر؟ فأنا آكل وأشرب ولا ينقصني شيء.

اغتمَّ «غالب» وعلِم مقصد هشام فلم يرد عليه، ثم استأذن من الخليفة وأمه وانصرف وقد شغَله ما حلَّ بالخليفة والزهراء، فراودته فكرة أن يعود إلى مدينة سالم دون السلام على أسماء وعلى صهره، ولكنه وجد أن ذلك ليس بالتصرُّف الحسن، فتوجه إلى الزاهرة، وأحسن «المنصور» استقباله، و«غالب» ينظر هنا وهناك، فقال له محمد:

- كنت أظنك تعرِّج علينا قبل دخولك الزهراء.

- ما كنت لأقدِّم أحدًا على الخليفة ولو كان صهري.

- لا أحد يدخل على الخليفة قبل المرور على حاجبه.

- إنما حاجبه من يلزمه، لا من يبتني مدينة بعيدًا عنه.

- ولكن ومع ذلك كان يجب عليك الاستئذان مني.

- أنا أستأذن للدخول على الخليفة؟ لم أفعلها زمن الحَكَم -رحمه الله- لأفعلها اليوم.

- لقد تغير الحال، وما كان لن يعود.

- لم يتغير شيء، ولكنك أنت من غيَّر وبدَّل وأتيت بالجديد الذي لا نعرفه.

وفي تلك الأثناء دخلت أسماء، فقال محمد، ها هي أسماء قد أقبلت.

تقدَّمت أسماء فقبَّلت يد أبيها وجلست بجواره وقالت:

- لقد تأخرت عليَّ كثيرًا يا أبتِ.

- تعلمين حجم المهمة، وما كنت لأترك الثغر وأنا من قضيت حياتي فيه، فلما قدِمت إلى قُرطُبة رأيت ما رأيت من حجر زوجك على الخليفة.

محمد: الخليفة ما زال صبيًّا لا يحكم بنفسه.

«غالب»: كان من الواجب عليك تدريبه على أمور الحُكم لا الحجر عليه.

أسماء: هل نتحدث في أمور الحُكم والسياسة هنا يا أبتِ؟

«غالب»: لقد ساءني ما يحدث للخليفة، ولست أنا من يُخفي ما بداخله.

أسماء: ألا يسُرُّك يا أبتِ ما صارت ابنتك إليه؟

«غالب»: يسُرُّني في طاعة وُلاة الأمر.

محمد: ونحن لم نخرج على وليِّ الأمر، فما زال هو الخليفة وأنا حاجبه.

«غالب»: إنما حاجِبه من يلزمه.

أسماء: أنا في شوق للحديث معك يا أبتِ، فدعنا الآن من أمور السياسة.

كانت المائدة قد مُدَّت فجلس محمد وزوجته أسماء، فأكل الثلاثة، وبعد الطعام جلس «غالب» مع ابنته بضع ساعات وخرج بعدها إلى مدينة سالم، فلمَّا دخل محمد عليها قال:

- والله لقد نَفِسَ عليَّ مكانتي، وهذه المدينة هل يريدني أن أهدمها ليستريح؟ ألا يعلم أن عِزِّي هو عِزُّه وأنا صهره؟
- هو شيخ موالي بني أُميَّة، لهذا فهو لا يرى غيرهم، ولا أظنه ينفِس عليك، على أني أرجو من الله أن تعذره، فهو أبي وأنت زوجي، ولا غناء لي بأحدكما عن الآخر.
- فإن خُيِّرتِ؟
- لا أرجو ولا أريد ذلك.
- وأنا كذلك، لا أريد أن تكوني في هذه الخِيرة الصعبة، ولكن يفعل الله ما يشاء.

وما إن اختلى الحاجب بنفسه حتى فكَّر في أمر «غالب» وقد ساءه ما ظهر منه، وفكَّر في «غالب» وجيشه، وخشي على ما بيده، فقد كان يعلم

قوة الرجل، فكيف إذا خرج عليه بأمر الخليفة؟ لذا لم يصبح الصباح حتى أرسل إلى عدوة المغرب، إذ رأى أن يستعين بجعفر بن علي بن حمدون لمقارعة «غالب» وإخماد ذِكره في الناس، فقد كان المنصور يعلم حُب العامة لـ«غالب» وتقديرهم له، فأراد قبل أن يتصادم معه أن يُخمد ذِكره، وذلك بأن يرفع إلى مرتبة الوزارة «جعفر بن علي بن حمدون» المعروف بالأندلسي، وكان «جعفر» شابًّا قوي البِنية ذا شارب ضخم ولحية ضخمة، ذا بشرة بيضاء، من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته، وكان مُقيمًا بالعدوة، فعبر البحر إلى الأندلس، واستقرَّ في الوزارة، يكنفه «ابن أبي عامر» بحبه وثقته، ويستعين به على تأليف البربر وكسْب محبتهم، ولا سيما بعد أن غدوا يؤلِّفون معظم حرسه وحاشيته. وتقاطر البربر من العدوة و«ابن أبي عامر» يستقبلهم بأوفر ضروب البذْل والإحسان، ويقوِّي بهم صفوفه وبِطانته، وكان «غالب» يستشعر الوَحشَة والرِّيبَة من تصرفات صهره، ويتوقَّع منها سوء العاقبة، حتى قال لرجاله:

- والله ما أراد باستقدامه البربر إلا أن يضع من قدري ويُخمد ذِكري، وهو قد حجر على الخليفة وهذا لم يحدث منذ الداخل، فقد كنا نعلم أن الحاجب إنما يرتِّب لسيده ويأتمِر بأمره، أما هذا، فقد جعل من نفسه سيد البلاد دون سيدها، ونحن موالي بني أميَّة ولا نرى للأندلس سيدًا غيرهم.

ردَّ عليه رجاله: نحن معك يا أبا تمام.

«غالب»: إن كان هذا الشقي قد استعان علينا بالبربر، فسوف نستعين نحن عليه بمن كانوا بالأمس أعداءنا، وإن كنت أفعل ذلك مُرغمًا وأنا من قضيت عمري أناجِزهم وأقاتلهم وأخرِّب دورهم ومدنهم، ولكن نؤخِّر ذلك إلى حين.

ولم يمر وقت قليل حتى قرر «محمد بن أبي عامر» الخروج من قُرطُبة إلى الغزو دون مشاركة «غالب»، وهو يقصد بذلك إهمال صِهره والتقليل منه، واصطحب معه «جعفر بن علي» وسمَّاه ذا الوزارتين، فلمَّا اقترب من مدينة سالم وعلم «غالب» بحضوره أرسل إليه من يقول له: إن الأمير «غالب» يُلِح في لقائك.

لم يشك الحاجب في نوايا «غالب»، بل إنه كان من الثقة بالنفس الكثير فأخذ بعض جنده وترك باقي الجيش مع جعفر وانطلق نحو قلعة «أنتيسة» المنيعة، وصعدا إلى أعلى القلعة وسلَّم على «غالب» الذي قال له:

- أتخرج إلى الغزو ولا تخبرني؟

خلع الحاجب خوذته ووضعها على المائدة أمامه وقال:

- وهل يحتاج صاحب الدولة إلى إخبار أحد رجاله أو الإذن منهم؟

غضب «غالب» وارتفع صوته وهو يقول:

- لستَ بصاحب الدولة، ولكن صاحبها هو الخليفة ابن الخلائف هشام المؤيد، وما أنت إلا حاجبه.

- حاجبه ومدبِّر دولته.

ازداد غضب «غالب» وزادت حِدَّته وهو يقول:

- لهذا حجرت عليه ومنعته الخروج والدخول إلا بإذنك؟! والله لقد كان «المصحفي» على ما هو فيه خيرًا منك.

- «المصحفي» الذي كادت قشتالة أن تدخل قُرطُبة عليه ولم يتحرك للدفاع عنها؟ ومن يقول ذلك؟ أنت وأنت أشد الناس عداوة له.

- كنا أعداء ولكن نخدم أصحاب الأمر ولا نحجُر عليهم، ونعرف لهم حقهم، ولكن كيف لمثلك وأنت الذي أتيت من عامة الناس أن تعرف لسيِّدِك حقه.

- لقد غاليت وألقيت عليَّ قولًا ثقيلًا، وإني ما كنت لأسمح لغيرك به.

- يا كلب، أنت الذي أفسدت الدولة وخرَّبت القِلاع وتحكَّمت في الدولة.

ثم سلَّ «غالب» سيفه فضربه، وقد حاول بعض الحضور إمساك يد «غالب» فلم تتمكن الضربة من الحاجب فشجَّت يده ووجهه، وألقى ابن أبي عامر نفسه من رأس القلعة خوفًا من أن يُجهز عليه، وقضى الله أن يتعلَّق بشيء في الهواء منعه من الهلاك فاحتمله أصحابه وعالجوه حتى برئ.

❀❀✻❀❀

(10)

جلست الذلفاء تحاول التخفيف عن أسماء التي كانت تبكي وهي تقول لها:

- سيجعل الله بعد عسر يسرًا.
- هل هناك من هو أتعس مني في كل الأندلس؟ أبي وزوجي؟ فكيف لحرب كهذه أن تنتهي؟ حرب أنا وحدي الخاسرة فيها في كل أحوالها.
- هوِّني عليك، فهذا قدر الله ولا راد لقدَرِه.
- والأسوأ من ذلك استعانة أبي -وهو من هو في القتال والجهاد- بالنصارى، فكيف تكون هذه هي النهاية؟

ثم أجهشت بالبكاء.

وفي معسكر الحاجب كان الطبيب يضمِّد جرحه والقادة حوله ينظرون إليه، وبالقرب منه يجلس جعفر بن علي وهو يقول في نفسه: لقد كان بنو أُميَّة يرون في «غالب» الوحيد الذي يستطيع مقارعتي، وكان أهل الأندلس جميعًا يرونه بطلًا وفارسًا لا يُشقُّ له غبار، آه يا «غالب»! لقد أحللت لي دمك، فقد كنت حجرًا كبيرًا أمامي لا أرى لك حلًّا أو تصريفًا، أما وقد استعنت بالنصارى عليَّ فلن تجد لك نصيرًا.

اقترب جعفر بن علي من الحاجب وقال:

- سيِّدي، هل سنمكث هنا كثيرًا؟
- إن كان قد امتنع في بعض حصونه فلنهاجم مدينة سالم حيث داره وأمواله.
- هذا خير من مكوثنا هنا.

وكان الطبيب قد أنهى الضمادة، فقام المنصور وارتدى خوذته وخرج من الخيمة وتبِعه كل رجاله فامتطى جواده وقال:

- إلى مدينة سالم، حيث دار «غالب» وأهله.

وتحرَّك الجيش والمنصور يفكِّر في الأمر حتى إذا وصل استولى على المدينة وعلى سائر أموال «غالب» ومتَاعِه وفرَّقها في الجيش، وكان «غالب» أعظم قادة الأندلس وأبرعهم في ذلك العصر، وكانت لديه في الثَّغر قوات يعتدُّ بها، فنهض لقتال قوات ابن أبي عامر، واستعان «براميرو الثالث» ملك ليون، فأمدَّه ببعض قواته، وسار ابن أبي عامر لمقارعة خصمه في معركة حاسمة، ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنت SanVicente على مقربة من «أنتيسة» ونشبت بينهما معركة شديدة، أبلى فيها «غالب» وقواته بلاءً حسنًا، وكاد يحرز النصر في البداية، وكان قد جمع جموعًا عظيمة من المسلمين والنصارى، فبدأ بالهجوم على الميمنة، وفيها جعفر بن علي وأخوه يحيى والبربر، وحمل عليهم حملة أزاحتهم عن مواقعهم ومزَّقت صفوفهم، ثم حمل على الميسرة، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء، ففعل بها كما فعل بالأولى، ثم أخذ يتأهَّب لمهاجمة القلب وهو تحت قيادة ابن أبي عامر نفسه.

وكان المنصور يتابع القتال ويتعجَّب كيف لشيخ كبير كغالب أن يهزم ميمنة جيشه وميْسرتِها فنظر إلى عمرو وقال:

- كيف له أن يُزيح الميمنة ثم الميسرة بهذه السهولة؟

- إنه «غالب الناصري» وإن جاوز الثمانين.

- آه، إنها لخسارة عظيمة ستخسرها الأندلس بفقدانك يا «غالب».

أمَّا «غالب»، فكان يُمسك سيفه ويريد الانقضاض على القلب وهو يقول:

-اللهم إن كنت أصلَح للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره.

ثم نظر إلى الحاجب وإلى الفراغ من حوله، وإلى جنوده وجند أبي عامر ثم هزَّ فرسه، وترك جبهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان في جانب عسكره، فظنَّ أصحابه أنه يريد الخلاء، فلمَّا أبطأ عليهم، ركبت طائفة منهم نحوه، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتًا قد فارق الدنيا، بلا ضربة ولا رمية ولا أثر، وفرسه واقف بجانبه يأكل لجامه، ولا يعلم أحد سبب موته. فلمَّا أدرك أصحابه

سقط في أيديهم، وطلبوا حفظ أنفسهم، فبادر مبادر منهم بالبشرى إلى ابن أبي عامر، فلم يصدِّق حتى وافى موافٍ بخاتمه، ووافاه آخر بيده، ولم يُعرف سبب مصرعه لأنه لم يُقتل بيد أحد، وحملت رأسه في الحال إلى ابن أبي عامر، فدبَّ الوهن والذعر في قواته، وطاردتها قوات الأندلس، وأمعنت فيها قتلًا وأسرًا، وهلك من الجند النصارى الذين كانوا يقاتلون إلى جانب «غالب» عدد جمٍّ. وكان بين القتلى أمير نصراني هو «راميرو بن سانشو أباركا» من أمراء البشكنس، كما قتل كذلك في المعركة عدد من الكبراء والقادة المسلمين الذين كانوا مثل «غالب» يعارضون سياسة ابن أبي عامر.

وفي الوقت الذي كان يحارب فيه المنصور كانت صُبْح تتمنى هزيمته وعودته سالمًا بنفس الوقت، فكأنها إنما كانت تريده أن يعود في حاجتها كما كان من قبل، فجلست مضطربة لا يقَر لها قرار حتى جاء الخبر بتحالف «غالب» من ملك ليون، عندها تمنَّت هزيمة «غالب» وانتصار المنصور.

أمَّا أسماء، فلم تنقطع لحظة عن البكاء، وامتنعت عن الطعام، وفشلت كل محاولات الذلفاء لإخراجها مما هي فيه، حتى إذا وصل إليها خبر مصرع أبيها أجهشت بالبكاء ولم يستطع أحدٌ إسكاتها.

ولكنها لم تملك مع ذلك إلا الترحُّم على والدها والدعاء له، حتى إذا وصل المنصور إلى الزاهرة أظهر لها الحزن ولم يبارك انتصاره أو يتفاخر به أمامها، ولكنه في ذات الوقت فعل أمرًا عجيبًا، إذ بلغت القسوة به أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريع الباسل، فحَشَا جِلده بالقطن، وصُلب على باب القصر بقُرطُبة، وصُلب رأسه على باب الزاهرة، ولبث كذلك دهرًا، لم ينظر إلى أسماء بعين الرحمة أبدًا رغم محاولاته التخفيف عنها.

وفور انتهاء تلك الموقعة وانتهاء المنصور من أكبر خصم له، أعلن في الأسواق أن لا أحد يخاطبه إلا بصفة واسم الملك الكريم الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، كما أمر أن تُنقش السَّكَّة باسم الخليفة على وجه، واسمه على الجهة الأخرى.

الفصل السابع

الملك الكريم

«عاش الإسلام في إسبانيا أروع أيامه وأسطعها، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائمًا مقرونة بالمِحن، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجِزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية».

المؤرخ الإسباني مننديث بيدال
معلِّقًا على عصر المنصور

(1)

كان الليل قد أسدل أستاره على الزهراء فنامت إلا الحرس الصقلبي الذي كان يراقب كل شيء داخل المدينة الخلافية، ونام الخليفة الذي لم يكن له من الخلافة إلا الاسم، ولكن أمه السلطانة صُبْح لم تنم، بل تركت مخدعها وخرجت إلى الحدائق تراقب الليل البهيم وهو لا يريد أن ينقضي، ظلت تتحرك حتى أعياها التعب، فسندت ظهرها إلى إحدى أشجار النخل الباسقة وتنهدت قبل أن تجلس والحزن بادٍ على وجهها، ثم قالت في نفسها: لم يكتفِ بما حققه من حجر على ابني حتى تسمَّى بالملك الكريم، فهل يُبقي الخليفة في كنف الملك، أم يُبقي الملك في كنف خليفة لا يملك من أمره شيء؟ آه يا صُبْح، لو أنك لم تساعديه لمَا وصل إلى ما وصل إليه، فكيف فتنَكِ بحبه حتى كان ابنك والخلافة هما الضحية؟ أجل يا صُبْح، لم تعودي السلطانة، ولم تعودي زوجة الخليفة الذي مات، ولم تعودي إلا أم الخليفة الذي كنتِ سببًا في بؤسه وشقائه، لقد ضيَّعتِ مُلك الداخل والناصر يا صُبْح، ووالله لو تحدَّثت تلك النخلة للعنتْكِ لِمَا فعلتِ، ولو رجع الحَكم من موته لقتلكِ وقتله، ثم صمتت فترة طويلة تحركت بعدها صوب القصر، حتى إذا وصلت على أعتابه قالت في تحدٍّ: ولكني لن أسكت لأرى ابني وهو يُقتل أمام عيني، تبًّا للحب، كم له من ضحايا!

وما إن أشرقت الشمس حتى ارتدت صُبْح ثياب بعض الوصيفات وخرجت من الزهراء وهي تتوارى عن الأنظار وقصدت دُور بني أُميَّة، فدخلت على أحدهم وهو «عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر» وكان أكبر أبناء الناصر الأحياء، وكان الأصبغ وعبد العزيز قد تُوفيا، وما إن دخلت حتى خلعت نقابها

فعرفها الأمير عبد الجبار الذي رحَّب بها وأجلسها في مجلس الرجال، وكان معه كبراء بني أُميَّة يتسامرون فيما بينهم، فما إن رأوها حتى نظروا إليها ملتزمين الصمت، فقالت لهم:

- أجل أنا أم الخليفة وإن كنت بشكنسية، ولكنه ابن أخيكم ومنكم يا بني أُميَّة، وهذه خِلافتكم ومُلككم الذي حُجب عنكم وحُجبتم عنه، فماذا أنتم صانعون حيال ما يحدث؟

تحدَّث عبد الجبار بصوته الجهوري فقال:

- وماذا نصنع وقد أحكم هذا الثعلب يده على الحُكم، فاستلب من ابن أخينا مُلكه وحرمنا حتى من الدخول عليه، وفعل بنا ما لم يفعله أحد من قبل، يقول: من أجل حماية الخليفة، والخليفة من ذلك براء.
- هل يعني ذلك أنكم سترضون بما كان، أنا أعلم أن الداخل جدَّكم الكبير لم يرضَ أن يمكث في الأندلس في رغد من العيش إلا أن يحوز مُلك آبائه، وكذا فعل الناصر.
- لكن الظروف غير الظروف والزمن غير الزمن، فعندما نهض أبي بالمُلك لم يعترض طريقه أحد إلا أعداؤه الذين بدَّدهم، أما هشام ابن أخي فهو الخليفة، ولكنه راضٍ بما هو فيه، وهذا الثعلب حاجِبه ومدبِّر دولته أمام الناس.
- من قال إنه راضٍ؟
- لماذا إذن لا يسترد مُلكه وهو يعلم أن قلوب العامة معه؟
- القلوب وحدها لا تكفي، فجميعنا يعلم أن حُكم السيف أشد من حُكم القلب، وماذا تفعل العامة وقد حُرمت أسباب القوة؟
- هذا مع غير الخليفة الذي لو نهض لبطش الشعب بعدوِّه ونحن معهم، والعامة المحرومة من أسباب القوة ستكون هي القوة لو وجدت خليفتها أمامها، عندها يفتدونه بأرواحهم، فضلًا عن الجيش الذي سينحاز إلى الخليفة لا حاجبه.

- إذن تبثون في الناس أن العامري قد حجَر على خليفتهم، ولكم فيهم محبة يا بني أُميَّة ومواليكم كُثر.
- لكن موالينا قد صار بعضهم أو كثيرهم معه.
- ذلك لأنكم رضيتم بذلك فظن الموالي أن هذا هو الصواب وأنه رجل دولتكم، ولكن لو علموا نواياكم لانضموا إلينا.
- لكن هل تظنين أن ذلك مُجْدٍ؟
- أنتم أعمام الخليفة، فماذا يصنع معكم إلا أن يعادي الخليفة علنًا وهو لا يريد ذلك؟ سنحاربه بنفس السلاح الذي حاربنا به، أقصد الأموال، وعندنا منها الكثير، فاستخدموها لشراء الرجال والذِّمم.

❀❀✻❀❀

(2)

كان الحاجب المنصور يجلس في قصره حينما دخل عليه ابن عمه ووزيره عمرو وهو يقول:

- لقد كثُرت الأراجيف حول الخليفة وحجْرِك عليه، يقولون كيف له أن يحجب عنا خليفتنا وإنما هو حاجبه، ولا طاعة له إلا عن طاعته للخليفة؟
- لا أدري ماذا أصنع لهم يا عمرو؟ لقد أتعبني أهل قُرطُبة ولا أدري ماذا صنع لهم هشام حتى يحبوه؟!
- حتى لو لم يقدِّم لهم شيئًا، فهم يقولون إنك السبب في ذلك، إذ كيف يقدِّم لهم وهو محجوب عنهم؟
- ألم يكفهم ما حققت لهم من سحق الصقالبة، ثم كل هذه الانتصارات ورغد العيش الذي يعيشون فيه، وقد صارت قُرطُبة كلها قصورًا وحدائق، ولم أكتفِ بذلك حتى جددتُ لهم قنطرة الدهر وأنشأت قنطرة في أستجه ونشرت الأمن والأمان.

- يقولون بهذا ولا ينكرونه، ولكنهم يقولون إنه لم يفعل ذلك من مال أبيه.
- هذا ليس كلام العامة، ولكل فتنة رأس مدبِّر، فمن هو رأسها يا عمرو؟

صمت عمرو قليلًا ثم قال:

- بنو أُميَّة.
- بنو أُميَّة.
- أجل، ولا أظنهم إلا أن يؤلِّبوا الناس علينا.
- إذن فلتُعلِن في الناس أن الخليفة سيخرج لهم، ولنرَ ماذا سيصنع بنو أُميَّة بعد ذلك؟!
- حقًّا؟
- أجل.
- خيرًا فعلت، وبذلك تقطع الألسنة.
- ليس هذا فحسب، بل سأكون مع الخليفة وبجواره، وليُرِنِي بنو أُميَّة ما هم فاعلون.

وفي اليوم التالي وصل الحاجب إلى الزهراء ومعه موكب كبير من الحرس، ودخل على الخليفة الذي كان يجلس صامتًا فقال:

- ستخرج يا مولاي للرعيَّة تراهم وتتنزَّه بينهم.

ابتهج هشام كثيرًا لخروجه من الزهراء، فهبَّ واقفًا وقال:

- أراهم ويرونني؟!
- أجل يا مولاي، وسأخرج معك وبجوارك، وسترتدي الطويلة وتُمسك بيدك القضيب فيعرفك الناس ويميزونك.

لم يصدِّق هشام نفسه وهو خارج من الزهراء، تلك المدينة الجميلة التي صارت مع الوقت سجنًا كبيرًا له، فسعِدت نفسُه وانتعشت روحُه وهو يرى العامة يدعون له ولأبيه الحَكم ولجدِّه الناصر، يقولون له:

- نحن مواليك يا سيدنا، مُرْنَا بما تحب، فأنت الخليفة وابن الخلائف، نحن طوع أمرِك، مُرْنَا نُجِب.

والمنصور يسايره ويمشي بين يديه ويسمع كلام العامة فيزعجه، ولكن لم يكن يملك إلا الصمت، حتى إذا عاد إلى الزاهرة تحدَّث إلى رجاله وقال:

- نعم قطعنا ألسنة الناس، ولكن لم نقطع مدبِّري الفتنة، فإن نحن سكتنا عنهم لن يسكتوا عنا، وأمور الدولة كثيرة، وعلى ثغورها عدو ينتظر الفتنة لينهش في جسدها، وها أنتم رجالي ووزرائي، فإن علمتم من هو مدبِّر الأمر، وإلا أستغني عنكم.

بعضهم: إنهم بنو أُميَّة يا سيِّدي.

غضب الحاجب وقال بصوت مرتفع: أتريدون أن أقتل كل بني أُميَّة فيثور الناس عليَّ؟ ومن ذا الذي يؤكد أن كل بني أُميَّة ضالعون في الفتنة.

عمرو: ليسوا جميعًا يا سيِّدي، ولكن بعضهم.

الحاجب: وأنا أريد معرفة هذا البعض لأصرفه عن البعض الآخر.

عمرو: إنه محمد بن عبد الجبار بن الناصر.

عاد الحاجب إلى كرسيه وقال: محمد بن عبد الجبار.

ثم نظر إلى صاحب الشرطة العليا وقال له: لا أريد للشمس أن تشرق ومحمد هذا حي يُرزق، ليس هو وحده، ولكن كل من ساعده في هذا الأمر، وليكن شعارك الذي ستنشره بين الناس أن محمد بن عبد الجبار أراد أن يتآمر على الخليفة فقتلناه.

أما باقي بني أُميَّة يا عمرو، فعليك بهم، فأنت صاحب المدينة.

عمرو: وماذا أصنع بهم؟

الحاجب: أريدهم أن يدخلوا زوايا النسيان والخمول، يجب أن نهدم مكانتهم في النفوس، يجب أن نقطع تلك الصِّلات بينهم وبين الناس، وأن تقتل يا عمرو كل من يصلح للخلافة منهم أو تتوسم فيه النباهة، وأن تشدِّد الرقابة عليهم وتُلزمهم الإقامة الجبرية، فلا يُسمح لهم بالخروج إلا للضرورة، ولا يختلط بهم أحد إلا الأطباء، وأن تُجبرهم على الاقتصاد في النفقة، فالمال عصب الدولة وبه تُشترى الذمم، أمَّا من تولَّى لي عملًا فلا يسير على نهْج الحَكم أو الناصر أو الداخل، وإنما نسير على نهْجٍ غيرَ نهْجهم.

عمرو: كيف لا نسير على نهْجهم؟ فهل كانوا على خطأ.

الحاجب: لو كانوا على خطأ ما سادوا الدنيا ولا الجزيرة ولا هابهم ملوك الدنيا، ولكن نتبع طريقًا للحق غير طريقهم، فلا يقولَنَّ قائل إنما نسير على خُطاهم، فيكون من باب تذكُّرهم والإشادة بهم، حتى في الغزو، فإنهم كانوا يغزون في العام مرة واحدة في الصيف، فسنغزو صيفًا وشتاءً.

❀❀*❀❀

(3)

معركة وادي دويرة الأوسط

جلس «الحاجب المنصور» على كرسي الحُكم في الزاهرة ودخل عليه الكبراء والأعيان، وكان كل وزير لا يجلس إلا بعد تقبيل يده، حتى إذا جلسوا جميعًا ودخل «عبد الملك بن المنصور» قام الجميع وقبَّلوا يده أيضًا وبذلك تساوى المنصور مع الخليفة هشام في المراتب، ولم يجعل فرقًا بينه وبين الخليفة إلا في الاسم فقط وفي تصدير الكتب عنه.

الحاجب: يجب معاقبة مملكة ليون على تحالفها وخروجها عن الطاعة يوم أن ساندت «غالب الناصري» ضدنا.

«جعفر بن علي»: ما زال الجند على أهُبتهم يا سيِّدي، فلو أمرت لأخرجنَّ لهم ولأُبددنَّ شمْلهم وجمْعهم.

«الحاجب»: بل نخرج معًا، فلستُ أنا من يقنع بالجلوس في القصور فأتساوى بذلك مع صاحب الزهراء.

«عمرو»: أراك يا سيِّدي تفكر في أمرٍ جلل.

وقف المنصور وقال: أجل يا عمرو، فقد حان الوقت ليعلم الجلالقة والبشكنس والقشتاليون أنهم هنا رهنُ أمرِنا، وأن سلامهم وحياتهم، بل وحياة ملوكهم شرطٌ لطاعتنا، يجب أن نسحق تلك القوة التي يناجزوننا بها

منذ قرون، وأن نقضي على استقلال تلك الدويلات الصغيرة، فلا تتجرأ على الخروج علينا بعد ذلك.

جعفر بن علي: صدقت يا سيدي، إذ يجب علينا إخضاعها لسُلطاتك.

المنصور: لقد دأب الخلفاء من بني أُميَّة على ردِّ الغارة والوقوف في موقف الدفاع فقط، أمَّا نحن، فلنا نهجٌ مختلف، إذ لن نقنع بالدفاع بعد اليوم، بل سنكون دومًا من نبدأ الحرب، فلا يعرف هؤلاء راحة ولا يقر لهم قرار، ولن نقنَع أو نرضى منهم بصُلح كما فعل السابقون، فأنا الحاجب المنصور لا أرضى ولا أقنع إلا بالنصر الكامل.

تجهَّز الجيش وخرج المنصور على رأسه في أبهى صورة، وبجواره ابن عمه عمرو وجعفر بن علي، وكان يومًا مشهودًا، فقد كان الجيش مكتمل العدد والعدَّة وكله من الفرسان.

سار المنصور إلى مملكة ليون وقصد مدينة «سمورة الحصينة» الواقعة شمالي «شلمنقة» وضرب حولها الحصار، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة، فتركها وعاث فيما حولها من السهول والضِّياع، وأمعنت قواته في التخريب والقتل، وأحرقت مئات القرى والضِّياع، وهام النصارى على وجوههم في الجبال والوديان ألوفًا مؤلَّفة.

وفي «برغش» اجتمع «راميرو الثالث» مع «غرسيه فرناندیز» و«سانشو» ملك «نافار» وكل منهم مرتدٍ لباس الحرب، فقال «راميرو»:

لقد حاصر سموره وهزم كل الحاميات التي تصدَّت له، ولا أظنه يرجع عنا أبدًا، فهذا الرجل غير من سبقه.

غرسيه: إنه يخرج للقتال بنفسه.

سانشو: إنه يتشبَّه بخليفتهم الناصر، ذلك الذي كان يقود الجيش بنفسه.

راميرو: لكن الناصر لم يرتدع إلا حينما اجتمعت عليه جيوشنا يوم الخندق فآثر بعدها السلامة ولم يخرج بنفسه بعدها.

غرسيه: ولهذا فأنا أقترح عليكم الاتحاد، فلن يستطيع المنصور هزيمة جيوشنا إن اتحدَت.

سانشو: إذن نتحالف على ذلك، وعلى ألا يخون بعضنا بعضًا.

وعلى رسم الصليب تحالف الملوك الثلاثة واجتمعت جيوشهم وسارت للقاء المنصور الذي لم يهتز لهذا الحلف أو يخشَه، بل ثبت مكانه كجبل صخر لا يتزحزح، ونشب القتال بين الفريقين في ظاهر بلدة «روضة «في جنوب غربي «شنت منكش»، فهُزِم النصارى وقُتل منهم عدد كبير، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكش الشهيرة، ثم زحف ابن أبي عامر بعد ذلك شمالًا إلى مدينة «ليون» عاصمة المملكة، وهنالك وقف «راميرو» في قواته محاولًا اعتراضه، وحاول المسلمون اقتحام المدينة، ووصلوا في هجومهم بالفعل إلى أبوابها، ولكن الشتاء كان قد دخل، وغمرهم البرد والثلوج، فاضطروا إلى وقف القتال، وعاد «ابن أبي عامر» إلى قُرطُبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر.

❀❀✻❀❀

(4)

كان الهدوء يلُف المكان في الزاهرة، فقد خمدت الشموع والمواقد وخفتت الإضاءة وانصرف الجميع، وبقي المنصور وحده يتدبر أمره بعد أن باركوا له نصره العظيم وهو يجلس على كرسيه بالزاهرة، وكان قد شعر بعدم حاجته إلى النوم فتحرك من مكانه وخرج إلى حديقة القصر، حيث السماء الملبَّدة بالغيوم في مثل هذا الوقت من العام، وعلى كرسي مخصص وسط الحديقة جلس المنصور ليقترب منه بعض الحراس يقدمون له الطعام والشراب، وبينما هو كذلك إذ أقبل عليه «سكر الصقلبي» وقال له:

- لقد التقى «جعفر بن علي» يا سيِّدي بالسيدة صُبْح هذا الصباح في الزهراء، وقد جاء تلبية لدعوتها له.
- هذا الصباح؟ وبهذه السرعة؟ فما عدنا من ليون إلا البارحة فقط.
- أجل يا سيدي.

- فماذا جرى بينهم؟
- لا أدري، فقد كانت السيدة منتبهة لنا فلم يستطع أحد الاقتراب منها.
- وكيف تسمحون له بالدخول دون إذني.
- ما كنا نستطيع منعه يا سيِّدي.
- لا بأس، انصرف الآن وإياك أن يفوتك شيء ما.

انصرف «سكر» وعاد المنصور إلى صمته وهو يحاور نفسه ويقول: كان «غالب الناصري» أقوى رجل في الجزيرة، ولكنه كان هناك بعيدًا في الثغور يقطن مدينة سالم، أما هذا الذي حضر من العدوة فهو القوي القريب الذي لا أعرف ماذا سيفعل غدًا وماذا قالت له صُبْح، فما زالت تدبر لي منذ زمن، آه يا جعفر، لو أنك ذكرت لي لقاءك بها لمَا ارتبت الآن بك، لماذا عليك يا محمد أن تقتل كل رجال الجزيرة الأقوياء وتحجر على كل من يصلح للحكم من بني أمية؟ لماذا عليك أن تُخلي الجزيرة من الرجال؟

كانت تلك الأسئلة التي تراود عقل المنصور، فقد انقسمت روحه إلى قسمين يخاطب كل منهما الآخر، فكان ردُّه على نفسه أن قال: لو لم أفعل ذلك لانقلبوا عليَّ، والناس أكثر حقدًا على رجل خرج منهم فبلغ الذروة، أما الوزراء والكبراء فهم يرونني دخيلًا عليهم، ومنهم من يرى نفسه أحق بالأمر مني، أما بنو أُميَّة فيرونني مغتصبًا مُلكهم، لهذا يجب عليَّ أن أضرب ولا أبالي، فإما المُلك وإما الموت.

لم يطلع الصباح حتى أرسل المنصور إلى «أبي الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي»، وكان «معن» من خيرة فرسان العرب وأشدهم بأسًا وقوة، فلمَا دخل «معن» على «المنصور» انكبَّ على يده يقبِّلها. صفَّق المنصور للحضور فانصرفوا جميعًا حتى الحرس الصقلبي، ثم نظر المنصور إلى معن وقال:

- لقد نظرت في فرسان الجزيرة فلم أجد أشجع منك قلبًا ولا أخلص منك عملًا.
- أنا طوع أمر الملك الكريم.

- اسمع يا «معن» لقد كثر البربر علينا وقويت شوكتهم، وإني والله أحبُّهم وأُجِلُّهم، ولكن لا ينبغي للدولة أن تكون فيها قوَّتان كبيرتان، فهذا بابٌ للفتنة، وأنا لا أريد أن يحدث في الأندلس ما حدث بيني وبين «غالب» رحمه الله.

- تقصد يا سيِّدي «جعفر بن علي»؟

- أجل، وإن لم نستدرك الفتنة في أولها فستكون شرًّا مبينًا، لهذا...

ثم وقف المنصور واقترب من «معن» الذي خفض رأسه فقال له:

- أريدك يا معن أن تقتله فتُنهي فتنة لا نعلم إن بدأت كيف ستنتهي.

- لكن يا سيِّدي....

- أعلم بأس جعفر وقوته، ولهذا سندبِّر له، ولكن كُن على أتمِّ استعداد واستعن بمن تثق بهم من رجالك.

هزَّ معن رأسه وقال: أمرك سيِّدي.

وفي مساء اليوم التالي دعا المنصور «جعفر بن علي» إلى مأدبة عامرة كبيرة وجلس طوال الليل يسامره وقد أغرى به السُّقاة حتى فقد وعْيَه، وكان المنصور يقول: هذه ليلة «جعفر بن علي» ويجب على الجميع إكرامه.

وجاء ساقي المجلس بكأسٍ منتخبة، وقدِم إلى حيث «ابن أبي عامر» فنظر إليه الحاجب وقال:

- اسقِها أعز الناس عليَّ.

وقع الساقي في حيرة لكثرة من ضمَّ المجلس من العِلية، فزجره ابن أبي عامر وقال:

- ناوِلها الوزير أبا أحمد، عليك لعنة الله.

ابتهج جعفر بما سمع ولم يسعْه الجلوس، فقام من مكانه فتناولها على قدمه، واستخفَّه الطَّرب حتى قام يرقص، فلم يبقَ أحد بالمجلس إلا فعل كفعله، وأُمِيلت إليه الكؤوس حتى ثقُل، فلما همَّ بالانصراف وقف له المنصور وقال:

- نمْ عندنا الليلة يا أبا أحمد، فقد رأيتك وقد كادت الخمر أن تصرعك.
- أتفعل الخمر بجعفر ما لا يستطيع الفرسان فعله؟! لا يا سيِّدي، بل أنصرف إلى داري.

وخرج متثاقلًا متمايلًا في جوف الليل مع بعض غِلمانه، فخرج إليه معن وأصحابه، فلم يكن فيه امتناع لما كان عليه من السُّكر، فأخذته السيوف حتى برد، وحُزَّ رأسه ويده اليمنى وحُملا إلى ابن أبي عامر سرًّا.

ولمَّا أشرقت الشمس وانتشر خبر مقتل «جعفر» قدِم «عمرو بن عبد الله» إلى قصر المنصور ودخل عليه، وكان لا يعلم بتدبير المنصور، فقال له:

- لقد وقع أمر جلل يا «أبا عامر»
- أهو أمر الخليفة؟
- بل أمر «جعفر بن علي»
- ما به؟
- لقد وجدوه مقتولًا خارج الزاهرة.
- ماذا تقول؟
- هذا ما حدث.

جلس «المنصور» وكان ما يزال واقفًا واصطنع وكأن الخبر قد نزل عليه نزول الصاعقة وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن كيف ومن ومتى؟
- العلم عند الله، ولكن يتهامس أهل قُرطُبة بك.
- ماذا؟ وكيف أقتل رجلًا أنا من استقدمه واستعمله؟
- هذا كلام العامة يا ابن العم.
- العامة العامة، إلى متى تتحدث العامة؟ أليس لهم شأن غيري؟
- وكيف يكون لهم شأن غيرك وأنت لا شأن لك غيرهم.

- اسمع يا عمرو، العامة ذاكرتهم قصيرة صغيرة، لا يتذكرون إن نحن أحسنَّا إليهم، فاشغلهم عني بغيري، أم أن رغد العيش الذي هم فيه جعلهم يتفرَّغون لي؟!
- كيف ذلك؟
- عندما تتحدث العامة في أمر يخص السلطان وجب علينا شغلهم بأمر آخر دونه، لذا أريدك أن تقوم بتوسعة المسجد الجامع بقُرطُبة.
- «مبتسمًا» كنت أريد أن أحدِّثك في هذا، إذ دأب الخلفاء والأمراء من بني أُميَّة على توسعة الجامع وتجديده.
- ولكني لستُ من بني أُميَّة ولن أفعل كما فعلوا، ولكن سأجعل هذا التجديد هو أكبر وآخر تجديد يحدث في المسجد الجامع.
- لكن كيف وقد أُحيط المسجد بالبيوت من كل ناحية، فضلًا عن القصور الملكية.
- أعلم ذلك.
- هل تريد أن تهدم القصور أم الدور؟
- لن نهدم القصور الملكية فينقم العامة، يقولون حجَر على الخليفة وهدَم قصوره، ولكن أرى أن نقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحًا جديدًا، لأن ناحيته الغربية متصلة بالقصور الملكية، فنقيم بحذاء الجامع من شماله إلى جنوبه، على رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية، وتراعي في إنشائه البساطة والمتانة قبل الزخرفة، كما تراعي التماثل والمطابقة للصرح القديم، فتنزع من أجل ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور، على أن تُنصف أصحابها بما يستحقونه من ثمن أو معاوضة، بل من طلب منهم دينارًا أعطه اثنين ولا تبخل عليهم.

وبدأ المنصور في توسعة المسجد، فانشغل الناس عن الحديث عنه وحجره على الخليفة وقتله جعفر بن علي إلى الحديث عن المسجد والزيادة فيه وخصوصًا أن «المنصور» عمل في المسجد بنفسه، فكان يحمل معهم الطوب والأحجار، وأضحى بذلك المسجد يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ

في الطول مائة وثمانين مترًا، وفي العرض مائة وخمسة وثلاثين مترًا، وكان يشتغل فيه عدد كبير من الأسرى النصارى، الذين أخذوا في مختلف المعارك، وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة، ألفًا وأربعمائة وسبع عشرة، وبلغت ثريَّاته ما بين صغيرة وكبيرة مائتين وثمانين، وبلغ عدد المكلَّفين بالخدمة به في عهد المنصور، ما بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسَدَنَة وغيرهم مائة وخمسين شخصًا، وكان الجامع وما حوله يُعتبر وحده ربضًا مستقلًّا يتولاه عرِّيفة وحراسة على حِدة.

❀❀✻❀❀

(5)

في مدينة ليون الحجرية اضطربت الأحوال جرَّاء الهزائم المتتالية التي مُني بها «راميرو الثالث» ففقد كل تأييد وتعاطف، وزادت نقمة الشعب عليه خصوصًا وقد حاول أن يبسط عليهم سلطانًا مطلقًا، فتذمر الشعب، ولكن «راميرو» قهرهم بالقوة والسلاح، وسجن الكثيرين منهم وفرَّ الباقون إلى «جليقية» وهكذا هو دومًا حال الملوك الضعفاء، يستقوُون على شعوبهم ويحكمونهم بالحديد والنار، ولا يسمحون لأحد بانتقادِهم، فمن انتقدهم كان مكانه السجن أو القبر، وكانت «جليقية» تتبع «ليون» ولكنها بعيدة عن العاصمة، فاجتمع الأشراف فيها على وجوب خلع «راميرو» وكان متزعمهم في ذلك «برمودو» ابن عم «راميرو» الذي وقف وسط الحشود وقال:

- إن لكل مَلكٍ علامة، فما هي علامات «راميرو» إلا أن صار تابعًا للمسلمين بعد أن هزموه غير مرة؟ وبدلًا من أن يعمل على تقوية جيشه ذهب إلى شعبه يفرض عليهم الضرائب والمكوث.

بعض الأشراف: صدقت، وإنا لن نرضى بذلك.

«برمودو»: فماذا أنتم فاعلون؟

الجميع: نخلع «راميرو» ونجعلك ملكًا علينا، فأنت أحق بالمُلك منه.

ثم تقدَّم منه أحدهم وهو يحمل تاجًا فوضعه على رأسه، فهتف الجمع: عاش الملك «برمودو»... عاش الملك «برمودو»

برمودو: لكن ولأنكم بايعتموني فاعلموا أن «راميرو» لن يسكت على ذلك، فاستعدوا للحرب والقتال.

الجميع: نحن معك أيها الملك، نحن معك، فسِر بنا إلى قتاله.

وتحرَّك «برمودو» وجاب كل شوارع المدينة، وفي كل مكان كان يجتمع الناس حوله وقد قويت نفسه بهم، حتى إذا حلَّ المساء وعاد «برمودو» إلى قصره جلس على كرسيه يفكر في أمره، وقد أيقن أن «راميرو» لن يسكت على ذلك، فتأهَّب للقاء ابن عمه.

وسار «راميرو» إلى محاربته ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة في بلدة «بورتليا دي أريناس» على حدود ليون و«جليقية» ثم عاد «برمودو» إلى جمع قواته وسار لمحاربة خَصمه مرة أخرى، فهزمه واستولى على مدينة ليون، فالتجأ «راميرو» إلى مدينة «أسترقة» والتمس مساعدة المنصور على أن يعترف بطاعته، ولكنه تُوفي بعد ذلك بأشهر قليلة، وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور، فأبى المنصور أن يستمع إليها، وأدرك «برمودو» من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه إلا بمعاونة المسلمين، فتقدَّم إلى المنصور وعرض أن يعترف بطاعته، فقبِل «المنصور» وأمدَّه بجيش استطاع أن يُخضع به سائر المملكة، وأن يوطِّد حكمه، وبقيت بعد ذلك في مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية، لأول مرة، ولاية تابعة لحكومة قُرطُبة، تؤدي لها الجزية، وتأتمر بأوامرها، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظَّم التي سار عليها المنصور.

❀❀✻❀❀

(6)

أقبل الصباح في ذلك اليوم مشرقًا جميلًا على الزاهرة والزهراء، فقرر الحاجب المنصور أن يزور الزهراء ليقطع تلك الألسنة التي تقول إنه حجَر بالكامل على الخليفة، وهل للحاجب أن يبتعد عن مولاه، لذا دخل الزهراء، تلك المدينة التي كان يحلم يومًا بولوجها، دخلها كمن يملكها، فاقترب منه الفِتيان الصقالبة الذين كانوا يراقبون الخليفة وأمه، بل إن الخليفة لم يكن يُنفَّذ له أمر حتى داخل قصره ولا على حرمه إلا بإذن المنصور.

وشَى الفِتيان للمنصور بكل شيء، وكانت «صُبْح» واقفة تراقبه من شرفة قصرها بالزهراء وهو يعلم بوقوفها، ثم قال لكبير الفِتيان:

- اصرف من الخدمة كل من يدين بالولاء للخليفة وأمه وبني أُميَّة أو حتى يتعاطف معهم ولو بالكلمة.

وبينما يقول ذلك كانت صُبْح قد نزلت من شرفتها لتلتقيه، ولكن المنصور تحرَّك صوب الخليفة، وكان الخليفة متكئًا على أحد الجدران فتقدَّم منه المنصور وقال بلهجة غير مكترثة:

- مولاي.
- مولاك؟ مولاك المنشغل بالعبادة أم مولاك الذي لا يصلح للحكم؟
- بل مولاي أمير المؤمنين.
- قل لي أيها الملك الكريم «أليس هذا لقبك؟!» كيف للأمة أن يحكمها اثنان؟ أليس لأحدنا أن يقتل الآخر فيصفو الأمر للثاني؟
- ولماذا؟ أنا أعمل لدولتك، وكل ما أفعله منسوب إليك ولا أنازعك مُلكك ولم أخرج عليك.
- مُلكي، وأين هذا المُلك وأنا لا أحكم حتى على خَدمي؟
- هل نقص شيء من أمير المؤمنين فنُكمله؟
- وماذا أريد وأنا آكل وأشرب كما تأكل الأنعام؟

وكانت صُبْح قد وصلت إلى حيث المنصور، فنظر إليها هشام ثم تركهما ولهث خلف الجواري يلعب معهن، وهي تنظر إليه وقد ملأ قلبها حسرة كبيرة، ثم نظرت إلى محمد الذي حاول تجنُّب نظراتها وقالت له:

- هل أنت هذا الرجل الذي رفعته بيديَّ حتى بلغ الذروة؟ هل يقال إن صُبْح البشكنسية أسلمت ولدها لقلبها فحجره وأضاعت مُلكه ومُلك آبائه؟
- بل أنا الرجل الذي أحافظ على مُلك ابنك يا أم هشام.
- أم هشام؟ وكنت من قبل تنادِيني بصُبْح فأحبها منك، فهل انتهت صُبْح وبقيت الأم فقط؟
- بل صُبْح التي أحببتها.
- كم أحب اسمي منك! فما زلتَ رغم السنين تجذبني يا محمد.
- لكن هذا الحب لم يمنعكِ من التآمر عليَّ مع بني أُميَّة.
- أم الخليفة تتآمر على ابنها، كيف ذاك؟
- تعلمين أني لا أستطيع المساس بكِ، فلمَ تفعلين؟
- لأنه مُلك ابني الذي اغتصبته، وقد بلغ ابني من السن ما يؤهله لتولِّي المُلك، فلماذا تحجبه عن الناس؟
- تنقصه التجرِبة.
- وكيف له أن يجرِّب وقد حجبته؟
- هل تريدين مني الآن أن أعتزل؟ فوالله لو فعلت لن يتركوني وكثير منهم موتورون مني.
- سلِّم الأمر للخليفة وكن حاجبه فقط.
- لن أفعل.
- إذن فلتعلَمنَّ أني لن أقف هكذا مكتوفة الأيدي، ولأدبرنَّ لك، ولترينَّ مني ما لن تراه من غيري.

(7)

في مرسية

كان «أحمد بن عبد الرحمن» المعروف بـ«دجيم بن مروان بن خطاب» وولده «أبو الأصبغ موسى» يجلسان في قصرهما المنيف «بمرسية» وحولهما بعض من وجوه المدينة وقد مُدت لهم المائدة العامرة بكل أطايب الأكل والشراب، ووقف العبيد والجواري والفِتيان يخدمون القوم، وابن خطاب يراقب الجميع ليتأكد من جودة الخدمة المقدَّمة لضيوفه، وفجأة دخل عليه أحد فِتيانه وهو يقول:

- سيِّدي، لقد وصل «الحاجب المنصور» وهو على مشارف المدينة.
- وقد ذاع الخبر في كل مرسية.
- هل قدِم وحده أم مع جيشه؟
- بل مع جيش ضخم يا سيِّدي.
- أي غزوة تلك التي يقوم بها «الحاجب المنصور» في هذه النواحي؟ فوالله لم يمر بنا جيش منذ زمن طويل.

أحد الضيوف:

- هذا رجلٌ قلَّ نظيره، وهو لا يسير على خُطى الخلفاء من بني أُميَّة.
- صدقت، هذا رجل قلَّ أن يأتي الزمان بمثله.

ثم نهض «ابن خطاب» واستأذن من ضيوفه وخرج وقد اصطحب معه ابنه «موسى» وبعض رجاله وتحرك حتى وصل إلى أبواب مرسية وكانت الشمس قد أشرقت، فنظر «ابن خطاب» إلى ابنه «موسى» وقال:

- لقد انبلج الفجر وأشرقت الشمس والمنصور لم يأتِ بعد.
- لقد علمنا عن سيرته أنه لا يدخل مدينة من مدن الأندلس ليلًا، وذلك ليراقب أحوالها ويقضي للناس حوائجهم. انظر، هذه غُبار خيولهم.

نظر «ابن خطاب» إلى بعيد وقال:

- وهذه راية المنصور، بل راياته.

ثم لكز بطن جواده فتقدَّم صوب الجيش القادم حتى إذا وصل أمام «المنصور» ترجَّل عن حصانه وتقدَّم صوبه فقبَّل يده ثم قال:

- سيِّدي، ما كان للمنصور أن يدخل مرسية ولا يأكل على مأدبة «ابن خطاب» فهل تشرِّفني بهذا الأمر؟

- لكن المنصور لا يأكل دون جنوده، بارك الله لك في زادك ومالك.

- مأدبتي يا سيِّدي، وهي بعضٌ من كرمك وجُودِك، تتسع للمنصور وجيشه.

ابتسم «المنصور» وقال:

- تُطعم كل هؤلاء؟

- ويكون لي هذا شرفًا عظيمًا ما بعده شرف.

ابتسم «المنصور» ونظر إلى جيشه، ثم نظر إلى «ابن خطاب» وقال:

- وقد قبِلنا دعوتك.

اغتبط «ابن خطاب» فرحًا، ثم ذهب إلى حصانه فركبه وتأخَّر حتى تقدَّم المنصور فسار «ابن خطاب» خلفه حتى دخل مرسية والناس يلوِّحون له ويحيونه ويدعون له وهو يرفع يده إليهم، وظل كذلك حتى وصل إلى قصر «ابن خطاب» فنزل عن صهوة جواده وابن خطاب لا يألو جهدًا في تقبيل الأرض بين يديه، حتى إذا دخل القصر مُدَّت الموائد وذُبحت الذبائح حتى طعِم كل الجيش، والمنصور يأكل على مائدة بها «ابن خطاب» وكبار دولة المنصور.

المنصور: مرسية هي قاعدة «تدمير» وأجمل مُدنِها.

ابن خطاب: لقد أنشأها الأمير عبد الرحمن بن الحَكَم يا سيدي، وأولاها اهتمامه فأضحت كما رأيت أسواقًا عامرة ومزارع فاتنة، ومرسية على نهر كبير يسقي جميعها كنِيل مِصر، ولها جامع جليل، وحمامات، وهي راخية أكثر الدهر، رخيصة الفواكه، كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمار، وبها

معادن فضةٍ غزيرة متصلِّبة المادة، تصنع بها البُسط الرفيعة الشريفة، ولأهل مرسية حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم.

«المنصور» ضاحكًا: أتريد أن نزيد من فرض الضرائب عليكم؟ فلماذا لا نأخذ منكم لغيركم؟

«ابن خطاب»: وهل بقي في الأندلس كلها يا سيِّدي من هو بحاجة إلى المال؟ وقد اتسعت الأرزاق ونمت البلاد على أيديكم فلا تجد فيها محتاجًا.

نهض «المنصور» وقال: أحسنت يا «ابن خطاب»..... ثم التفت إلى أحد رجاله فجاء له بكيس من الدنانير أعطاه لابن خطاب الذي حاول رفضه، ولكن المنصور ألحَّ عليه فقبله، واستمر المنصور وجيشه في ضيافة «ابن خطاب» ثلاثة وعشرين ليلة، بعدها سار المنصور في جيشه شمالًا وكان يقصد ثغر «برشلونة» العظيم.

وعند أبواب برشلونة عسكر المنصور، وكانت المدينة قد أغلقت دونه أبوابها، فأمر المنصور بضرب الخِيام وإقامة المعسكر، فاجتهد الجند في ذلك، وكانت أول خيمة هي خيمة المنصور الذي وقف أمام «برشلونة» وقال:

- هذه مدينة لم يتقدَّم صوبها أحد أو يحاول اقتحامها منذ سقوطها بيد شارلمان، لذا فأميرها لا يتوقع منا الهجوم عليه.

رفع «عمرو» خوذته عن وجهه وقال:

- لكنها ورغم ذلك ذات أسوار منيعة.
- لن تقف تلك الأسوار أمام جيوش «المنصور» فشدِّد الحِصار يا «عمرو» واقطع عن المدينة كل مؤونة.
- والبشكنس؟
- لا يجرؤ أحدهم على إغاثة «قطلونية» وهم يعلمون أن إنقاذها هلاكهم.

أما داخل برشلونة، فقد اضطربت الأحوال وخرج الكونت «بوريل» إلى أسوار المدينة يحث الرجال على الدفاع عنها وهو لا يكل ولا يمل وكانت قد مضت أيام خمسة و«بوريل» يعوِّل على دخول الشتاء حتى يهلك المنصور وجيشه.

أمَّا «المنصور» فقد اجتمع برجاله وقال لهم: مضت أيام خمسة على هذا الحصار، فهل نمكث هنا حتى يحل علينا الشتاء؟

«عمرو»: لكنها مدينة حصينة يا سيِّدي ولن تسقط إلا بالحصار والصبر.

الحاجب: بل تُهدم أسوارُها فانتخبوا من رجالكم من يتقدَّم صوب الأسوار فيهدمها، وهذه المجانيق ما زالت تضرب فيها منذ قدمنا فلا غرو أن الأسوار قد ضعفت والنفوس بداخل المدنية قد وهنت.

أحد القادة: ولكن ماذا نصنع في الرماة؟

المنصور: خِلتك تقدِّم حلًّا لا سؤالًا، فهل كل شيء توكلونه إليَّ؟ فكيف تكونون قادتي وكيف أستعين بكم؟

القائد: لكن.....

قاطع المنصور الرجل وقال: اعمدوا إلى أفضل رُماتِنا وألبِسوهم الدروع والحديد وليتقدَّموا صوب الأسوار ويرموا رُماتهم ويشغلوهم عمن يهدمون الأسوار وأكثِروا منهم.

وفي اليوم السادس من الحصار تقدَّم الرماة وجلجلت في السماء الله أكبر وتلِمت الأسوار واخترق المنصور بجيشه قطلونية، وهزم قوات أميرها الكونت «بوريل» واستولى على برشلونة العظيمة وأسروا الكثير من أهلها، وكان بين الأسرى «أودلرادو» نائب كونت برشلونة، فاقتيد إلى قُرطُبة، حيث قضى في الأسر أعوامًا طويلة.

وما كاد جيش المنصور يعود بغنائمه إلى قُرطُبة حتى صادف ذلك تكبيرات العيد: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر، فقد حلَّ عيد الأضحى ومسجد قُرطُبة يضج بالتكبيرات الجميلة. وآه يا مسجد قُرطُبة!

وقبل أن ينزل المنصور عن صهوة جواده اعترضت طريقه امرأة عجوز فرقَّ لها المنصور ونزل لها عن فرسِه وقال:

- هل لكِ من حاجة فأقضيها لك؟

بكت المرأة وقالت بصوت حزين وقلب منفطر:

- يا «منصور» كل الناس مسرورون إلا أنا، فهل يا منصور تستمع ندائي؟ أنت في طِيب عيشك وأنا في بكائي.

- وما ذاك؟ ولماذا؟

- ولدي أسير عند الصليبيين في حصن رباح، ولا أدري كيف حاله وماذا حل به، وأنا لا يهنأ لي عيْشٌ بفقده، ولا يخبو ضِرَام قلقي من وقدِهِ، ثم أنشدت وقالت: أيَا ويح الشجيِّ من الخلِيِّ، ثم انتحبت المرأة.

فما كان من «المنصور» إلا أن تبدَّلت ملامحه وكأنه لم يعد منتصرًا، فقد اعتلاه حزنٌ ممزوج بالغضب، وقال للمرأة:

- والمنصور لن يكون سعيدًا ومسرورًا إلا بعودة ابنك فاطمئني.

ثم امتطى صهوة جواده مرة أخرى ورفع يده في الجيش قائلًا: لا ينزل أحد عن فرسه، فلمَّا ننتهِ بعد، أما أنت يا عمرو، فعُد إلى الزاهرة وطمئن أهلها.

- ألا أرافقك؟

- بل امكُث كما أمرتك.

ثم لوى رسَن جواده، وامتثل الجند إلى قائدهم الذي تحرَّك بهم صوب قلعة رباح فحاصرها وأشعل فيها النيران وقد أقسم ألا يبرحها حتى يحرر كل الأسرى منها، فهاجمها جيش المنصور بقوة حتى اقتحمها وقتل كل المدافعين عنها من النصارى، ثم اجتهد الجند في البحث عن الأسرى، وكان الصليبيون قد أخفوهم في حجرة داخل قبو القلعة، فحرَّروهم وجاءوا بهم إلى المنصور فسألهم عن أحوالهم حتى عرف ابن العجوز، فأمر به فركب فرسًا وارتدى خير لباس هو ومن معه من الأسرى، ثم قفل المنصور عائدًا.

❀❀✻❀❀

(8)

في القاهرة

خرج الناس إلى الحدائق والميادين، وازدحمت الأسواق، وعُلِّقت الزينات، وذُبحت الذبائح، وأُقيمت الولائم، وشهدت القاهرة قدوم الكثير من الوفود لتهنئة «العزيز بالله الفاطمي» على انتصاره على جيش القرامطة بعد سنوات عجاف، وتقدَّم الوزراء والكبراء يهنئون «العزيز» بالنصر العزيز، وكان العزيز يرتدي ثيابًا مزركشة، وعلى رأسه عمامة ضخمة وقد جلس للحضور في إيوان حكمه، فتوافد عليه الناس من كل الولايات، وكان من بين هؤلاء «الحسن بن قنون» الذي تقدَّم من «العزيز» وقبَّل يده وانحنى أمامه قائلًا:

- عِز لمولانا أمير المؤمنين «العزيز بالله الفاطمي» الذي هزم القرامطة وردَّهم مدحورين.
- ما كنا لنستكين أو نهدأ وهؤلاء المجانين على حدود دولتنا.
- نصرٌ من الله يا سيِّدي وفتحٌ مبين.

عاد «الحسن» وجلس على يمين «العزيز بالله» فقال العزيز موجِّهًا حديثه للحسن:

- لقد انتهينا من أمر المشرق، والآن نعود إلى منبتنا وأصل دعوتنا، فأخبرني يا حسن ما هي أخبار المغرب، فقد شُغلنا عنه؟
- لقد تغلَّب على الأندلس حاجب الدولة يا مولاي وحجَر على الخليفة المزعوم «هشام بن الحَكَم».
- خلافة عباسية في بغداد وأخرى أموية في الأندلس! فماذا أكون أنا هنا في القاهرة حيث قلب الأمة الإسلامية ومُلك يمتد من تونس إلى الشام؟
- تلك أمة قد خلت يا سيِّدي، فلا الخليفة العباسي بقادر على حكم دولته، ولا خليفة بني أُميَّة في الأندلس وقد حجر عليه حاجبه، فلا خلافة

للمسلمين غير خلافتك يا سيِّدي، وما هو إلا وقت وتعود الأمور إلى نصابِها.

- أمَّا خلافة بني العباس فلا تشغلنا وسيكون لنا معها يوم نتحرك فيه إلى بغداد فتصير تحت رايتنا، ولكن الذي يشغلنا الآن هو المغرب وأمره، إذ لا يصح لنا أن نترك هذا الحاجب يصول ويجول في بلادنا، فقل لي يا حسن كيف رأيت الأندلس؟

- هي والله يا سيِّدي بلاد خير ورخاء لا ينقصها سوى أن تدين لكم.

- سمعت أن المكتبة الأموية بها من الكتب ما يربو على أربعمائة ألف كتاب.

- لقد اهتم خلفاء بني أمية بها يا سيِّدي حتى صارت إلى ما صارت إليه، ولكنها لن تصل إلى مكتبتكم العامرة أبدًا يا سيِّدي.

زمجر «العزيز» وقال:

- إنهم ليسوا خلفاء، ولكنهم مغتصبو الخلافة، وقد آن للحق أن يعود إلى أهله، وقد رأيت بعد انتهاء أمر القرامطة أن أرسلك إلى المغرب فتحوزها لنا.

ابتسم «الحسن» وقال بحماسة شديدة:

- أنا طوْعُ أمرك يا سيِّدي، ولي في المغرب رجال وأعوان لو أمرتهم اليوم لخرجوا على بني أُميَّة.

وكان الوزير «ابن كلس» يجلس بالقرب من «العزيز» وهو يرتدي ثياب الوزراء، وعلى رأسه عمامة كبيرة، وقد سعد جدًّا بما سمع وخصوصًا وقد شعر بالقرب من التخلص من «الحسن بن قنون» الذي أثقل عليهم في المؤونة، وكان يعلم أن خروج الحسن بجيش من مصر يعني زيادة التكاليف، لهذا اقترح على «العزيز» قائلًا:

- مولاي أمير المؤمنين، إنَّ لك رجالًا في المغرب لن يخذلوك، ولطاعتك ملتزمون، فلو خرج ابن قنون فاتَّحد مع «بلكين» سيكون هذا خيرًا

من خروج الحسن بجيش من مصر وذلك لطول الشُّقَّة يا مولاي على الجيش.

رفع «العزيز» حاجبه وهمهم قائلًا:

- ولا يجب أن نُخلي مصر من العسكر فيطمع فيها الطامعون.

الحسن: فماذا ترى يا مولاي؟

ابن كلس: لو سار الحسن يا مولاي إلى بلكين عاملك على المغرب فلن يخذله.

هزَّ العزيز رأسه وقال: هذا رأي حسَن، فلتخرج يا ابن قنون بمن معك وتلتحق بعاملنا على المغرب.

لم يجد الحسن بُدًّا من الامتثال لأمر الخليفة الفاطمي، وقد عرف وشعر أن الخليفة لا يريده بالقاهرة، فتجهَّز بعد عدة أيام وخرج من القاهرة مع بعض رجاله حتى وصل إلى بلاد المغرب والتقى ببلكين الذي أمدَّه بجيش صغير لا يقوى على الوقوف في وجه الجيش العامري، ولكن الحسن عوَّل على البربر والتفافهم حوله، ولا سيما «بنو يفرن» الذين جاهروا بطاعته.

❀❀✻❀❀

(9)

أمسك المنصور بكتاب «زيري بن عطية» ومزَّقه وهو يقول: رحم الله الخليفة الحَكم، لو قتله ما كان فعل الذي فعل، فهذا رجل لا عهد له ولا ذِمة.

عمرو: ما الأمر يا أبا عامر؟

- اللعين «الحسن بن قنون» لقد ظنَّ أننا سنترك عدوة المغرب أو ربما قد ظنَّ أنه سيُعجزنا أمره فعاد إلى المغرب وأعلنت بعض القبائل الخائنة الطاعة له.

- وماذا عن عمَّالك هناك يا سيِّدي؟

- لقد ناجزهم الحسن وغلبهم إلا «زيري بن عطية» الذي أحجم الحسن عن لقائه.

ثم وقف المنصور وقال: لقد انتهى هذا العهد الذي يسلم فيه من خرج على الدولة، وهذا هو حال «الحسن» مع ما فعله له الحَكم رحمه الله، فلم يراعِ أن «الحَكم» أمَّنه وسالَمه فنسي الإحسان وخرج علينا يظن بنا الضعف والخَوار.

- هل تخرج إليه بنفسك يا أبا عامر؟

- بل تخرج أنت يا عمرو، وسأمدك بكل ما تحتاجه من مئونة وسأنتقل أنا إلى الجزيرة الخضراء لأكون قريبًا منك، فأنت تعلم أني لا أستطيع ترك الأندلس، وإلا طمع الطامعون، وما زال القشتاليون والجلالقة يتربصون بنا رغم ما نزل بهم من هزائم.

وقف عمرو وقال:

- وأنا سأُثلج صدرك.

- ولكن لتعلم يا عمرو أنني أريد رأس هذا اللعين لا غيره، فلا سِلم معه، وليس له عندي غير السيف، فسِر يا عمرو لا أراك إلا منصورًا.

اقترب عمرو من المنصور وكانت تلك أول مرة يخرج فيها للغزو بمفرده، وكانت أيضًا أول مرة يبتعد فيها عن المنصور، فاحتضن كلٌّ منهما الآخر.

وخرج عمرو وخلفه جيش كبير، فعبر البحر إلى سبتة لقتال الحسن، وانضم إليه زعماء «مغراوة» في قواتهم، وفي مقدمتهم كبيرهم «زيري بن عطية بن خزر»، ثم بعث المنصور لإمداده جيشًا آخر إلى المغرب بقيادة ولده «عبد الملك»، وطارد عمرو الحسن، ثم أحاطه بقواته، وحاصره حتى أرهقه الحصار، ولم يرَ بُدًّا من طلب الأمان والتسليم على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده، فأُجيب إلى طلبه، وأُرسل على عجَلٍ إلى قُرطُبة.

وفي الزاهرة، وما كاد «المنصور» يعلم بخبر الأمان حتى جُنَّ جنونه، ونادى في صاحب حرسه قائلًا:

- اخرج إلى طريق العدوة فإن التقيت «الحسن بن قنون» فاقطع رأسه لا يمنعك عنه إلا الموت.

- وماذا إن منعنا ابن عمك يا سيِّدي؟
- قُلت لا يمنعك أحدٌ عنه.

خرج الحارس من بين يدي المنصور الذي صاح قائلًا: لا أمان لغادر.

وفي الطريق بين قُرطُبة والجزيرة الخضراء كان «عمرو» و«عبد الملك بن المنصور» ومعهم «الحسن بن قنون» وباقي الجيش يتحركون وهم في طريق العودة يتسامرون، فلمَّا أعياهم التعب قرروا المبيت في هذا المكان، وكانت نفْس الحسن غير مطمئنة لمَا سمعه عن المنصور، فكان يتوجس خِيفة، بينما يحاول «عمرو» تهدئته بالأمان الذي أعطاه إياه.

نام «عمرو» في خيمته التي ضُربت له، وقبيل الفجر كان الحرس العامري قد اقترب من المعسكر، فلمَّا وصلوا دخلوا على عمرو وأخبروه بأمر الحاجب، فقال لهم «عمرو»:

- لقد أعطيته أماني فهو في ذمتي، فارجعوا إلى سيدكم وأخبروه.
- لا نستطيع يا سيِّدي.
- أنا ابن عمه ورفيقه وصاحبه، فكيف تجرؤ على عصياني؟
- أعصيك لأطيع من هو فوقك يا سيِّدي.
- ورغم ذلك لن أسلِّمه لك حتى أدخل به على «المنصور».
- لكن «المنصور» يرى فيه خائنًا وغادرًا وقد نكث عهده غير مرة، فإلى متى نتحمل نتائج غدره ونكثه.
- مهما يكُن، فهذا عهدي، فارجع إلى سيدك وأخبره بأمري وعهدي.
- لن أرجع.
- ماذا تقول؟
- أقول لك يا سيِّدي خلِّ بيني وبين «الحسن بن قنون» فوالله إني لقاتله.
- فإن رفضت وحُلتُ بينك وبينه.

أغمض الحارس عينيه ثم فتحهما وقال:

- تُقتَل معه!

- وأنا والله لن أنكث بعهدي، فإن أردت قتله فلتقتلني قبله.

❀❀*❀❀

(10)

كان «المنصور» جالسًا في الزاهرة والذلفاء تتحدث إليه وقد بدت عليه السِّمنة وضعفت حركته بسبب داء النقرس الذي قد أصابه، وكان كلما اشتد عليه المرض وضَع قدميه في ماء بارد يخفف عنه ما هو فيه من ألم.

الذلفاء: إن ابنك «عبد الله» لا يريد أن يتحدث إلى أحد منذ أرسلت أخاه عبد الملك إلى العدوة، فإلى متى يا أبا عامر تفرِّق في المعاملة بينه وبين أخيه وهو ابنك ومنسوب إليك.

- أنا من يحدد لكلٍّ وجهته، فهل أفعل مع كل رجال الأندلس فيرضون بقوْلي فيأتي هذا ويرفض، ثم أنتِ تعلمين لماذا «عبد الملك» دون «عبد الله» آه يا ذلفاء، أيُّ حسرة تلك، فوالله لقد أسميته على اسم أبي ثم كان ما تعلمين، فليحمد الله هذا الفتى أنه يعيش في كنفِي ويحمل اسمي.
- لا أحد يجزم بما في رأسك يا أبا عامر، حتى أنت، والشك دائمًا في صالح المتهم كما ذكرنا من قبل.
- إنه شيء وجَس في نفسي ولا أرى غيره يا ذلفاء، فهل يريد هذا الفتى أن أجعله مكان ابني الذي أثق في بنوَّته.
- إذن تلطَّف معه قليلًا، فهو والله يحبك ويرجو قُربك.
- إنما التلطُّف مع النساء.
- إنه يراك تعامل أخاه بأفضل مما تعامله به.
- دعكِ من هذا الآن، لا أريد سماعه.

ولم يكد المنصور يتم كلمته تلك حتى دخل عليه أحد فِتيانه العامريين وقال:

- سيِّدي، لقد عاد كبير الحرس العامريين، وهو ينتظرك في مجلس الحُكم.

أشار المنصور لخادمه فخرج على الفور، ونظر المنصور للذلفاء وقال: من يحكم الأندلس وبلاد المسلمين لا يهنأ مع أهله أبدًا، ثم خرج من أمامها وتحرَّك صوب إيوانه، فلمَّا جلس نظر إلى صندوقين موضوعين أمامه فجزعت نفسه، بينما الفارس ناظر لأسفل لا يعلم ماذا يقول والخوف يكاد أن يقتله.

المنصور: هل أنجزت ما كلَّفتك به؟

الفارس: أجل يا سيِّدي، وهذا رأس المارق «الحسن بن قنون»

ثم تقدم صوب المنصور الذي فتح الصندوق الأول فوجد رأس «الحسن بن قنون» فأمسك الرأس من شعره وقال: أخيرًا أيها الغادر الناكث بعهده غير مرة! الآن تستقر أمور المغرب، فلا يخرجنَّ علينا منها من ينازعنا الحُكم فيها. ثم ترك الرأس ونظر إلى الصندوق الثاني وقال: من هذا؟

لم يجرؤ الفارس على الكلام، فقد ألجمه الخوف حتى كاد أن يموت من الرهبة والرعب، فتحرَّك المنصور صوب الصندوق وفتحه، فقال الحارس:

- لقد رفض وقال رأسي قبل رأس الحسن.

أشار المنصور بيده إلى الفارس فخرج، بينما أخرج المنصور الرأس من الصندوق واحتضنه وبكى وانتحب حتى مرض والتزم الفراش.

❀❀❀❀❀

(11)

اجتمعت الجواري حول «هشام المؤيد» يمازحهنَّ وهنَّ يضحكن ويلهث خلفهنَّ حتى دخل بهن إلى إيوان العرش، جلس هشام على الكرسي وأخذ يتحدث إلى الجواري كأنهن الوزراء والعمَّال وهو الخليفة، ثم تقدم من إحداهن وقال لها:

- أراكِ غير سعيدة بجلوسي هنا، فهل تجلسين مكاني؟

- العفو يا مولاي.

- أنا أمرتُكِ فتقدَّمي واجلسي مكاني هنا حيث كان يجلس «الناصر» من قبل.

ووسط صمت باقي الجواري وإكبارهنَّ لما يقوله «هشام» تقدمت الجارية فجلست على كرسي العرش، وما هي إلا لحظات حتى قال لها «هشام»:

- انهضي وعودي إلى حيث كنتِ.

تكاسلت الجارية في النهوض فتقدَّم منها «هشام» وقال:

- هل راقكِ الجلوس هنا فلا تودين ترْكه؟ إن له بريقًا وجاذبية كبيرة، لا يجلس عليه أحد إلا التصق به، لا يرفعه عنه إلا الموت.

ثم صرخ بها قائلًا: قومي من على كرسي أجدادي أيتها اللخناء.

فزعت الجارية ونهضت من فورها لتقف بجوار صويحباتها، فنظر إليها «هشام» وقال:

- لا يجلس أحد على هذا الكرسي إلا وطمع فيه، فهل طمعتِ أنتِ أيضًا فيه كما فعل أبو عامر؟ ماذا بقي لي حتى تسلبيني مُلكي، أتريدين أخذ تلك الجواري؟ فما بقي لي غيرهن.

بكت الجارية ولم تتحدث.

وكانت صُبْح تشاهد ما يحدث وقلبها ينفطر من الحزن والألم، فتقدمت من هشام وصرخت فيه، فما كان من الجواري إلا أن افترقن عنه، فقالت له:

- إلى متى يا هشام؟ إلى متى؟

- وتخاطبين الخليفة هكذا؟!

- إن كنت خليفة فلتتصرف كالخلفاء.

- وهل بقي لي من الخلافة شيء لأتصرف فيه؟ ثم اقترب منها وقال: ألم ينهض «أبو عامر» بتكاليف الخلافة؟ ألم تكوني سبيلَه إلى الحِجابة ومن قبلها الوزارة، بل وأنت من أدخلتِه الزهراء ليتكفَّل بأموالي ويتعهدني؟!

- قد كان ذلك في السابق وأنت صبي، أما الآن فقد بلغت رشدك وهذه خلافة آبائك وأجدادك.
- وكيف أنهض بها وأنا المسجون خلف الأسوار هنا، ألا ترين يا أم ولد الخليفة كيف أصبحت وكيف فعل بي متعهدي؟
- الشعب الأندلسي معك، وبنو أُميَّة من خلفك، فلو نهضت لتزلزلنَّ الأرض من حول المنصور فيرضى بما قسمته له.
- بنو أُميَّة والشعب؟! ومنذ متى تنتصر العامة لقضية ما دام الجيش مع عدوِّها؟! أجل عدوُّها وإن كان يحكمها، فالجيش هو أساس الحُكم، وقد تنبَّه «أبو عامر» لذلك فجعل الجيش طوع أمره لا يعرف قائدًا سواه، أما بنو أُميَّة، فهل نقمتهم على العامري أقل من نقمتهم على «الحَكم» الذي أوصى لابنه الصبي دون مشايخ أُميَّة؟

ثم دار حولها وقال هامسًا في أذنيها: وما الذي غيَّر السلطانة «صُبْح» على «أبي عامر» حتى تريد من ابنها النهوض بالخلافة التي كانت هي السبب فيما وصل إليه الآن؟ هل تغيَّر قلبه عليك، أم تغير قلبك عليه؟!

ابتعدت «صُبْح» وقالت بصوت مرتفع:

- ماذا تقول؟

صرخ «هشام» بصوتٍ مرتفع وقال:

- لست أنا من يقول، ولكن كل الأندلس تقول وتحكي.
- ومن الذي تجرأ وأوصَل إليك كل هذا؟
- ليس المهم من أوصَل إليَّ، ولكن المهم أنه قيل، قيل فيك يا أم الخليفة، وقيل أكثر من ذلك.

بكت «صُبْح» وقالت:

- يشهد الله يا ولدي أني ما خُنتُ أباك.
- ولكنكِ خُنتِني أنا.
- أنت؟!

- أجل أنا، عندما فرَّطتِ في حقي وجعلتِني مُسخة لا أقدر على شيء.

قال ذلك وانصرف عنها وتركها وهي تكاد تجن مما سمعت، فقالت في نفسها والدموع تنهمر من عينيها:

- أجل يا «صُبْح» لقد فرَّطتِ في حق ابنك وجعلتِه اسمًا بلا فعل، وملكًا بلا مُلك، وقد خُنتِ «الحَكم» يوم أن تحكَّمت فيك الأنانية فأوحيتِ إليه وكنتِ تعلمين حبه لكِ، فجعلتِ من ابنك الصبي خليفة وأنت تعلمين أنه لن يقدر عليها، فأضعتِ خلافة وأسرة كبيرة.

ثم وضعت يدها على فمها حتى إذا مرَّ الوقت قالت بعد أن جفَّفت دموعها:

- لن أترك حقَّك يا هشام ما بقيت، والآن يا صُبْح، لم يبقَ أمامك إلا «زيري بن عطية»، فهو أقوى أمراء المغرب ومن أولياء بني أُميَّة وأشدهم إخلاصًا لهم.

وما إن أصبح الصباح حتى بعثت إليه رُسلها تخبره بما كان من أمر المنصور وحجْره على الخليفة، وأن المنصور حاليًّا مريض ويجب استغلال ذلك المرض الذي ألمَّ به، وأنفذت إليه بعض الأموال سرًّا، وأخذ «زيري» من جِهته يُشهِّر بالمنصور ويدعو إلى مقاومته وردِّ الأمر إلى الخليفة الشرعي، وبدأ بالفعل يجهِّز رجاله ويحشد قوَّاته ويراسل «صُبْح» سرًّا ويطلب منها المال اللازم لمناهضة المنصور.

وكانت خزائن بيت المال ما زال منها الكثير في الزهراء، فاحتالت «صُبْح» على إخراج ذلك المال إلى المغرب، فأحضرت قدورًا وملأتها بالذهب والفضة والدنانير وأشاعت أنه عسل وجبن، وأنها سترسله إلى العدوة لفقراء المسلمين، فلم يشُك أحد في أمرها حتى مرَّت تلك الأموال أمام صاحب المدينة وصاحب الشرطة العليا، فلم يتنبَّه لها، وقد كاد المال أن يخرج من الأندلس لولا أن سقطت إحدى القدور فتحطَّمت، ورآها بعض العسكر الذين سارعوا إلى إبلاغ المنصور فأحاط بها رجاله واستولوا على المال.

❀❀✻❀❀

(12)

دخلت أسماء على المنصور وقد اشتد به المرض، فاقتربت منه وكان غارقًا في التفكير حتى إنه لم يشعر بها وهو ينظر إلى قصور الزاهرة ويتأمل محاسنها، ثم نظر إلى مياهها المطردة، وأنصت لأطيارها المغرِّدة وملأ عينه من الذي حواه من حُسن الجمال، التفت يمينًا ويسارًا فانحدرت دموعه وتجهَّم، فاقتربت منه أسماء ووضعت يدها على جبهته وقالت:

- أهو المرض؟

- لا، ولكني نظرت إلى الزاهرة فاستشعرت خرابها، فليت شِعري، من الخائن الذي يكون خرابها على يديه عن قريب؟!

- ما هذا الكلام؟ فما سمعت مثله منك قط، وما هذا الفِكر الرديء الذي لا يليق بمثلك أن يشغل باله به.

- والله لترونَّ ما قُلت، وكأني بمحاسن الزاهرة قد مُحيت وبرسومها قد غُيِّرت، وبمبانيها قد هُدِّمت ونُحِّيت، وبخزائنها قد نُهبت وبساحاتها قد أُضرمت بنار الفتنة وأُلهبت.

- ربما يكون حزنك على عمرو هو سبب ما تقول.

- أما عمرو، فكيف لا أحزن وقد كان دِرعي وسيفي؟!

- ليس المنصور بمن يستسلم لمرض أو يأس.

- أنا لا أستسلم يا أسماء، ولكنه هاجس وقع في قلبي وأرجو الله أن أكون فيه من المخطئين، وقد تنبَّه «الحَكم» قبلي إلى فناء دولته، وهأنذا أتوجس من فناء دولتي.

ثم تنهَّد ونصب ظهره وقال: ولكن أتعلمين ما الذي سيخرجني مما أنا فيه.

- قطعًا أعلم ذلك، بل ربما كل الأندلس تعلم شغفك وحبك للجهاد.

- إي والله، إن نفسي تتوق إلى ركوب الخيل والخروج صوب الشمال والابتعاد عن قُرطُبة بعض الشيء، فهناك في مرابط الخيل لا غدر ولا خيانة ولا مؤامرات أو دسائس، ولكنه الجهاد.. والجهاد فقط.

وبينما كان الحديث جاريًا هكذا والمنصور متعكِّر المزاج وحزين على عمرو، إذ دخل عليه فتاه «كوثر» الصقلبي، وقال له بعض الكلمات في أذنه، فما كان من المنصور إلا أن ارتدى ثيابه وخرج إلى إيوانه وهو يقول في نفسه: ما زالت «صُبْح» تدبر لي ولا أعلم إلى متى تظل هكذا؟

ثم أمر باستدعاء «عبد الملك بن المنصور» وقال له:

- اذهب إلى الزهراء في قوة من الجيش وادخل على الخليفة في محضر من الفقهاء والوزراء وخاطِبه في أمر تلك الأموال المهرَّبة التي تصل إلى خصوم الدولة.

- أمرك يا أبي.

وخرج «عبد الملك» من فوره إلى القصر الخلافي ودخل على الخليفة هشام وقبَّل يده، وكذا فعل الفقهاء وكل الحضور، وخاطبه في الأمر قائلًا:

- لقد تم إخراج الكثير من أموال بيت مال المسلمين يا مولاي، فهل أنت من أرسل تلك الأموال إلى عدوة المغرب؟!

- لا، لستُ أنا.

- لقد كادت الأموال أن تصل إلى خصوم «المنصور».

- المنصور حاجبي وصاحب دولتي، فكيف أخاصمه وأُعِين عدوه عليه؟

- لقد علم ويعلم جميع أهل الأندلس انشغال أمير المؤمنين عن تدبير الدولة بأمور العبادة وأنه مشغول عن حفظ الأموال بانهماكه فيها، وأن في إضاعة تلك الأموال آفة على المسلمين، فهل يأذن الخليفة -أعزه الله- بنقل تلك الأموال إلى خزائن الدولة.

- وما أفعل بالأموال؟ فلتفعلوا فيها ما تريدون.

انحنى «عبد الملك» وقبَّل يد الخليفة مرة أخرى، ثم أعطى أوامره للحرس العامري بنقل الأموال، وبدأ الحرس في حمل الأموال، ولكن «صُبْح» لم ترضَ بذلك، فقد كانت تعلم أهمية المال ودوره في شراء الرجال، وأن كيدها لن يُجدي شيئًا دون مال، فصرخت في الحرس وهدَّدتهم أن يمتنعوا، فلم يمتنعوا، وصرخت في وجه «عبد الملك» وهدَّدته فلم ينظر إليها، فذهبت إلى «هشام» ابنها تحاول فيه أن يمنعهم، ولكن هشام لم يستمع لها، وظلت هكذا حتى انتهى الحرس من حمل كل الأموال حتى أجهدها البكاء فتوارت داخل حجرتها في الزهراء.

الفصل الثامن

أما علِم أنَّ دماء جنودي غالية؟ وأنَّ جندنا هم الغالبون؟ لا والله، لا أنشغل أبدًا عن مقارعتهم حتى يعلموا أن حياتهم رهنٌ ليسوفنا، وأن بقاءهم مِنَّة منَّا عليهم.

المنصور

(1)

كان هناك ما ينبئ بالجديد، فالأمر مختلف هذا اليوم، فقد بدت الزاهرة على غير عادتها حيث اصطفَّ الحرس العامريُّ على مداخل المدينة التي تزيَّنت بأفخم زينتها، ومُنع الخروج والدخول من وإلى الزاهرة، وجلس المنصور في إيوانه وقد جمع من حوله قومًا من خواصه منهم: ابن حزم وابن عياش وابن فُطيس من الوزراء، ومن الفقهاء: «محمد بن يبقي بن زرب» و«أبي عمر بن المكوي» و«الأصيلي» وقد قبَّل الجميع يد المنصور الذي أجلسهم من حوله ونظر إليهم وقال:

- تعلمون ما فيه الخليفة من انشغال عن أمور الدولة والخلافة، فضلًا عن ضعف عقله وقلة حيلته، وأنتم تعلمون من يقيم الدولة ويحفظها على الحقيقة، ولقد رأيت أن أتسمَّى بالخلافة، وأردت رأيكم فأنتم أصحاب مشورتي.

نظر الوزراء والفقهاء بعضهم إلى بعض والتزموا الصمت هنيهة، ثم تحدَّث ابن عياش وقال: نِعم الرأي يا أبا عامر، فأنت حقيقٌ بها، وجميعنا يعلم من أنت وما صنعت للأندلس، فسِر على بركة الله.

ابن فطيس: لقد تأخرت في ذلك، وكان ينبغي لك أن تفعل منذ زمن.

الأصيلي: يا مولاي، عربيٌّ ضابط خير من قرشي مُضيِّع.

أبو عمر المكوي: يا مولاي، ومثلك يفكر في هذا؟ وأنت الكل وكل شيء بيدك، وإنما يرغب في الأسماء من لا يحقق، والمدار على الحقيقة، وهي بيدك.

تحدَّث الجميع، ولكن «ابن حزم» التزم الصمت، فقد كان الرجل يميل إلى بني أُميَّة وإن لم يُظهر ذلك، ولكن نظرة المنصور إليه أجبرته على الكلام. فتحدَّث وقال:

ابن حزم: لا تفعل يا سيِّدي.

المنصور: لماذا؟

ابن حزم: إني أخاف من هذا تحريك ساكن، والأمور كلها بيدك، ومثلك لا يُنافَس في هذا المعنى، ولن ترضى العامة وهم يرونك تسلب خليفتهم حقَّه، وهم بعد ذلك مشفقون عليه، فتنزف الدماء ويكون وبالًا على المسلمين في الأندلس، وقد اجتمَعت يا سيِّدي بيدك كل سلطة، ولكن ذلك لم يمنحك حب العامة وتأييد الخاصة.

المنصور: تقول ذلك بعد الذي صنعت لهم؟

ابن حزم: هل أتكلم وليَ الأمان؟

المنصور: أجل، لك الأمان.

ابن حزم: لقد كان نهوضك وتقدُّمك في سبيل السلطان مقترنًا بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص، فقد وقع عن طريق اتصالك بالسيدة «صُبْح» المرأة التي كانت تسيطر على الدولة، والتي كانت علائقك بها تثير كثيرًا من الهمس والتعليق اللاذع، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل «هشام المؤيد» الذي استلبت سلطانه وحقوقه تباعًا، ثم حجَرت عليه بطريقة تشبه الموت، وقطعت علائقه مع العالم، ولم تسمح له بمقابلة أحد، أو بالخروج من القصر، وفي الفرص النادرة التي تسمح بخروجه فيها يسير في موكِبه وعليه بُرنس يُخفي شخصه، ومن حوله صفوف كثيفة من الجند، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه، والشعب القرطبي يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة واجمًا ناقمًا، ويعتبر الخليفة الشرعي ضحية وشهيدًا، يستحق كل عطفه ورثائه، هذا وأنا ناصح لك يا سيِّدي، فإن رأيت أني أسأت فهذه رقبتي بين يديك.

هزَّ «المنصور» رأسه ولم يتحدث، ولكنه قنع بما هو عليه ولم يفكر في أمر الخلافة بعد ذلك، بل كان يرى أن بقاء «هشام» في الخلافة من أسباب بقاء مُلكه.

وعلى ذلك فقد قرر «المنصور» زيارة الخليفة، فسار إلى قصر الزهراء مع ابنه «عبد الملك» وسائر عظماء الدولة، وانفرد بالخليفة في مجلسه فاعترف له «هشام» بالفضل، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة، وأقرَّه على سياسته، ثم عمد المنصور إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى، فأخرج «هشامًا» من القصر، وأركبه في زي الخلافة في موكب عظيم، وركب إلى جانبه، وأمامه ولده «عبد الملك» وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه، وتبِع الموكب جموع عظيمة من طوائف الجند والفِتيان الصقالبة، وشقَّ هذا الموكب الخليفي شوارع قُرطُبة بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب، وكان يومًا عظيمًا مشهودًا، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته.

❀❀✻❀❀

وما كاد المنصور يعود إلى الزاهرة حتى أمر بأن تُقطع الأرزاق عن «زيري بن عطية» ومحا اسمه من ديوانه، واعتبره خارجًا عاصيًا، وردَّ «زيري» على ذلك بأن قطع ذِكر المنصور من الخطبة، وطرد عمَّاله بالمغرب، وأعلن الخروج والثورة. فجهَّز المنصور لقتاله جيشًا عظيمًا بإمرة مولاه الفتى «واضح»، وأمدَّه بالأموال والذخائر، فعبر واضح البحر في قواته إلى طنجة، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة، وحالفته على قتال زيري. وخرج زيري في قواته والتقى الجمْعان بوادي «زارات» جنوبي طنجة، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر، ثم انتهت بهزيمة «واضح» وتمزيق جيشه، ففر إلى طنجة، وكتب إلى «المنصور» يستصرخ به، فخرج المنصور من قُرطُبة إلى الجزيرة الخضراء، وتوافدت إليه الجيوش، ثم أجاز ابنه «عبد الملك» بمعظم قوات الأندلس وقوادها، وأمره بالتشدُّد في محاربة زيري والقضاء عليه.

فعبر عبد الملك البحر في قواته إلى سبتة، واتصل خبره «بزيري» فتأهب للقائه، وبعث إلى جميع بطون «زناتة» يستصرخهم لنُصرته، فهرعت إليه الوفود والقوات من سائر النواحي، وسار لقتال عبد الملك في جموع عظيمة.

وزحف «عبد الملك» من طنجة ومعه الفتى واضح في قوات لا تُحصى، والتقى الفريقان بوادي «منى» من أحواز طنجة، ونشبت بينهما معارك هائلة هُزم البربر في نهايتها شر هزيمة، وقُتل منهم عدد ضخم، وجُرح زيري واستولى عبد الملك على معسكره، ثم طارده حتى «مكناسة» ففرَّ إلى الصحراء مع نفر من أصحابه، ودخل عبد الملك مدينة «فاس» ظافرًا، وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح، فكتب إليه بعهده على المغرب، وعاد واضح بالجيش إلى قُرطُبة.

ولبث عبد الملك واليًا للمغرب ستة أشهر فقط، نظَّم خلالها شئونه، ووطَّد أمره، ثم عاد إلى الأندلس.

وفي تلك الأثناء كان «زيري بن عطية» قد جمع فلوله من قوات «زناتة» ووافته جموع كثيرة من «مغراوة» وكانت «صنهاجة» قد اختلفت على أمرها، فانتهز زيري هذه الفرصة وزحف شرقًا إلى بلاد صنهاجة وأوغل فيها، واستولى على «تاهرت» و«تلمسان» وبعض بلاد «الزاب» وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور، ثم كتب إلى المنصور يتقرَّب إليه ويسترضيه، ويؤكد حسن طاعته من جديد، فعفَا عنه المنصور، وأعاده لولاية المغرب.

❀❀✻❀❀

(2)

«لقد كان من شروطنا على اللعين أن نترك حامية في «ليون»، وأن يؤدي لنا ما فرضنا عليه من جزية، فهل ظنَّ أن حوادث المغرب تشغلني عنه حتى خرج علينا وطرد حاميتنا وقتل بعض رجالها؟! أما علم أن دماء جنودي غالية، وأن جندنا هم الغالبون؟ لا والله، لا أنشغل أبدًا عن مقارعتهم حتى يعلموا أن

حياتهم رهنٌ ليسوفنا، وأن بقاءهم مِنَّةٌ منَّا عليهم» ثم نهض من مكانه وقد تبدلت ملامحه وأقسم أن يخرج من قُرطُبة الليلة.

ولم ينبلج الفجر حتى كان المنصور على رأس جيشه متجهًا صوب الشمال وهو يُنزل ضرباته أينما كان، وقد ظن «برمودو» أن «المنصور» يريد «سمورة» لقربها منه، فشحنها بالرجال واستعد للمقاومة، ولكن المنصور خيَّب ظنَّه، فترك سمورة وتجاوزها صوب ليون نفسها وهو آخذ في التحريق والتخريب والسلب يمينًا ويسارًا حتى فتحت له المدينة أبوابها، ولم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه حتى أقفرت بلادهم، وهنا قرر العودة إلى قُرطُبة بعد أن فعل ببلادهم الأفاعيل.

❀❀✻❀❀

أمَّا «برمودو» فقد جمع رجاله وكان معه قائده «جونزالفو كونزالز» الذي أزعجته كثرة الهزائم فقال:

- لن نستطيع ولو جمعنا ضِعف هذا العدد مواجهة المنصور يا سيِّدي.
- فما الحل؟ هل نتركه يفعل ببلادنا ما فعل ولا نتصدى له؟
- لن نقدر على مجابهته، فهذا رجل لا يخشى الموت، ولكن إن كان فعندي خطة نستطيع أن ننفُذ منها ونهزم جيش المنصور.
- كيف ذلك؟
- هو الآن في طريق العودة إلى قُرطُبة، وقطعًا سيمر بالطريق بين الجبلين، وهذه طريق وعِرة، فإن استطعنا أن نصل إلى هذا المكان قبله، فنكمُن له فيه ويتسلَّق رجالنا الجبلين، فإن مرَّ بجيشه فاجؤوه بإلقاء الحجارة الضخمة عليه وعلى رجاله، فنقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم ننقض بفرسانِنا على من تبقَّى معه فنوديهم حتفهم وهذا الوقت شتاء والضباب يساعدنا في التخفِّي، فماذا تقول يا سيِّدي؟
- نِعم الرأي.

وحدث ما توقعه «غونزالفو» فعسكر «المنصور» قُبيل وصوله إلى الجبلين وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، لم ينم فيها المنصور وظلَّ يتقلب على جنبيه وكأن شيئًا ما يقلقه، فنفض النوم من عينيه وجلس في خيمته، ثم صاح بأحد جنده قائلًا:

- انهض الآن إلى هذا الفجِّ وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك سُقْه إليَّ.

تعجَّب الفارس، ولكنه لم يستطع إلا تنفيذ أوامر سيده، فنهض وامتطى جواده ومكث في الفجِّ في البرد والريح والمطر واقفًا على فرسِه، وقُرب الفجر مرَّ عليه شيخ هرِم على حمارٍ له ومعه آلة الحطب، فقال له الفارس:

- إلى أين أيها الرجل؟

- وراء حطب أحتطبه، فهذا عملي منذ عقود.

قال الفارس في نفسه: هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبًا، فما عسى المنصور أن يريد منه؟ فتركه فسار عنه قليلًا، ثم فكَّر الفارس في قول المنصور وخشي بأسه، فنهض إلى الرجل وقال له:

- ارجع إلى مولانا المنصور.

- وماذا عساه أن يريد أميركم برجلٍ مِثلي وأنا شيخ هرِم، سألتك بالله أن تتركني لطلب عيْشي فإن لي أطفالًا صغارًا أقوم عليهم.

- لا أفعل.

وساقه الفارس إلى خيمة المنصور فمثَل بين يديه وهو جالس لم ينم بعد في ليلته تلك، وما إن رآه المنصور حتى أمر فِتيانه بتفتيشه ففتشوه ولم يجدوا معه شيئًا، فقال المنصور لهم فتِّشوا بردعة حماره، ففتشوه ووجدوا داخلها كتابًا من «برمودو» إلى رجاله في ليون يأمرهم بمهاجمة «المنصور» من الخلف، فعرف المنصور الخُدعة وأمر بقتل الرجل بين يديه.

ثم أمر رجاله من فورهم فعادوا إلى منزل قريب من الجبلين أناخ فيه هو ورجاله، ثم تقدَّم وأمر رجاله ببناء الدور والمنازل وجمع آلات الحرث ونحوها، وبث سراياه فسلبت وغنمت، فاختطف الصغار وضرب أعناق الكبار وألقى

جثثهم حتى سدَّ بها المدخل الذي من جهته بين الجبلين، وصارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلدًا خربًا.

أما «برمودو» فقد كان يعسكر منتظرًا مرور المنصور، فلمَّا علم بما حدث قال لغونزالفو:

- نحن هنا ننتظره وهو هناك يدمر في بلداننا.
- لا أعلم ماذا حدث، ولكن قطعًا هناك خائن بيننا.
- ولمَ لا تقول إنها فِطنة منه؟! ألم ترَ كيف مكث ولم يتقدم وكأنه علم ما نخفي له؟
- فماذا نصنع يا سيِّدي؟
- لا أجد إلا أن أرسل إليه في طلب الصلح.

وجهز «برمودو» رسالة وأرسلها إلى المنصور، وما إن فتحها المنصور حتى نظر إلى الرسول وقال:

- يريدنا أن نخرج بلا أسرى وبلا غنائم؟!
- أجل يا سيِّدي، فما هو ردُّكم؟!
- لقد طابت لنا الحياة هنا ولا نريد العودة إلى قُرطُبة، فأبلغ أميرك بذلك.

عاد الرسول إلى «برمودو» ومن ثمَّ عاد إلى المنصور مرة أخرى، فقال له المنصور:

- ألم تُبلغ سيدك رسالتي؟
- بلى يا سيِّدي.
- فما دخولك عليَّ مرة أخرى؟
- يقول لك سيِّدي الملك «برمودو» أن تخرج بغنائمك وأسراك.

ارتخى المنصور على أريكة كان يجلس عليها، ثم أمسك ثمرة برتقال وبخنجره قشَّرها ثم أكلها وقال للرسول:

- إنَّ أصحابي أبوا أن يخرجوا وقالوا: لا نكاد نصل إلى بلادنا حتى يحين وقت الغزوة الأخرى فنقعد ها هنا إلى وقت الغزو، فإن غزونا عدنا.

وخرج الرسول إلى سيِّده ثم عاد إلى المنصور مرة أخرى وقال له:

- إن سيِّدي «برمودو» يرجوك أن تخرج من بلاده وتقبَل طلب الصلح.

- مممم، دعني أفكر في الأمر وامكُث خارج خيمتي حتى آمرك.

خرج الرسول ينتظر خارج الخيمة حتى إذا مرت بضع ساعات استدعاه وقال له:

- أخبر سيدك أن تلك هي شروطنا للصلح:

1: أن يمدَّنا بالمِيرة حتى نصل إلى بلادنا.

2: أن يُنحِّي جِيف القتلى عن طريقنا بأنفسهم.

3: أن يرسل «برمودو» ابنته «تريزا» لتكون جارية للمنصور.

❀❀✻❀❀

(3)

سرقطسة

كان «عبد الرحمن بن مطرِّف التجيبي» يجلس في قصره بمدينة سرقسطة على نهر «أيبرو» يتابع أعمال ولايته عندما دخل عليه بعض رجاله فقالوا: بالباب «عبد الله بن المنصور» يا سيِّدي.

هبَّ «عبد الرحمن» واقفًا وتقدَّم صوب باب القصر قبل أن ينزل «عبد الله» عن صهوة جواده، فرحَّب به وتقدَّم الاثنان حتى دخلا القصر.

عبد الرحمن: هل هي زيارة أم مهمة كلَّفك بها الملك الكريم؟

- بل هي زيارة أبتعد فيها عن قُرطُبة وهوائها.

- ابن الحاجب والملك الكريم لا يحب هواء قُرطُبة!؟

- وماذا أفعل في قُرطُبة إلا الأكل والنوم فأرتع فيه كما ترتع الخيل.

لاحظ «عبد الرحمن» نقمة «عبد الله» وعدم رضاه، فهزَّ رأسه وقال:

- ألا تخرج مع الملك المنصور فيولِّيك بعض أمره؟!

ثم أشار له بيده وقال: تفضَّل يا سيِّدي. فجلس الاثنان على كرسيَيْن موضوعيْن بالقرب من نافورة المياه في القصر.

جلس عبد الله ثم تنهَّد وقد اكتسى وجهه بالحزن وقال:

- لقد استحوذ أخي «عبد الملك» على قلب أبيه وحبِّه، فولَّاه أمره وجعله حاجبًا لأمير المؤمنين، لقد قدَّم عبد الملك في كل شيء وأنا بِكْرُه.
- أوَقد فعل؟
- أجل، فما كاد يعود من غزوته تلك حتى أخذ كبار دولته وذهب إلى الخليفة واستصدر منه كتابًا بتولِّي أخي عبد الملك الحِجابة، ولا أدري ما الذي يجعل أبي يفعل بي ذلك وأنا أكثر من أخي قوة وأكبر منه سِنًّا؟
- ربما للمنصور رأي لا نعرفه، فلا عليك.

وكانت صحائف الطعام قد وُضعت فأكل الاثنان، ثم قال «التجيبي»:

- لقد أعددنا لك جناحًا في القصر، فانهض الآن إلى راحتك وسيكون لنا حديثٌ بالمساء وحفل كبير يُقام على شرفك، واحتفاء بقدوم ابن الملك الكريم.

شكر «عبد الله» والي سرقسطة ثم تحرك إلى جناحه وخلَد إلى الراحة بعدما استشعر منه «عبد الرحمن» تغيُّره على أبيه وحقده عليه.

وكان القصر قد خلا من زوَّراه وسيطر السكون عليه واتخذ من الصمت حاجزًا إلا من خرير الماء، فاقترب «عبد الرحمن» من النافورة وراح يبلل يده منها وقد شرد ذهنه وقال في نفسه: هذا والله رجل كالنسر، لا يريد أن يرى من هو أقوى منه وأعز، يضرب القوي بالأقوى حتى يهلك هذا وذاك ويستقر وحده سيد الميدان، لكن ألا يعني ذلك أنك قد أصبحت هدف هذا الثعلب الآن؟ ومن غيرك يا «عبد الرحمن» في شبه الجزيرة ندٌّ له الآن وقد كنتُ أنتوي الاستعانة بملوك «ليون» عليه؟! أما الآن، فهذه فرصة لا تعوَّض.

وفي المساء كانت المعازف تنشد بين يدي «عبد الله بن المنصور» و«عبد الرحمن التجيبي» يلاطفه ويلاينه وقد استشعر ما في نفس «عبد الله» فقال له ماكرًا:

- هوِّن عليك يا سيِّدي، فكل الأندلس تعلم أنك مظلوم وأن المنصور يضِنُّ عليك بحبِّه وعطفه على الرغم من تفوقك على أخيك في الشجاعة والخِلال التي شهدنا بها جميعًا.
- أجل، شهدتم بها، ولكن ما تنفعني تلك الشهادة.
- إن كنت ترى نفسك صاحب حق فالحقوق تُنتزع ولا تُطلب.
- ماذا تقصد؟
- إنما أردتُ تنبيهك فقط يا سيِّدي.

رفع «عبد الله» الشراب فارتشف منه يبلِّل ريقه الذي جفَّ بمجرد حديث «عبد الرحمن» ثم قال:

- ولكن من يقدر على انتزاع شيء من المنصور؟
- ضع يدك في يدي نفعل ما نشاء وما نريد.

ابتلع «عبد الله» ريقه ثم صمت قليلًا قبل أن يمد يده «للتجيبي» وهو يقول:

- هذه يدي ولا أنزعها حتى تنزع.
- وأنا يا سيِّدي لا أنتزعها ما لم تفعل.
- فما الخطة إذن؟
- إن الخليفة ناقم على أبيك، فلننتظر خروجه للغزو، فإن فعل فلتنهض أنت وتحتل الزاهرة، وأمدك أنا بجيش من هنا، ثم تحرِّر الخليفة وتُخرجه للناس، وتجعله يمدك بكتاب فيه تنحية الحاجب والملك الكريم وإعلان عِصيانهم، فإن فعلت كانت كل الأندلس معك، وخرج معك القرطبيون فهم أشد الناس نقمة على المنصور، وبعدها تكون قُرطُبة لك هي وما والاها ويكون لي الثغر وأحوازه.

- لكن هل ترى أننا قادرون على ذلك؟
- لن نكون وحدنا في هذا الأمر، فأنا أعرف رجالًا ناقمين على أبيك أشد من نقمتك عليه.
- لكن لا أريد أن يمَسَّ أحدٌ أبي بسوء.
- لا أباك ولا أخاك يا سيِّدي.

وبدأ التخطيط، وانضم إليهما في تلك المؤامرة بعض أكابر الجند ورجال الدولة من المعارضين للمنصور والناقمين عليه، وفي مقدِّمتهم الوزير «عبد الله بن عبد العزيز المرواني» حاكم طليطلة.

ولكن جواسيس «المنصور» نجحوا في اكتشاف المُخطَّط فترامت أخبار هذه المؤامرة الخطرة إلى المنصور قبل نُضجها، فأعمل الحيلة في استدعاء ولده «عبد الله» من سرقسطة، وأبدى له كثيرًا من الرفق والعطف، وصرف الوزير المرواني عن حكم طليطلة صرفًا جميلًا، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة، واعتقله بداره، ثم خرج بالصائفة غازيًا إلى أراضي قشتالة، واستدعى أمداد الثغور، فتوافدت إلى لقائه، وفيهم «عبد الرحمن بن مطرف» ورجاله، وبِوَحْي من «المنصور» تقدَّم الكثير بالشكوى ضد «عبد الرحمن» بدعوى احتباسه لأرزاقهم، فقرر المنصور إقالته، ولكنه رأى استمالةً لبني هاشم أن يعيِّن مكانه في حكم سرقسطة ولده «يحيى» الملقَّب «بسماحة». ولم تمضِ على ذلك أيام قلائل حتى أمر المنصور بالقبض على «عبد الرحمن» ومحاسبته، ثم أُعدم بأمره فيما بعد إثر عودته إلى الزاهرة.

واستدعى «المنصور» في نفس الوقت ولده «عبد الله» إلى معسكره خشية مما قد يقع منه، ثم سار في قواته شمالًا إلى «شنت إشتيبن» وبينما هو مشغول بحصارها، إذ فرَّ ولده «عبد الله» في نفر من غِلمانه، ولحق بغرسيه فرناندیز كونت قشتالة، فوعده بحمايته وتأييده، فطالب «المنصور» غرسيه بتسليم ولده، وأقسم ألا يكف عن قتاله، حتى ينزل على رغبته، فأبى «غرسيه» واضطرم القتال بين الفريقين، وسار المنصور شرقًا واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية، ثم استولى على «القبة» بعد ذلك بقليل،

وتوالت الهزائم على «غرسيه» حتى اضطر أخيرًا إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه، وتعهَّد بإجابته على سائر مطالبه، فقبِل المنصور ضراعته، وبعث «غرسيه «عبد الله في جماعة من القشتاليين، فاستقبله «سعد» الخادم مع جماعة من الفرسان، وقبَّل يده ولاطفه، ثم تركه مع بعضهم، فأنزلوه عن بغله، وأخطروه أن يتأهب للموت، فترجَّل «عبد الله» وقدَّم نفسه للموت هادئًا، ثابت الجنان رائع الشجاعة، فضُرب عنقه عند غروب الشمس وأنفذ برأسه في الحال إلى والده المنصور، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى الخليفة، ودُفن شِلوه في مكان مصرعه.

❀❀✻❀❀

(4)

ما كاد المنصور يعود إلى الزاهرة حتى دخل على ابنه «عبد الملك» فوجده يبكي ولا ينظر إليه فقال له المنصور:

- ما يبكيك؟
- كيف قتلته يا أبي، كيف قتلته، وكيف هان عليك؟
- لقد خان يا «عبد الملك» خان، وقد كنت والله أشُكُّ في بُنوَّته حتى فعل ما فعل، فعلمت يقينًا أنه ليس ابني وليس من صُلبي، وهبْ أني لم أقتله، وهبْ أنه نجح في مسعاه، فماذا كان سيفعل بي؟

جفَّف «عبد الملك» دموعه ولم يُجب أباه الذي استطرد يقول:

- كان سيقتلني، وربما قتلك وقد علم أني قدَّمتك، ثم تنهار تلك الدولة التي شيَّدتها بيديَّ، وقديمًا قالت العرب: الملك عقيم، فلا تكن أضعف منه نفسًا، فوالله لقد أخبرني سعد الخادم برباطة جأشه وأنه أقبل على الموت راضيًا هادئ النفس.

❀❀✻❀❀

في مدينة «بنبلونة» عاصمة مملكة «نافار» كان الملك سانشو يجلس في قصره وحوله رجاله ووزراؤه وابنه «غرسيه» الذي تحدث وقال:

- لقد آثر ملك جليقية التفاهم مع المنصور وكذا فعل كونت قشتالة، أمَّا قطلونية، فلم يعد لها وجود وقد خرَّبها المنصور ورجاله.
- هذا رجل لم نعهد مثله من قبل، إنه يغزو ممالكنا ولا يترك لنا مجالًا للراحة والاستعداد، فلا يكاد ينتهي من زحف حتى يُشعل غيره، والله لقد أصبحنا نتمنى مجرد صمته وكنا في السابق نهاجم حدود دولته.
- فما العمل يا أبتِ وقد أهداه «برمودو» ابنته «تريزا» فأصبح بذلك في مأمن منه.
- أتظن حقًّا أن ذلك الزواج سيمنح «برمودو» أمانًا مع المنصور؟
- ولمَ لا وللنساء تأثير على الرجال؟
- كنت أظن كذلك، ولكن هذا رجل لا يمكث في قصره قدر مكوثه على ظهور الخيل، ألا تراه يخرج إلينا في كل عام مرتين، وربما مكث في غزوة واحدة شهرين أو ثلاثة؟
- فما العمل؟ هل نسالمه أم نحاربه؟
- وهل يقبل سِلْمنا؟ إذن والله لبذلته له، ولكن هذا رجل ليس كمن سبقوه، هذا رجل لا يرضى بغير هزيمتنا.

انتهى المجلس وانفض رجاله وجلس «سانشو» يفكر في أمر مملكته المتآكل أطرافها من قِبل المنصور، وقد أهمَّه الأمر وأحزنه فالتزم الصمت وشعر أن «برمودو» قد خانه عندما صاهر المنصور، وأن صاحب قشتالة قد فعل مثل ذلك، وأن «نافارا» قد أضحت في مهبِّ الريح، وبينما هو كذلك إذ دخلت عليه زوجته «أوراكا» وهي مبتسمة وترتدي أجمل ثيابها، فجلست بجواره فلم ينتبه لها مما بدَّل ابتسامتها إلى عبوس، وبعد لحظات نظر إليها وقال: منذ متى وأنتِ هنا؟

- أحقًّا لم تشعر بي؟
- لقد شغلتني الأحداث يا حبيبتي فلم أعد أدرك أي شيء.

- حتى أنا؟!

- أنتِ الشيء الوحيد الذي أدرك معناه في كل وقت.

قال ذلك ثم عاد إلى عبوسه، فنظرت إليه «أوراكا» وقالت:

- ما الذي أهمَّك حتى بدَّد ضحكتك وأذهب سعادتك؟

- أمر الدولة وقد خانها كل حليف وصديق.

- أتعني أخي غرسيه؟

- كنت أظن أن غرسيه بمدِّه يد الصداقة مع المنصور وحده من خان العهود والمواثيق حتى فعل «برمودو» ما فعل، ولا أدري يا حبيبتي ماذا سيصنع بنا هذا المنصور؟

- إن كان لا بد من السلام معه فافعل ولو إلى حين.

- تعنين حتى يتسنى لنا الظهور عليه كرَّة أخرى؟

- أجل، وقد كان هذا دأب كل ملوكنا من قبل، فنعاهدهم وقت قوَّتهم ونحاربهم وقت تفرُّقهم وضعفهم.

- ولكن ما الذي يجعل المنصور يقبل مني ذلك السلام وأنا من حاربته طويلًا؟

- اذهب إليه بنفسك، فهؤلاء العرب يقدِّرون من يزورهم ويُكرمون ضيوفهم، وإن ذهبت إليه لن يخذلك أبدًا.

- أجل أجل، سأفعل ذلك، ولكن أي هدية تلك التي سيقبلها هذا الرجل؟

- تقول إن «برمودو» قدَّم ابنته «تريزا» جارية للمنصور، فلمَ لا تفعل مثله؟

- وأقدِّم ابنتي جارية له؟! لا، لن أفعل.

- وأنا أيضًا لا أرضى بذلك.

- فماذا تقصدين؟

- أن تقدِّمها زوجة له.

- مممم، نُصاهره!

- أجل، وبذلك تكون ذا حُظوة عنده، ومن يدري، فلعل ابنتنا تنجب له من يكون مَلكًا مكانه، وعندها....

- عندها سنأخذ قُرطُبة بلا سيف!

❀❀*❀❀

(5)

كان الليل قد أرخى سدوله عندما دخل المنصور قصره في الزاهرة، بينما كانت «أوراكا» تجلس جانبًا وقد ملأ الحياء عليها كل مشاعرها فالتزمت الصمت ولم تتحدث ولو بكلمة، اقترب منها المنصور وجلس بجوارها ثم قال:

- ألا تُحضر العروس شرابًا لسيدها؟

انتفضت «أوراكا» قائمة وكانت تهاب المنصور هيبة أبيها له، فملأت له كوبًا من الشراب ثم قدَّمته إليه فقال لها:

- ألا تشاركين زوجك شرابه؟

- العفو يا سيِّدي.

- إنما هذا في مجلس الحُكم، أما هنا، فأنا محمد فقط، محمد زوجك.

أمسكت أوراكا بكوبٍ من الشراب فارتشفت منه وهي تبتسم، فنظر إليها المنصور وقال:

- هناك شيء أُحبُّ أن أعرفه عنك.

- ما هو يا سيِّدي؟

- لماذا أوراكا؟ أقصد لماذا أطلقوا عليك هذا الاسم وهو اسم لوالدتك؟

ابتسمت أوراكا قائلة:

- ذلك لحب أبي الشديد لأمي، فلم يُرد أن يكون في البيت إلا اسمها فقط.

- فماذا لو أنجب غيرك؟

- لم يحدث على كل حال.

- وهذا من حسن طالع أبيك.

- سيدي، وأنا أدخل القصر ذُهِلت مما فيه من كثرة الحمامات وجمالها وروعة الألوان وطلائها، وهذا الماء الجاري في كل مكان، وتلك الحدائق الغنَّاء، ولكن هناك أمرًا واحدًا أتعجب منه وأنزعج منه.

- ما هو؟

- ذلك الرأس على باب القصر.

انتصب المنصور وعبَس وجهه وقال بلهجة جادة:

- ذلك جزاء من خرج على المنصور وقاتله، يكون عِبرة لمن يعتبر، وقديمًا قالوا: العاقل من اعتبر بغيره، والشقي من اعتبر بنفسه، وهذا رأس صهري والد زوجتي أسماء، فلا يظن أبوك أن مصاهرتي تعني السلام له، أجل هو سلام بيننا، ولكن إن نقضه لن أراعي فيه صهرًا أو سلامًا، وليرَ مني حربًا تحرق الأخضر واليابس.

❀❀✻❀❀

أشرقت الشمس على الزاهرة لتبُث جديد الأمل على أهلها وتنشر السعادة فيها، وكان المنصور قد استيقظ مع إشراقة الشمس، فنظر حوله فلم يجد زوجته، فنهض ليرتدي ثيابه بنفسه، وبينما يلفُّ عمامته إذ دخلت عليه زوجته «أوراكا» فنظر إليها وقال:

- لمَ تأخرتِ كل هذا؟

- لم أكن أعلم أن الحمامات ممتعة لهذا الحد، فنسيت نفسي داخلها.

ضحك «المنصور» وقال:

- وما الفرق بين حمامات الزاهرة وحمامات بنبلونة؟

- لا فرق، ذلك لأن بلادنا تخلو من تلك الحمامات.

- كيف ذلك؟ ألا تغتسلون؟

- بلى نغتسل، ولكن مرة واحدة في الصيف.

- مرة واحدة فقط!

- أجل يا سيِّدي، فكثرة الاغتسال ليست من الإيمان، بل ربما تفاخر البعض منا بعدم استحمامه لسنوات طوال، وربما يموت البعض ولا يغتسل مرة في حياته، فالحمد لله يا سيِّدي على نعمة الإسلام.

- أحقًّا سعيدة أنتِ بإسلامك؟

- ومن لا يسعد بالحق إلا الضال يا سيِّدي؟

اقترب منها المنصور فضمَّها إليه وقبَّل بين عينيها، فقالت له «أوراكا»:

- ولكن هذه السعادة مهددة الآن.

- كيف ذلك؟

- حقًّا لا تعلم؟!

هزَّ «المنصور» رأسه ولم يتحدث، فقالت «أوراكا»:

- كيف تخرج وأنا لم أمكث معك سوى بضعة أيام، كيف تتركني وحيدة هنا؟

- وحيدة! أنتِ هنا زوجة المنصور، وكل من حولك خَدمٌ لك، فكيف تقولين ذلك؟

- وإن كان، فكيف تخرج وتتركني؟

- لم يكن زواجًا يمنعني الجهاد يا حبيبتي.

- لكن «غرسيه» هذا هو خالي.

- ولو فعل أبوك ما فعل لأقاتلنَّه، فلا تعودي إلى ذلك، وتذكَّري فقط أنك زوجة المنصور، وأنك الآن مسلمة، فاقطعي صِلتك بمن حارب دينك وزوجك.

- أجل، أنا مسلمة، ولكن ما الذي حدث؟

جلس «المنصور» وقال لها:

كنت قد أرسلت رسولي إلى «غرسيه فرناندیز» صاحب قشتالة ليأخذ الجزية المستحقَّة عليه، وبينما كان الرسول يتجوَّل في قشتالة وتحديدًا مدينة برغش غالى غرسيه في إكرامه، وتناهى في بِرِّه واحترامه، فطالت مدة الرسول، فلا متنَزَّه إلا مرَّ عليه متفرِّجًا، ولا منزل إلا سار عليه متعرِّجًا، فحلَّ في ذلك أكثر الكنائس هنالك، فبينما هو يجول في ساحتها ويُجيل العين في مساحتها إذ عرضت له امرأة قديمة الأسْر قويمة على طول الكسر، فكلَّمته وعرَّفته بنفسها وأعلمته وقالت:

- أيرضى المنصور أن ينسى بتنعُّمِه بؤْسِي، ويتمتع بلُبُوس العافية وقد نضَّت لُبُوسي.

فقال لها الرسول:

- كم مدة قضيتِها هنا؟

- عدة سنوات وأنا سجينة هنا، وبكل صغار ملبسه، فأناشدك الله يا أخي أن تنهي بؤسي وتحدِّث المنصور عني.

- سأفعل.

- أتُقسِم على ذلك؟

- أفعل.

وانطلق الرسول قافلًا إلى قُرطُبة، فما إن دخل الزاهرة حتى أخبرني ما يجب تعريفه وأنا مُصغٍ إليه حتى أتمَّ كلامه، فلما فرَغ قلتُ له:

- هل وقفتَ هناك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ما ذكرته؟

- أجل سيِّدي، ثم قصَّ عليَّ قصة المرأة المسلمة.

عندها وقفت من هوْل ما سمعت، وعنَّفته وقلت له:

- كان يجب عليك أن تبدأ بها، فهذا أمر أهم من غيره، فلا كنوز الدنيا ولا أموالها تعني شيئًا مقابل فكِّ أسر تلك المسلمة، وهل يبقى من المنصور شيء إن كُسرت مسلمة وهو حي؟ لا والله، لأجاهدنَّ عنها ولأفكنَّ أسرها بيدي ولأحاربنَّ «غرسيه» وأعوانه حتى تخرج المرأة تريد إسكات

طفلها فتقول له: اصمت لا يأتينَّك المنصور... ثم صِحت بالرجل أن يتجهَّز ليدل عليها.

أوراكا: يا لبؤس ما صنع!

المنصور: والآن دعيني أذهب، فوالله لا ينام المنصور في قصره والمسلمات أسرى في بلاد العدو.

وخرج «المنصور» غازيًا حتى وافى غرسيه في حشده فأخذت مهابته ببصره وسمعه، فبادر بالكتَّاب والرسل إليه يتعرَّف ما الجليَّة، وإنه ما جنى ذنبًا ولا جفا مضجع الطاعة، فكان ردُّ المنصور أن قال:

- كان قد عاهدني ألا يبقي ببلاده أسيرًا ولا أسيرة ولو حملته في حواصلها النسور، وقد بلغني بقاء امرأة مسلمة في تلك الكنيسة، ووالله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسِحها.

وعاد الرسل إلى «غرسيه» فما كان منه إلا أن ذهب إلى الكنيسة بنفسه فحرَّر المرأة ومعها اثنتين أخريين، وأقسم للمنصور إنه ما أبصرهنَّ ولا سمع بهنَّ، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها قد بالغ في هدْمِها تحقيقًا لقوله وتضرُّعًا إليه، وكان قد أوصل المرأة إلى خيمة المنصور بنفسه، وجثا «غرسيه» على قدمه وقبَّل قدم المنصور ويده فاستحيا المنصور وصرف الجيش قافلًا إلى قُرطُبة وقد حقق مبتغاه وأكرم المرأة واعتذر منها.

❀❀❀❀❀

(6)

كان القصر العامري في الزاهرة يستعد لاستقبال مولود جديد، فقد مرت تسعة أشهر على حمْل «عبدة»، وجاءها المخاض فترقَّب المنصور ولِيدَه، وما هي إلا ساعة حتى دخلت عليه زوجته أسماء وهي تقول: لقد وضعتْ ولدًا.

ابتهج المنصور وحمد ربه ثم نهض وعرج على «عبدة» التي كانت تشعر ببعض الألم ولكن ما إن دخل عليها الحاجب حتى حاولت النهوض، فقال لها محمد:

- كما أنتِ، لا تُجهدي نفسك.
- هل رأيته؟ إنه شبه أبي.
- أجل.
- سأسميه سانشو.
- ويحك، كيف تقولين ذلك؟
- إنه مجرد اسم.
- وإن كان، فلكلٍّ من اسمه نصيب، وقد أسميته «عبد الرحمن» على اسم شبيهي وقدوتي «عبد الرحمن الداخل».
- على ما بينك وبين بني أُميَّة تُطلق عليه اسم جدهم وأساس أُسرتِهم في الأندلس؟!
- لا أحد ينكر فضل الداخل ولا قدرته ولا عبقريته، وبنو أُميَّة وإن كنت قد أخمدت ذِكرهم فلا أحد ينكر أنهم أسياد تلك البلاد لقرون، وهم من فتحوها.

ثم وضع قُبلة على جبين «عبدة» وهمَّ بالخروج، فأمسكت يده وقبَّلتها وقالت له: لقد اشتقت إليك، فهل تمكث معي بعض الوقت.

- وأنا أيضًا في شوقٍ إليكِ، ولكن من يتولَّى أمور الناس يقدِّمها على أموره.

وهمَّ بالانصراف، وعند الباب ارتدَّ ببصره صوْبَها وقال:

- اعلمي أننا سنختنه ظهر الغد.
- أليس صغيرًا بعد؟
- نعجِّل بالخير ولا ننتظر.

❀❀❀❀❀

أقيمت الأفراح وقام الأطباء بختان الأولاد حيثُ أُعلِن في قُرطُبة أن من يريد ختان ولده فليتقدَّم إلى الزاهرة، فحمل القرطبيون أولادهم الصغار ودخلوا

الزاهرة، فقام الأطباء بختانهم حتى كمل العدد 577 طفلًا، وذُبحت الذبائح وأُقيمت الولائم، ولم يمنع المنصور أحدًا من طعام بل أطعم كل من دخل الزاهرة يومها، فلما جنَّ الليل وأرهق المنصور التعب استلقى على سريره وكان شعره قد اشتعل شيبًا، ولكن عزيمته جعلته دائمًا يظهر كأنه أقل من سِنِّه وعمره.

لم يكد يستريح ساعة حتى دخل عليه كبير فتيانه «كوثر» وقال: سيِّدي.

- ماذا دهاك حتى تترك الزهراء وتأتي في هذا الوقت من الليل؟

- إنها السيدة «صُبْح»

- ما بها؟

- تطلب رؤيتك وتُلِح عليك.

قفز المنصور واقفًا وقد همَّه هذا الطلب، فهذه أول مرة تفعل صُبْح وتطلب رؤيته في هذا الوقت من الليل، وبين نظرات الذلفاء التي كانت تعرف بحب صُبْح لزوجها، ونظرات أسماء، تحرَّك المنصور غير عابئ بهما، فامتطى حصانه ومعه حرَسه العامري حتى نزل عند قصر الخليفة، فوجد هشامًا يبكي، فزادت أنفاس المنصور وشعر أن هناك أمرًا جللًا، فقال لهشام:

- ما الأمر يا سيِّدي؟

- إنها تحتضر وقد طلبت حضورك ورؤيتك.

خفض «المنصور» رأسه واستأذن للدخول عليها في سرير مرضِها، فأذِن له «هشام» فدخل، وكانت وصيفتها تجلس عند رأسها، فما إن رأت المنصور حتى تأخرت قليلًا:

- لا بأس عليك يا صُبْح يا أورورا.

- لا بأس بعد اليوم يا محمد.

- هل أحضروا لك الطبيب؟

- وماذا يفعل الطبيب وقد حان الأجل، اسمع يا محمد، لا وقت عندي، وإنما أردت أن أقول لك إني والله قد أحببتك حبًّا لم تحبه امرأة لرجل من قبل.

سيطر الحزن على المنصور واحتبس الكلام في حلقه وشعر بغُصَّة كبيرة، ثم استجمع قواه وحاول أن يبتسم وقال:

- وأنا أيضًا أحببتكِ حبًّا لم يحبه رجلٌ لامرأة من قبل.

- الخليفة يا محمد.

- ما به؟

- هو لم يفعل شيئًا يجعلك تنزعه عن مُلكه، بل ظلمناه يوم جعلناه خليفة، ثم ظلمناه يوم أن حجبته ومنعته عن مُلكه حتى لم يبقَ له من الخلافة إلا اسمها.

- والله لا أنزعه أبدًا.

- والأندلس؟

- ما بها؟

- ستصير خرابًا من بعدك، فويلٌ للأندلس من بعدِك يا منصور.

- لمَ تقولين ذلك وقد استقرت أحوالها؟

- إنما استقرت بك، فمن لها من بعدك يا منصور؟!

❀❀❀❀❀

(7)

كانت السوق مكتظة بالمارَّة كعادتها كل يوم، وجلس «مروان» القماش على باب دكانه الذي كان قد نمَا، وكان «مروان» قد اشترى عِدة محلات أخرى بعد أن نمَت تجارته وربَت، لم يمر الكثير من الوقت حتى حضر «زيْدون» الخباز بفطائره الشهية، فجلس الاثنان يتناولان الطعام.

زيْدون: ألا ترى أن الحديث عن المنصور قد قل؟

- لا حُجة لديهم الآن، فقد ماتت صُبْح التي كانوا يتخذونها وسيلة للحديث عنه رحمها الله.

- لا، لم أقصد ذلك، ولكن قصدت الحديث، حديث العامة عن الحجْر على الخليفة وظُلمه.
- لا يجرؤ أحد على ذلك، أما رأيت الشرطة وهم يسوقون كل من يتحدث عن ذلك أو عن سياسات المنصور؟

ثم اقترب من صاحبه وقال بصوت خافت:

- لقد امتلأت السوق بالجواسيس، حتى إنَّ الرجل منا يخشى أن يتحدث عن المنصور مع زوجته وهو في داره، والمنصور لا يرحم من ينتقده أو يتحدث عنه بسوء أو يتحدث عن الخليفة وهو بعدُ يرى أنه أقام الدولة وقمع أهل الفِتن وحارب النصارى وقهرهم، فهو دومًا يقول: ما الذي ينقص القرطبيين ليتحدثوا عني، وماذا فعل لهم هشام ليحبوه؟!
- والله ما فعل شيئًا، ولكنه الوفاء لأسرته وأجداده منذ الداخل، إنه حفيد الناصر العظيم الذي كان كالأب لكل أندلسي، وفي عهده نمت البلاد وذلَّت بلاد الشِّرك، وما فعل المنصور إلا أن جثَا على إرث الناصر فلا مقارنة.
- كيف تقول ذلك وقد وصل المنصور إلى ما لم يصل إليه أحد من قبله.
- لا يا صديقي، لا أحد يعدل الناصر والداخل، ولو كان المنصور، فأمَّا الداخل، فقد دخل الأندلس وحده، فجيَّش الجيوش وأقام مُلكًا بعد انقطاعه، وأمَّا الناصر، فقد مَلك قُرطُبة وحدها فخرج منها لقمع الفِتن، فما استقرت له الدولة إلا بعد سنين وكان مَنْ قبْله قد شتَّتها فوحَّدها بقوَّته وعزمه وتركها قوية لمن بعده، بل إن أردت أن تقول فقل إن الناصر ترك من بعده دولة منظَّمة بها رجال أقوياء يحكمونها ويسيرون على سيرته ويحفظونها، أمَّا المنصور، فتسلَّق جدران دولة قوية مهيبة، وكل ما صنعه أن أدار هذا المُلك بقوَّته وعزيمته ولكن...
- لكن ماذا أيُّها الفطِن؟
- لا تسخر من قوْلي، فوالله لو أبقاك الله لتعلمنَّ صِدْقه.
- أكمِل.

- لكن المنصور بنى وشيَّد دولة قوَّتها فيه، فإن هلك هلكت الدولة كلها، وهذا فرق بينه وبين من سبقوه.
- كيف ذلك؟
- لقد قتل المنصور كل من يصلح للولاية من بني أُميَّة وتخلَّص من كل رجلٍ وقائدٍ قويٍّ فيها، فما بقي فيها غيره، فإن هو هلك ماذا سيحدث؟ لن تجد الأندلس من يقودها ومن يسير على خُطى عُظمائها، ووقتها لن تقف ممالك النصارى هكذا، ولكن ستدفع بحدْوِها جنوبًا.
- لم أفهم قولك.
- عندما مات «الناصر» كان في الأندلس قادة وموالي ورجالات دولة وأبناء وحَفَدة يصلحون للمُلك من بعده، وهكذا حين مات «الحَكم» فقد كانت الدولة تسير بنظام وضعه «الناصر» فإن غاب ربُّ الدولة تحرَّكت الدولة بغيره ووجدت من يحلُّ محلَّه، أمَّا الآن، فمن يحل محل المنصور وقد أخلاها من رجالِها؟ بل وجعل من نفسه كل شيء، فهو قائد الجيش، والحاجب، ومتولي خطة المواريث، ومتولي دار المدينة ومتولي كل شيء.

صمت مروان قليلًا وجال بخاطره في كلام صاحبه، ثم قال بعد نفس عميق:

- عسى الله أن يُبدلنا خيرًا منه أو مثله، والآن ألا تصمت؟ أم تريد للشرطة أن تقبض علينا؟!

❀❀*❀❀

(8)

جنَّ الليل ونامت الزاهرة إلا من الحرس العامري، أمَّا المنصور فلم يخلُد إلى النوم كعادته، بل ظلَّ متيقظًا يُفكِّر في أمره منذ أن خرج من الجزيرة الخضراء، فجال في خاطره ذاك المجلس، عندما كان شابًّا ويحلم بامتلاك الجزيرة وحُكْمِها وهو يقول: رحمك الله يا عمرو، فما أشقاني بفقدك، آه يا

منصور، لم يتجرع أحد في الأندلس وجعًا مثلك؛ لقد فقدت كل صاحب وكل مخلص لك، وصِرت وحيدًا دونهم.

ثم تحرك صوب الشرفة فوقف فيها مسدِلًا شعره الأبيض واستطرد يقول: أين «الحَكم المستنصر»؟ أين «غالب الناصري»؟ أين «المصحفي» و«ابن حمدون»؟ أين «عمرو» و«صُبْح» و«التجيبي»؟ أين من كانت أسماؤهم تركع لها الجبابرة وتُدق بكلمة منهم الأعناق؟ لقد ذهب الجميع وتركوك وحيدًا يا محمد.

ثم دخل وأمسك بمصحف كبير كان قد خطَّه بيده وجلس يقرأ فيه وقد جاشت نفسه بمشاعر مختلطة، فبكى وأغلق المصحف وجلس يتفكَّر ويتدبَّر. وما هي إلا لحظات حتى دخلت عليه الذلفاء وقالت:

- الملك المنصور يبكي!

- أوَليس المنصور ببشرٍ يا ذلفاء؟ وقد كنت أظنك أكثر النساء فهمًا لي، أم لأني لم أُظهر لكِ مثل هذا من قبل؟ إني والله قد تذكَّرتُ الموت وما أنا فيه فبكيت حالي.

- وما هو حالك وقد قضيت حياتك مجاهدًا وخططت هذا المصحف بيدك تقرأ فيه، وحرَّرت الأسرى ودحرت العدو ورفعت الظلم؟!

- أتعلمين؟ إني لأرجو من الله أن يتوفاني مجاهدًا في سبيله، فلا مناص لي غير ذلك.

بكت الذلفاء وقالت:

- وكيف للذلفاء أن تحيا من بعدك يا محمد؟

وبينما هما يتحدَّثان إذ دخل عبد الملك فقال: ما الأمر يا أبتِ؟ وأنتِ يا أمي، لم أعتد وجودك هنا بعيدًا عن جناحك في قصرك.

الذلفاء: اشتقت للحديث مع أبيك فلم أُطِق إلا الدخول عليه.

المنصور: أنا في أفضل حال يا «عبد الملك» ولكن أنت، لمَ لمْ تنمْ إلى الآن؟

عبد الملك: علمت بخروجك للغزو فأردت أن أرافقك.

الذلفاء: الغزو! ولمْ تكد تعود منه بعد؟!

وقف المنصور وقال: والله لا أرجع من غزوة إلا لأحضِّر لغيرها، ولا أدخل مدينة إلا وأرتِّب لغيرها، على أن هذه الغزوة ستكون أعظمهن، فقد أقسمت أن أصل إلى ما لم يصل إليه أحد قبْلي، وعسى الله أن يكتب لي الشهادة فيمحو بها ذنبي.

عبد الملك: لكن يا أبتِ، لقد أشار عليك الوزراء بألا تفعل.

المنصور: الوزراء يشيرون عليَّ بما كان يفعله خلفاء بني أُميَّة من قبل، لذا لا يريدون مني الخروج صوب جليقية، بلى والله لأخرجنَّ إليها ولأفتحنَّها ولأخالفنَّ أكابر خدم الأمويين، ولأخرجنَّ إليها بنفسي.

عبد الملك: لكنهم يقولون.....

قطع عليه المنصور كلامه وقال: يقولون إن في طريق جليقية الهَلَكة لبُعد الشُّقَّة، ولكن ليس المنصور من يهلك له جيش وهو خارج للجهاد في سبيل الله، اسمع يا ولدي، لا تنقصنَّك التجرِبة، ولتعلم أن لكل زمن رجاله وأفكاره وسياسته، وما صلُح في السابق ربما لن يصلح للمستقبل والحاضر، ولقد عكفت على ما سلف فوجدت أن فشل الأمويين في غزو جليقية ينحصر في أسباب هي:

* التحرُّك البطيء إليها بسبب طول المسافة، مما كان يُحرم المسلمين من كل أثر للمباغتة، ومما يسمح للجلالقة باتخاذ التدابير المضادة.
* وأيضًا عدم تناسب حجم القوى والجيش مع حجم المهمة.
* وعدم تأمين الإمدادات.

ولهذا فقد أعددت خطة مبكِّرة، وبدأنا في إنشاء أسطول كبير في قصر «أبي دانس» من ساحل الأندلس الغربي، وجهزناه برجاله من البحَّارين وصنوف المترجِّلين، وحمل الأسطول الأقوات والأعلاف اللازمة، فتجهَّز فلتخرُجنَّ معي، وليكوننَّ على قُرطُبة الوزير «ابن جهور».

الذلفاء: ألا تستمع إلى الوزراء فتغيِّر وِجهتك؟!

المنصور: لا والله، لا أفعل.

الذلفاء: فلمَ هذا الإصرار؟ هل هو لمجرد المخالفة فقط؟

المنصور: سامحك الله يا أم عبد الملك، وهل أخرج للجهاد وفي قلبي مثل هذا؟ ولكني قد قصدت جليقية ومدينة شانت ياقب لسببين؛ الأول: أنها ملاذ وملجأ لملوك ليون يتحصنون بها كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية، والثاني: أنها مستقر لمدينة «شنت ياقب» الدينية، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس، ورمز زعامتها الروحية، وقد كانت هناك أسطورة تزعم أن قبر القدِّيس يعقوب، قد اكتُشِف بمعجزة وقعت في هذه المنطقة، فأُنشِئت فوقه كنيسة، وأُنشِئت حول الكنيسة مدينة مقدَّسة سُمِّيت باسم القديس، فصارت عاصمة جليقية الدينية ومزارًا شهيرًا يقصده النصارى من سائر الأنحاء، فأردت أن أضربهم في صميم معقِلهم القاصي، وفي صميم زعامتهم الروحية بغزو جليقية واقتحام مدينتها المقدسة.

هزَّت الذلفاء رأسها ولم تتحدث.

وفي الصباح، وما إن أتمَّ الجيش الاستعداد حتى أعطى المنصور أوامره بالتحرُّك وبدأت جحافل الفرسان بالانطلاق من قُرطُبة، بينما كانت القوات البحرية تغادر قصر «أبي دانس» وهي تمخُر عباب المحيط في مياه البرتغال الغربية شمالًا بحِذاء الشاطئ البرتغالي، تحمل المشاة والأقوات والذخيرة، واخترق المنصور الأندلس الغربية شمالًا وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تِباعًا، حتى وصل إلى مدينة «قورية» ثم زحف نحو الشمال الغربي واستولى في طريقه على مدينتَي «بازو» و«قلمرية» وهنا وفد على المنصور عدد كبير من الكونتات النصارى المعترفين بطاعته، وهم الواقعة أملاكهم في أراضي البرتغال ما بين نهرَي «دويرة» و«منيو» وانضموا مع قواتهم إلى جيشه، ثم سار المنصور شمالًا حتى وصل إلى نهر دويرة، وهنالك وافاه الأسطول مخترقًا النهر من مصبِّه عند ثغر «بورتو» فجعل منه جسرًا مريحًا لعبور جيشه وعُدده وأقواته، واتجه الجيش الإسلامي بعد ذلك صوب جلِّيقية، وهو يقتحم السهل والوعر في شِعب الجبال، ثم عبر نهر منيو (منهو)، وسار بحذاء شاطئ المحيط، واستولى في طريقه على بعض الحصون، وخرَّب عددًا من الأديرة في تلك المنطقة، وكانت جموع كبيرة من النصارى، قد فرَّت إلى الجزر المقابلة للشاطئ، فعبر المسلمون إليهم من بعض المخائض وأسَروا

معظمهم، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة للمحيط، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى، واستصفوا غنائمها، ثم اقتحموا الجبال إلى السهل، وخرَّبوا بلدة «إيليا» وهي من المزارات الدينية الشهيرة. كما أشرف المسلمون على مدينة «شنت ياقب» في يوم الأربعاء الثاني من شعبان (11 أغسطس)، فوجدوها خالية من أهلها، وكانوا قد غادروها حين اقترب المسلمون، فدخلها المسلمون وهدموا أسوارها وصروحها وكنيستها العظمى، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف، وأمر المنصور بصوْن قبر القديس «ياقب» القائم وسط الكنيسة العظمى، والمحافظة عليه. ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخًا من الرُّهبان يجلس على القبر، فسأله عن مقامه، فقال أؤانس يعقوب، فتركه وأمر بالكفِّ عنه. وأخذ المسلمون أبواب المدينة، ونواقيس الكنيسة العظمى، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قُرطُبة، فوُضعت الأبواب فيما بعد في سقف الزيادة التي أنشأها المنصور بالمسجد الجامع، وعُلِّقت به النواقيس رؤوسًا للثُّريات الكبرى.

وسار المنصور بعد ذلك مخترقًا أراضي «برمودو» التي امتنع بها وعاث فيها، ولم يستطع أحد أن يقف في سبيله حتى وصل إلى شاطئ المحيط على مقرُبة من بلدة كرونية (قرجيطة). ثم انحدر جنوبًا حتى وصل إلى أراضي الزعماء النصارى (الكونتات) الموالين له، والذين صحبوه في غزوته، فأمر بالكفِّ عنها، وتابع سيْره حتى وصل إلى مدينة «لاميجو» في شمال البرتغال «لميقة»، وهنالك وزَّع الهدايا والأكسية الفاخرة على الزعماء النصارى، وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح إلى دار الخلافة، ثم عبر نهر «دويرة» وقفل راجعًا إلى قُرطُبة وفي ركْبه عدد كبير من الأسرى، ومقادير عظيمة من الغنائم، وكانت غزوة عظيمة، استبشر بها المسلمون وقرَّت نفوسهم، واهتزت لها إسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها، ولبث أثرها العميق أعوامًا بعيدة.

وما إن دخل قصر الزاهرة حتى ترجَّل عن فرسه ودخل إلى قصره فدخلت عليه الذلفاء وأسماء، فقالت الذلفاء:

حمدًا لله على سلامتك يا أبا عامر.

أسماء: لقد حققت حلمك ووصلت إلى ما لم يصل إليه أحد من قبلك.

خلع المنصور ثيابه فأخذتها منه الذلفاء وقالت: لن يجمع من عليها الغبار والأتربة هذه المرة غيري.

أسماء: وأنا أساعدك في ذلك.

وما إن انتهوا حتى وضعوا ما جمعوه من أتربة وغبار كان قد تعلَّق بثياب المنصور في قارورة خاصة، وقد كان المنصور قد دأب على فِعل ذلك بعد كل غزوة.

أسماء: كادت القارورة أن تمتلئ عن آخرها.

المنصور: إذا وافاني الأجل فادفنوها معي علَّها تشهد لي أمام الله فأنجو.

الذلفاء: أطال الله عمرك يا أبا عامر.

المنصور: ما خرجت في غزوة إلا وأنا أنشد النصر والشهادة معًا فعسى أن يكون ذلك قريبًا، وهذه القارورة قد امتلأت أو كادت، فعسى ما أنشده يكون قريبًا.

❀❀✻❀❀

(9)

كانت أسماء تنظر إلى المنصور وهو على سرير المرض وتبكي، وكذا فعلت عبدة، أما الذلفاء، فظهرت قوية وهي تقول: ليس المنصور بالرجل الذي يُقعده المرض.

عبدة: ألا تترفقين به؟

الذلفاء: أنا أرفَق به من نفسه، ووالله لهو أحب إليَّ من روحي، ولو كان الأمر بيدي لأعطيته عمري فوق عمره.

بجهد نهض المنصور حتى اتكأ على سريره جالسًا وقال: هي عِلَّة زائلة، فليس بي إلا الخير إن شاء الله.... ثم التفت وقال: أين عبد الملك.

عبد الرحمن: هل أستدعيه يا أبتِ؟

المنصور: بلى.

خرج «عبد الرحمن» ليعود بعد قليل ومعه «عبد الملك» الذي انكبَّ يقبِّل يد أبيه.

المنصور: ماذا فعل الحاجب المظفر؟

نظر الجميع بعضهم إلى بعض وردَّدوا المظفر؟!

المنصور: أجل، إنه الحاجب المظفَّر، وسيكون هذا لقبه كما كان لقبي المنصور.

ابتسمت الذلفاء لذلك بينما اكتأبت عبدة وظهر ذلك على وجهها، بينما لم يكترث للأمر عبد الرحمن، وإن أزعجه ذلك، فقد كان عبد الرحمن رغم فارق السن بينه وبين أخيه يحسد حب أبيه له.

المنصور: لقد قال عنك العرَّاف قديمًا إنك أسعد مولود وُلد في الأندلس.

عبد الملك: ذلك لأني ابن المنصور العظيم.

المنصور: أخبرني، ما حال نصارى الشمال بعد جليقية؟

عبد الملك: لقد وصلت الأخبار بأن صاحب قشتالة يسعى لإقامة تحالف بينهم جميعًا وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى من حيز بنبلونة إلى أسترقة، اتفقوا جميعًا بزعامة «غرسيه فرناندز» كونت قشتالة على مقاومتك يا أبتِ والتفاني في قتالك، فحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم، وجمع غرسيه سائر قواته في وسط قشتالة، في وادي دويرة الأدنى خلف الحاجز الجبلي الوعِر المسمى «صخرة جربيرة» Pena Cervera.

وقعت كلمة تحالف على المنصور كالدواء الشافي للعليل، فنهض من سريره وكأنه قد برأ، وقال: لننهضنَّ إليهم ونباغتهم فنُفشل تحالفهم ونرُد كيدَهم في نحورهم.

عبد الملك: وتخرج إليهم عليلًا يا أبتِ؟

المنصور: بل أخرج إليهم معافًى إن شاء الله.

ولم يمر أسبوع حتى تأهَّب المنصور وخرج من قُرطُبة وسار إلى أراضي قشتالة في جيش ضخم، وتعاهد الملوك والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار، ورأى المنصور كعادته أن يبادر أعداءه بالقتال، فسار في قواته توًّا

إلى مدينة سالم، ونفذ شمالًا إلى أراضي قشتالة حيث يرابط أعداؤه، فلمَّا أشرف على صخرة جربيرة، هالَه ما رأى من وعورتِها، وحصَانة المراكز التي يحتلها العدو، ووفرة جموعه وعدده.

ورأى «سانشو» أن يعجِّل بمهاجمة المسلمين قبل أن يوطدوا مراكزهم، فاندفع النصارى في هجوم عنيف خاطف على المسلمين، فاضطربت ميمنة المسلمين وميْسرتهم، ودبَّ الخلل فيهم، وعمد إلى الفرار كثير منهم، وكادت تدور عليهم الدائرة، ولكن القلب، وكان يقوده ابنا المنصور «عبد الملك» و«عبد الرحمن» ويتألف معظمه من فِرق البربر القوية الباسلة، صمد أمام الموجة الهائلة، وهرع المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة، ومن ورائه خاصته وحاشيته وهو يحث رجاله وقادته على الثبات، فلم يمضِ سوى قليل حتى انقلبت الآية وارتد العدو في غير نظام، وتمكَّن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات «بني غومس» وجاء برأسه، فضاعف المسلمون جهودهم، وشدَّدوا الوطأة على النصارى، وأمعنوا فيهم قتلًا وأسرًا، وطاردوهم إلى عدة مراحل حتى مزَّقوهم شرَّ مُمزَّق، وتابع المنصور زحفه في أراضي قشتالة وهو يدمر كل شيء في طريقه حتى اقتحم عاصمتهم «برغش» وذلك في يوم عيد الفطر، ثم واصل سيْره إلى سرقسطة، وقام من هنالك بغزوة في أراضي «نافار» حتى أشرف على عاصمتها «بنبلونة» وكل ذلك دون أن يجرؤ أحد من النصارى على الوقوف في طريقه.

❀❀*❀❀

(10)

لم يكد المنصور يعود من غزوته حتى تأهَّب لغيرها، وكان هذا على غير عادته، إذ لم يحِن موعد الغزو بعد، ولكنه شعر في نفسه بعدم القدرة على البقاء في قُرطُبة بعيدًا عن ساحات الوغى، وبدت في قلب قُرطُبة طلائع استعدادات عظيمة، وجمع ولاة «شنترين» و«بطليوس» و«ماردة» كل قواتهم، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة، وكانت هي الإمدادات التي

وعد بإرسالها «المعز بن زيري» من المغرب إلى المنصور، واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسلمة في طليطلة.

وقد تفاهم «غرسيه فرناندز» أمير قشتالة مع قريبيه ملكَي «ليون» و«نافار» على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامي العظيم، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف، فاجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة في السهل الواقع جنوب مدينة سرية عند منابع «دويرة» قريبًا من مدينة نوماثيا Numacia القديمة، وكان يقود جيوش ليون وجليقية والأستورياس الكونت «منندو» وصي الملك الطفل ألفونسو الخامس، ويقود ملوك قشتالة ونافار قواتهما.

وقدِم المسلمون وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين: قوات الأندلس وقوات البربر، وساروا نحو ضفاف نهر دويرة، حتى التقوا بالنصارى في مكان يسمى « قلعة النسور»، ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدِم الليل، وفي فجر اليوم التالي تأهَّب كل فريق وحشد قواته، فاختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى، وأصوات المزمار بدويِّ الطبول، واشتبك الفريقان بعنف، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم، وكان المنصور يثِب هنا وهناك كأنه نمر، وقد شقَّت فرسانه صفوف القشتاليين، لكن ساءه ما لقي من مقاومة، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف، واستمر القتال تحت جو قاتم من الغبار المتصاعد حتى كتب الله النصر للمنصور وبدَّد شمل أعدائه.

وعلى إثر اختتام الغزوة، ارتدَّ المنصور بجيشه جنوبًا وقد لحِقه الإعياء واشتدَّ به المرض، فترك جواده، وسار نحو أسبوعين محمولًا على محفة، و«عبد الملك» و«عبد الرحمن» بجواره، فاقترب منه «عبد الملك» وقال:

- ألا نعود إلى قُرطُبة والزاهرة؟

- بل خذوني إلى مدينة سالم.

شعر «عبد الملك» بغُصَّة في حلقه لم يستطع إخفاءها، وتحرك الجيش حتى وصل إلى مدينة سالم، وهي معقل الثغر المنيع، وكان كل القادة والجند يدعون للمنصور ويخشون ما نزل به من مرض، وكان بعضهم يرى أن المنصور صار هو الأندلس، ومن لها من بعدِك يا منصور؟

دخل المنصور قصر المدينة التليدة فوضعوه على السرير وكان المرض قد اشتدَّ به، فبكى «عبد الملك» وجزعت نفسه، فنظر إليه المنصور وقال:

- هذا والله أول الخذلان.

- كيف تقول ذلك يا أبتِ؟

- لا يجب لوليِّ عهدي أن يبكي أو ينشغل بغير الدولة وتأمينها وثغورها، فإن انشغلت بموتي عما ذكرت ستنهشك أسود بني أُميَّة وهم بعدُ متربصون، أما أنا يا ولدي، فقد كان من أعز أمنياتي أن تُدرِكني منيَّتي خلال الغزو مجاهدًا في سبيل الله، ولهذا فأنا منذ زمن وأنا أحمل معي تلك الأكفان التي صُنعت من غزل بناتي واشتريتها بمالي الموروث، فإن أنا مِت فقد منَّ الله عليَّ بتحقيق ما تمنيت.

ثم انتابت المنصور سعلة شديدة، فناوله «عبد الملك» كوبًا من الماء فارتشف «المنصور» منه ثم نظر إلى عبد الملك وقال:

- اتركني وحدي.

خرج عبد الملك وجلس المنصور وحده فجالت في خواطره كل الذكريات؛ «الجزيرة الخضراء، وحصن طُرَّش، موسى بن غزون، وعمرو، والخليفة الحَكم، والمؤيد هشام، وصُبْح البشكنسية، والصقالبة، وغالب الناصري، والمصحفي، وكل من مرَّ في طريق المنصور أو مرَّ المنصور في طريقهم.

وبعد ساعة دخل عليه أحد فتيانه الصقالبة «الفتى كوثر» فبكى، فقال له المنصور:

- ما يبكيك يا كوثر؟

- كيف لا أبكي ملكًا عظيمًا مثلك يا سيِّدي؟

- لا تبكِ يا كوثر، واخرج وائتني بكبار الغِلمان.

خرج كوثر ليعود ومعه كبار الفِتيان وكلهم خاشعون يدعون للمنصور، فقال لهم المنصور:

- تنبَّهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم في طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم، ولا تغرَّنكم بوارق بني أُميَّة ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم، وقدِّروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقُرطُبة من الحقد عليكم، فليس

يرأسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي، ومِلاك أمركم أن تنسوا الأحقاد، وأن تكون جماعتكم كرجُلٍ واحد، فإنه لا يفِل فيكم.

بكى الفِتيان وشعروا أنها وصية سيدهم الأخيرة، فلم يستطيعوا ردًّا، وأشار لهم المنصور فخرجوا وبقي «كوثر».

اشتدَّ المرض على المنصور وعلم بقرب موته فبكى، فنظر إليه كوثر وقال:

- مم تبكي يا مولاي، لا بكت عينك؟
- مما جنيت على المسلمين، فلو قتلوني وأحرقوني ما انتصفوا مني.
- كيف تقول ذلك وأنت من أذللت الأعداء، وأمَّنت البلاد، وعزَزت الإسلام، وفتحت البلاد، وأذللت الكفار، وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم إلى قُرطُبة حتى تبني به جامعها؟!
- لمَّا فتحتُ بلاد الروم ومعاقِلهم عمَّرتها بالأقوات من كل مكان، وسجنتُها بها حتى عادت غاية في الإبداع، ووصلتُها ببلاد المسلمين، وحصَّنتُها غاية التحصين، فاتصلتِ العمارة، وهأنذا هالك وليس في بنِيَّ من يخلفني، وسيُشغلون باللهو والطرب والشراب، فيجيئ العدو فيجد بلادًا عامرة وأقواتها حاضرة فيتقوَّى بها على محاصرتها، ويستعين بوجدانها على منازلها، فلا يزال يتغلَّبها شيئًا فشيئًا ويطويها طيًّا فطيًّا حتى يملك أكثر هذه الجزيرة ولا يترك فيها إلا معاقل يسيرة، فلو ألهمني الله إلى تخريب ما تغلَّبت عليه وإخلاء ما تملَّكت وجعلت بلاد المسلمين وبلاد الروم مسيرة عشرة أيام فيافي وقفارًا لا يزالون لو راموا سلوكها حيارى، فلا يصلون إلى بلاد الإسلام إلا بمشقة وكثرة الزاد وصعوبة المراد.
- هيهات يا سيِّدي، فقد «حالَ الجريض دون القريض» والله لو استرحت وأمرت بما ذكرت لقال الناس مرِض المنصور فأورثه مرضه جنونًا وهوسًا تمكَّن من دماغه، فخرَّب بلاد المسلمين وأجلاهم وأفقرهم.

وبينما يتحدث المنصور مع كوثر إذ دخل عليه عبد الملك وهو منكس الرأس حزين الوجه باكي العين، فخرج كوثر، وقال المنصور لولده:

- ادنُ مني يا بُني أوصيك.

اقترب عبد الملك وقبَّل يد أبيه وبلَّلها بدموعه قائلًا:

- فداكَ روحي يا أبي، فداك نفسي وكل ما أملك.
- بارك الله في نفسك وروحك يا بُني.

ثم قال:

- يا بُني: لستَ تجد أنصح لك ولا أشفق عليك مني، فلا تتركنَّ وصيتي، فقد جردت لك رأيي ورويَّتي على حين اجتماع من ذهني، فاجعلها مثالًا بين عينيك، وقد وطأت لك مهاد الدولة، وعدلت لك طبقات أوليائها، وغايرت لك بين داخل المملكة وخارجها، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها، وخلَّفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك، فلا تُطلق يدك في الإنفاق، ولا تقيِّض لظَلَمة العمال، فيختل أمرك سريعًا، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة، فاقصد في أمرك جهدك، واستثبت فيما يرفع أهل السِّعاية إليك، والرعية قد استقصيت لك تقويمها، وأعظم مناها أن تأمن البادرة، وتسكن إلى لين الجنَبة. وصاحب القصر قد علمت مذهبه، وأنه لا يأتيك من قِبله شيء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه، فلا تنم عن هذه الطائفة جُملة، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة، وعاجل بها من خِفتَه على أقل بادرة، مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتمِّ وجه، فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث في يمين البيعة، إلا ما تقيمه لوليِّها من هذه النفقة، فأما الانفراد بالتدبير دونه، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه، فإني أرجو أني وإياك منه في سِعة ما تمسَّكْنا بالكتاب والسُّنة. والمال المخزون عند والدتك، هو ذخيرة مملكتك وعدَّة لحاجةٍ تنزِل بك، فأقِمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند الشِّدة، تخاف منها على سائر جسدك. ومادة الخَراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة. وأخوك عبد الرحمن قد صيَّرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي، وأخرجته عن ولاية الثغر لئلا

يجد العدو مساغًا بينكما في خِلاف وصيتي، فيسرع ذلك في نقض أمري، وتجلب الفاقرة على دولتي. وقد كفيتك الحيرة فيه، فأكفِه الحيف منك عليه، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم، بحسب مما قدرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي. وخِلافتك بعدي أجدى عليهم ممَّا صرفته، فلا تضيِّع أمر جميعهم، والْحظْهم بعيني فإنك أبوهم بعدي. فإن انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل وسبيل السيرة، وإن اعتاصت عليك، فلا تُلقينَّ بيدك إلقاء الأمَة، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة، فتنسوا ما لكم في نفوس بني أُميَّة وشيعتهم بقُرطُبة. فإن قاومت من توثَّب عليك منهم، فلا تذهل عن الحزم فيهم، وإن خِفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك، إلى بعض الأطراف التي حصَّنتها لك، واختبر غدك إن أنكرت يومك. وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك، فإني أعرف ذنبي إليهم.

ثم صمت وقد اشتد المرض به وزاغ بصره، فأشار لولده أن اخرج، فخرج، وتاه بصر المنصور بين جدران الغرفة، ثم ابتسم وفاضت روحه وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وكانت وفاته في ليلة الاثنين 27 رمضان سنة 392هـ الموافق 11 أغسطس سنة 1002م.

تُوفي المنصور محمد بن أبي عامر، ودُفن كرغبته في صحن قصر مدينة سالم، وذلك لسبعة وعشرين عامًا من حُكمه، وعمره أربعة وستون عامًا، إذ كان مولده في سنة 328هـ، ونُقش على شاهد قبره هذان البيتان:

آثـارُه تُنبيـكَ عـن أخبـارِه	حتـى كأنَّـك بالعَيـان تَـراه
تاللـهِ لا يأتِـي الزمـانُ بمثلِـه	أبـدًا ولا يحمِـي الثغـورَ سِـواه

❀❀✻❀❀

خاتمة

ولبث قبر المنصور بمدينة سالم عصورًا، مزارًا معروفًا، وذلك بالرغم من استيلاء النصارى على المدينة منذ أواخر القرن الحادي عشر. ويروي لنا ابن الخطيب، أنه عهِد إلى بعض رسله ممن وجَّههم إلى قشتالة لتأكيد عقد الصُّلح مع ملِكها، بأن يزور في طريقه مدينة سالم، وأن يشاهد قبر المنصور، وأن هذا الرسول قد أخبره عند العودة أن القبر ما يزال قائمًا في مكانه، إلا أن رسومه من شِعر منقوش، وتاريخ مثبوت، قد عفَت ومُحيت آثارها، وقد كان ذلك فيما يبدو في وزارة ابن الخطيب الثانية.

وللمنصور شعر جيد نظمَه في مختلف مناسبات حياته، ومن ذلك قوله في الفخر:

رميتُ بنفسي هولَ كل عظيمة ... وخاطرتُ والحُر الكريمُ يُخاطرُ

وما صَاحبي إلا جِنان مشيِّع ... وأسمر خطيٌّ وأبيض باتر

وإني لزجاء الجيوش إلى الوغى ... أسود تلاقيها أسود خوادر

فسُدتُ بنفسي أهل كل سيادة ... وفاخرتُ حتى لم أجد من أُفاخر

وما شِدت بُنيانًا ولكن زيادة ... على ما بنى عبد المليك وعامر

رفعنا العوالي بالعوالي مِثلها ... وأورثَناها في القديم معافر

* وقوله يتهدد الفاطميين بمصر، ويُمنِّي نفسه بفتح مصر والشام:

منع العين أن تذوق المناما	حبُّها أن ترى الصفا والمقاما
لي ديونٌ بالشرق عند أناس	قد أخلوا بالمشْعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأماني وإلَّا	جعلـوا دونهـا رِقابًـا وهامـا
عن قريب ترى خيول هشام	يبلغ النيل خطْوها والشاما

وعن «شجاع» مولى «المستعين بن هود»: لمَّا توجَّهت إلى «أذفونش الفونسو السادس» وجدته في مدينة سالم، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره، وامرأته متكئة إلى جانبه، فقال لي: يا شجاع، أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين، وجلست على قبر ملكهم؟ قال: فحملتني الغيْرة أن قلت له: لو تنفَّس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه، ولا استقر بك قرار، فهَمَّ بي، فحالت امرأته بيني وبينه، وقالت له: صدقك فيما قال، أيفخر مثلك بمثل هذا؟

وآه يا أندلس

يا فردوس المسلمين المفقود، ودولة الناصر والحاجب المنصور، كيف سطعتِ هكذا حتى جاوزتِ السماء علوًّا ثم تسقطين؟ كيف لورثة المنصور والناصر أن يتركوك؟ فأين كان سيف المنصور الذي دوَّخ الممالك وشق الصدور وهزم العدو وأرهب الجميع حتى تقول الأم لابنها: نمْ وإلا فسيأتيك المنصور.

فهل مات المنصور ودُفن معه سيفه، أم لم يجد السيف من يُحسن حمْله فأكله الصدأ واندثر.

❀❀*❀❀

وآه يا أندلس

جفَّ القلم وانتهت الرواية، ولكن حُبَّك في القلب قد زاد اشتعالًا، جف القلم، ولكن بعد أن علَّمنا المنصور كيف تكون العِزة وكيف هم أبطال الأندلس.

راوي الأندلس

شكر وتقدير

إلى الأستاذة شيماء محمد أحمد، والأستاذة الشيماء صلاح الدين سرحان، والأستاذة ابتهال الدسوقي، فقد كان لهن النصيب الأكبر في المساهمة في هذا العمل حتى يخرج كما يجب أن يكون.

للاطلاع على إصدارات أخرى للكاتب:

يمكنك زيارة صفحة الكاتب
على مـــوقع عـصـير الكتب